الواعـــظ

ضحى عبدالرؤوف المُل

الواعـــظ

روايـــة

دار الفارابي

الكتاب: الواعظ
المؤلف: ضحى عبدالرؤوف المُل
dohamol@hotmail.com
تدقيق لغوي: محمد زينو شومان
لوحة الغلاف: الفنان مؤيد محسن

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) – فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/٣١٨١ – الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني ٢٠٢٠
ISBN: 978-614-432-799-9

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

هذه الرواية عمل خيالي. إن الأسماء والشخصيات والأماكن والوقائع الواردة فيها، هي من مخيلة الكاتبة أو جرى استخدامها في النص بشكل خيالي. وأي تشابه بين هذه الأسماء وأسماء أشخاص حقيقيين أحياءً كانوا أو أمواتاً، هو محض مصادفة، وكذلك أمر الأماكن في المدن والقرى والمواقع والأحداث...

حبيبتي مارلا....

أنت عالمك صغير بحدود رواية تطبع وتوزع بينما الوعي ينفتح ليستوعب العالم. الرواية ليست قضية، فكل امرىء بوسعه أن يكتب وينشر ولكن المهم هو ما فيها من العبرة، والعبور منها، فكل شيء باقٍ، الثروات والكتب، الشهرة، الأبناء، كل شيء يبقى مكانه وما يزول هو وعينا وحضورنا هو الدرس من حياة الواعظ.

الإهداء

الامتياز هو الشيء الذي لم يمنح سابقاً لفرد.
فمنح الآن لمن استحق إلى حبيبة روحي ابنتي.

أنا أعيش ما أكتب عن حياتي
لأني كائن حقيقي

صرخت فريدة مذعورة من حركة بين فخذيها صعقتها، كأن الثعبان يكاد يدخل من أمكنة لم تغلقها، بل تركتها مفتوحة لتستريح من تجوال نهار تمضيه بين فناجين القهوة قارئة خطوط البن الجاف الملتصق بقعر الفناجين وحولها، وما تتركه من خيوط وثغرات أو فراغات تشكل الهدف لبن في فناجين تلامس خصوصاً الشفاه تلك التي تتدلى من تخمة وجشع، وبخاصة شفتا جهاد أو الأصلع كما أسميه الذي يثيرها بنظراته...

خرجت من بين ساقيها كطفل ولدته أمه من دون مخاض، فانزويت في زاوية السرير أرتجف. لفتني بشرشف لأهدأ من اصفرار صبغ جلدي، كأني مصاب بداء اليرقان وأنا أحتضر مفزوعاً من عزرائيل أو من شرير خرج من حكايا أمي.

- من أنت يا ولد؟

- دخيلك يا خالتي ما تخليهم ياخدوني؟
- من أنت؟
- لا أعلم؟
- كيف لا تعلم؟
- سيقتلونني؟

حملتني فريدة ووضعتني في بيت التبن قرب الأبقار وأغلقت الباب بعد أن سمعت وقع أقدام في الخارج. عادت إلى سريرها وكأنها كانت تحلم، واستفاقت من كابوس خبيث أرعبها قبل أن تخلد إلى النوم مرة أخرى، وأنا في عتمة الرعب الشبيهة بعتمة البئر التي وقع فيها أخي.

دخل العطر الليموني الغريب في أنفي فانتعشت رغم توجسي وأردت فتح عينيّ لأعرف ما هذه الرائحة؟ مرت خيالات مرعبة على الجدار الحجري المتقطع وعيني تنظر من ثقب ضوئي إلى داخل عتمة يتخللها ضوء خفيف رسم الجسد المرتجف الذي يهتز من عطر ليموني ظننته جاء ليحملني، أبقيت عيني على ثقب صغير مضيء في الجدار وفكي الأسفل يصطك. مياه دافئة بللت ثيابي واستقرت بين أصابع قدمي التي تحركت باحثة عن دفء أكثر حدقت من الثقب الذي تسرب منه ضوء شحيح، ظهر شبح يلف رأسه بكوفية سوداء وهو يمسك بعصا أحسست أنه سيضربها، لكني وجدت فريدة مسترسلة في الإغفاءة المصطنعة. على الأرجح كي لا يشعر هذا الغريب أني موجود

عندها وأنا خائف أرتعد مقطّب الجبين أحبس الدمع وشهقاتي معها كي لا يشعر هذا الغريب أني هنا، فيأخذني إلى أبي.. هذا ما ظننته، كنت أشعر أن العالم كله يلاحقني بعد أن سقط أخي في البئر.

رنين الصدفات المعلقة في السقف فوق الباب كاد يفجّر رأسي حتى أنفاسي تتراقص وتهتز مع غطاء فريدة الملون الذي بدا لي أنه يرتجف أيضاً، وخيال الظل المرتسم على جدار متعرج خيل إليّ أنه يتحرك. حقيقة لم أفهم تفاصيله إلا أنه أرعبني. اهتز وما هدأ مما جعلني أتراقص من فزع ربط لساني وابتلع قلبي الذي شعرت أنه معلق بنبضات قلب فريدة متخيلاً أنه يهتز كصدفاتها. أطراف أصابعي لم تهدأ على الرغم من أني لففتها بكنزتي عندما التصقت شفتا الشبح الذي دخل بخدها. ويده بدت تلاعب كرات لبنية لينة وبصوت أجش قال لها: أنت فرسي الحنون. تركت فريدة في منافسة مع قبلة ساخنة جعلتها تنغمس في شفاه روضتها لتهرب من خوف أصابها جعلها تمسك برأسه الأصلع وتشده بكلتا يديها إلى صدرها لينغمس أكثر بين نهدين يتراقصان بليونة، وتزداد تأوهاتها كما لو أنها تقول لي اختبىء جيداً. إلا أنها جعلتني معها في حالة إدمان ونشوة صاخبة، لم تستفق منها إلا في صباح يوم جديد على أصوات البقرات في شيخ التبان الذي يضم في جوانبه المعتمة الكثير من الأشياء. حقيقة سهوت بعد أن التهبت حواسي كلها، وبقيت مسترخياً مسحوراً محلقاً في عتمة تسربت منها

بقعة ضوء جعلتني أرى منها ما يبهج الروح، تأوهات نقرت على سمعي بعد طول انتظار حالماً بخيال حب انغمست فيه وما زال عالقاً في ذاكرتي، ولا أعرف ما الذي رأيته أشبح رغبة أم شيطان شهوة أم اجتماع الإنس والجن معاً أم انخطاف من الحياة إلى حياة أخرى.

تخدّر نصفي الأسفل وما أحسست جيداً بقدمي الحافيتين على حجارة دغدغتني وأوجعتني، وبنطلوني المبلل بالماء زاد من وجع صدري وتقطع تنفسي وجمّدني مكاني مخافة أن يشعر بي هذا الشبح الأسود الذي تعرى وتراقص وتأوه.

انتفضت فريدة مذعورة وانتفضت معها. ركضت إلى شيخ التبان عارية لتبدأ بحلب البقرات قبل أن ترتدي ثيابها وأنا في ذهول جعلني كالمشلول أو كالمشدود إلى حبل لين. لكنه مقيد في زاوية تنساب إليها شقوق الضوء. أحضرت السطل من تحت نملية خشبية يلفها شبك ناعم شبيه بشباك الصيادين التي كنت أسحب منها السمك قبل مجيئي إلى هنا، شعرت بالجوع الشديد ورائحة الشنكليش والزبدة تخرج منها، وضعت السطل البني المكتحل بالسواد تحت الضرع المنتظر تفريغه من الحليب، وهي تدلل زيتونة وتغني لها : يا زيتونة يا حبي شو بحبك يا مجنونة روقي روقي الحليب رح نحلبو ما تستعجلي يا حنونة!

أخذت فريدة تضغط بأصابعها على ضرع بقرتها زيتونة حتى امتلأ السطل النحاسي بالحليب. رفعت جبينها إلى الأعلى وأمسكت بالسطل واستدارت، فصرخت حتى ترنحت وكادت تقع على زيتونة

والحليب يتموج في سطل مملوء يتلوى تحت قبضة يدها وكاد يسيل على قدميها لو لم تثبته على أرض متعرجة من حجارة مرصوفة عشوائياً وتبن متناثر عليها وهي ترتجف من خوف أصابها عند رؤيتي إياها، إنها كالحليب بيضاء ذات عينين سوداوين وخصر نحيل وقدمين تعج الروح في أصابعهما. لم أستطع رفع رأسي الذي انخفض سريعاً خجلاً والتصق نظري بكاحليها، والخلخال ذو أجراس النرجس يمنحني الهدوء الطيب أو نشوة جمال فريدة عند الصباح.

بيت التبن أو المعروف بشيخ التبان هو المكان الذي ولدت فيه وما زلت أحن إليه وإلى رائحة جدرانه المحشوة بأسراري مع فريدة. كنت حافي القدمين ممسكاً بتفاحة حمراء على حجارة مغطاة بتبن أشبه برمل شاطىء أطأه أول مرة بعد كارثة حلت بي. لدي ما يكفي من الخوف الناجم عن كل ما مر بي بالأمس. ما كنت أخشاه هو أن ترميني هذه المرأة خارج بيتها.

أخدت عقلي يا ولد والله نسيتك.

ركضت من جديد إلى غرفتها الملاصقة لشيخ التبان وأدخلت جسدها في الفستان الطويل لستر الغيم الأبيض الفاتن وهو حليبي أبيض اللون كالذي سال من ضرع البقرة، فوضعته في سطل من النحاس مقوس المقبضين شديد الغلظة والاسوداد من الخارج، وما اكتفت فريدة بذلك بل وضعته على موقدة ملأى حطباً وبدأت بإشعال النار وهي تتمتم «يؤرف عمرك أخدت عقلي». كان سطل الحليب يبلغ

مستوى وجه فريدة الذي بدأ يتوهج مع نار تطقطق وأنا أحبس أنفاسي من خوف ومن دهشة أصابتني بالخرس والرجفة مما أثار غضبها مني.

نظرت إلى وجهي نظرة غضب واقتربت مني ممسكة بالخدين غارسة السبابة وبقية الأصابع الباردة في خديّ ضاغطة عليهما بأطراف أصابعها كعجينة طرية أخذت أشكالاً مختلفة وأنا صامت منذ الأمس متوعدة بضربي إن لم أقل لها من أنا ومن أكون ومن أين جئت؟

كان الفجر في الخارج قد بدأ يتسرب من بين الشقوق إلى غرفة التبان ومن الباب الخشبي الصغير المفتوح قليلاً. صرخت بي فريدة مرة أخرى.

- أحضر السطل المعلق بشجرة التين في الخارج بسرعة لأحلب سودا أيضاً.
- مين سودا يا خالتي؟
- خالتك يا قرد وأنا ما عندي لا أخ ولا أخت انؤبر جيب السطل لأحلب البقرة وبعدين منشوف قصتك.
- اسمي عبدو.
- يا ربي انؤبر يا عبدو جيب السطل.

خرجت من شيخ التبان مندهشاً من برد ريح لفحت وجهي والثلوج غمرت قدميّ اللتين بدأتا تتورمان وتتخدران حتى فقدت الإحساس بأصابعي. جاهدت لأمشي وأصابتني الدهشة مما رأيت، بدا الأمر لي أكثر تعقيداً من رؤيتها مع ذاك.

الشبح الذي هاجمها وعانقها وتراقص ظله مع ظلها، وهما يتعاركان في السرير كما كنت أتعارك مع أخي قبل أن يقع في البئر. إلا أني وقفت تحت أغصان عريشة يابسة يتدلى منها الجليد، كأنها أكواز ماء متجمدة تشبه أكواز الثوم التي كانت تعلقها أمي في زاوية الغرفة لتجففها، ووجه أبي الغاضب دائماً على الدهر وعلى أمي يضربها بعصاه الخيزران التي كانت تصيبني وأخي مع أكواز الثوم والسماق فتنفرط. ارتجف بدني وفريدة تصرخ أين أنت يا ولد؟ لم أنتبه لشجرة التين العارية خلف بيت التبان رغم أن أغصانها المتجمدة يتدلى منها أيضاً الماء المتجمد، أدهشني كل شيء من حولي وشعرت بضعف شديد اتكأت على حجارة سوداء مرصوفة، فظهرت أغصان شجرة عارية تجمد الماء عليها أيضاً. كأنها تسترق النظر. عدت إليها مطأطىء الرأس صامتاً متلعثماً قلت لها: لم أجده يا خالتي..

- خالة الدبب إن شاء الله.
- ورا بيت التبان ابرم للخلف تجده.
- ما هو بيت التبان يا خالتي.
- هيدا البيت الواقف فيه يا غبي.
- خرجت مجدداً ومشيت قليلاً إلى الأمام ومن ثم اتجهت خلف بيت الأحجار المتراكمة بعضها فوق بعض، فرأيت تلك الشجرة العارية مرة أخرى وما من تين عليها. إلا أن السطل يتدلى منها ويكاد يلامس الأرض ويتراقص بهدوء،

أمسكت به ونظرت من حوله فوجدت بئراً لها بكرة خشبية وسطل مربوط أيضاً بحبل غليظ يهتز مع الهواء، وكأنه أجراس كنيسة أتذكرها أو كنت أعيش فيها قبل هروبي ووصولي إلى فريدة.

أحضرت السطل الأسود الذي كان معلقاً بشجرة عارية يقطر منها الماء المتجمد، وناولته لفريدة وتجمدت خلفها بعد أن وضعت السطل تحت ضرع سودا لتحلبها بصمت دون غناء وهي تحدث نفسها بصوت سمعته من هذا الصبي الذي دخل بيتي يا ربي ولا أعرف من يكون. أصابني الفزع أكثر وبت مرعوباً من أي صوت يصدر من حولي منتظراً في أي لحظة دخول أحد يبحث عني أو الأحرى منتظراً أبي الذي سيقتلني حتماً.

يخرب بيتك يا ولد ناقصني فوق همي هم أنا؟ ما كافيني جهاد النحس.

لا تلين الحياة ولا تصبح بيضاء كالحليب ما لم نغل ونفر ونجر كما يجري هذا الحليب من بزك يا سودا. قالتها فريدة وهي تبتسم ولم أنس هذه الجملة قط.

كانت فريدة تتمتع بحنكة امرأة أربعينية ناضجة وحكمة ذات هدوء موشوم بصبر. نظرت إلي نظرة عميقة أرعبتني. إلا أنها ابتسمت لي مجدداً ومنحتني إحساساً بالمحبة بعد أن تأملتني بنظرة فاحصة جعلتني أضع يدي على بنطلوني المبلل بالماء خجلاً وأفرك قدمي

بقدمي الأخرى لأشعر بالدماء فيهما. أضاء وجهها مع ضوء النهار أكثر. صرخ صوت من الخارج فشعرت بالرعب مرة أخرى. ركضت واختبأت خلفها والآلام تزداد في جسدي. دهمني شعور أني سأموت وأن الغولة ستأكلني لا محالة هذه المرة.

لا أصدق أنك لم تسمعي ندائي أيعقل يا فريدة أريد السطل لأحلب بقراتي.

كانت تتكلم وهي تدخل واضعة يديها على خصرها كإبريق زيت أمي الذي كان يرتدي القش إلا أنها ترتدي تنورة مزركشة لم تسمح لي بالنظر إليها مطولاً، ولم ترني بادىء الأمر لكنها ما لبثت أن رأت رأسي يهتز خلف فريدة. فقالت من هذا الفأر الذي خلفك؟ قالت فريدة :

- هذا ابن أختي هارب من أبيه يؤرف عمره مبلل تيابه.

خذيه إلى البيت نظفيه وألبسيه من ثياب خلدون وبعد ذلك نشتري لهما الثياب معاً.

- تكرم عينك ست فريدة.

أخذتني أم جابر أو الأحرى جرتني حافياً وأصابعي متورمة من الثلج الذي حفظ قياس رجلي في قوالب ثلجية وأدخلتني إلى غرفة حجرية صغيرة، شعرت بخجل شديد وذاك المتطفل ابنها على ما يبدو يرمقني وأنا أتعرى. قامت بفرك جسدي وغسلتني بالماء البارد حتى كاد قلبي يتوقف. ارتديت الثياب التي أعطتني إياها وخلدون يراقبني من بعيد عرفت اسمه عندما طلبت منه إحضار الماء من الخارج، مما

جعلني أضع يدي على ثعباني الصغير الذي دخل جحره خجلاً وخوفاً من العار الذي لحق بي، وبقيت صامتاً لم أجب عن أي سؤال سألتني هو أم جابر التي أزعجتها كفي وهي تغطي الثعبان الخجول. جلست أمام موقدة تطقطق فيها النار شعرت بالنعاس يغتالني، لكني خفت النوم بعد أن تسرب الدفء إلى جسدي وفي داخلي غفوة أوقظها كل ثانية، أمسكتني من زندي وجرتني إلى فريدة وهذه المرة كنت أنتعل حذاء خلدون الذي يغمره الثلج عند كل خطوة حتى وصلت إلى فريدة والحذاء لا يحتاج إلا شراب الجلاب، انصرفت أم جابر بعد أن شكرتها فريدة.

راقبت فريدة حتى أنهت عملها الصباحي الذي تكرر كل يوم أمامي، قبل أن يصبح من مهماتي أنا في هذا المكان الذي أصابني بخوف ومباهج ومتع أخرى. وضعت الحليب على النار لتسحب منه القشطة، وتترك الباقي لصنع الأريش الحلو الذي يحبه جهاد الأصلع مع العسل والجوز والملبن والذي تلفه بالقشطة تارة وتارة أخرى بالجوز والزبيب، وهي أمامه تتدلل بقوامها الرشيق والمتمايل كزهر الزنبق الذي يحضره لها خصوصاً من مشاتل أبي داوود كل عام. لتجدد زرعه أمام بيتها الذي بات معروفاً ببيت فريدة الزنبق..

أشهر مضت دون أن تسألني من أكون بشكل جدي. يبدو أنها كانت تخاف سؤالي من أكون، أو ربما لأني حركت بها الشوق إلى

الأمومة التي لن تحصل عليها مع جهاد الأصلع، هذه المرأة الغريدة في قلبي أرادت امتلاكي وهي تعشق ذاك المتخبط ليلاً، والعشق المرضي لا يشفى إلا بالموت. وعلة وجود ذلك الرجل المتأنق على ما بدا بمرورالأيام قلبها المصاب بداء العشق.

يا ربي من أنت أيها الصبي الذي هبط في سريري.. جملة ما هدأت وهي تتساءل بين الحين والآخر من أكون بعد أن أخبرت جهاد الأصلع بقصتي، وكيف دخلت بيتها فجأة لكنه لم يقتنع على ما يبدو. إلا أنه أرسل لي ثياباً كثيرة واشترت لي فريدة أخرى، وقبل الأمر لأكون موجوداً مع امرأة يغار عليها من وجود رجل آخر معها. ذاك المفرط في المجيء إليها ليلاً والذي جعلني أدمن لذة الرغبة الآتية من ثقب في جدار يضعني أمام مسرح خيال الظل وهجماته الشهوانية التي تغتالني، فأستفيق في نشوة لا تفارقني بضعة أيام.

اصطفت الحجارة أمام بيت التبن بأشكال مستطيلة توحي بمقاعد مصنوعة خصوصاً للاستراحة لمن يدخل بيت فريدة، يتخللها جموم الفنطزية في الربيع والصيف والخريف، والأرضية من الحجارة السوداء أيضاً أو الحجارة المكحولة. حاولت الالتزام بالصمت لأن الخوف بقي يسيطر عليّ.

اخترق صوتها جدران شيخ التبان أو بيت التبن كيوم دخلته أول مرة، فتجمدت وتسارعت أنفاسي أكثر وعيناي متعلّقتان بالبقرتين، لكن أحببت اسمه شيخ التبان لأنه حضنني بعتمته الغارقة في رائحة الأبقار

والشنكليش والجبنة والحطب المحترق في موقد صغير. ولأنه مصدر راحتي ومتعتي التي تتوهج في ثقب من نور أ ضاء ظلمات رغباتي. ولم أنس يوماً هذه العتمة التي ولدت فيها ولا الأصوات التي سمعتها تلك الليلة ولا الأبقار التي أصابتني بالهلع وجعلتني ألتصق بحجارة فصلت بين مكانين. ولم أنس يوم شعرت بهزة عنيفة بين كتفيّ، فصرخت بقوة:

- أمرك خالتي.
- من وين أنت يا ولد؟
- لا أعرف يا خالتي.
- خالة الدبب كيف ما بتعرف يا ولد أنت من الضيعة؟
- لا يا خالتي.
- يخرب بيتك إلهي.. يا صبي انطق احكي من أي ضيعة.
- والله ما بعرف يا خالتي، تدحرجت التفاحة وارتميت على الأرض أبكي لأثير عاطفتها حتى حن قلبها وساعدتني على الوقوف بعد أن التقطت التفاحة ومسحتها بطرف ثوبها وضمتني إلى صدرها، فشعرت برائحة الليمون تفوح منها بل اغتالت أنفي، انتفضت منها كالذي أصابته نوبة جنون أو شم رائحة القطران..
- يا خالتي ما بعرف عشت على شط البحر ألملم أكياس الورق رأيت الحنطور قرب شاطىء البحر تمسكت به بعد خوفي من الأولاد كي لا يضربوني مثل كل مرة، لكن

الحنطور الذي أمسكت به وصل إلى هناك، فركضت كانت الدنيا مظلمة وأنا وحدي خفت من نباح الكلاب فدخلت إلى هذا البيت..

- كيف ما عندك أهل يعني؟

تذكرت حكاية أمي عن الصبي الذي عاش مع شيخ البحر فقلت لها : عشت مع عمي حتى مات وبقيت وحدي أعيش في كوخ قرب البحر.

كان عمي ضريراً وكنت أرعاه.

همهمت قليلاً ورفعت نظرها إلى فوق شاكية أمرها إلى الله. إذ لم تكن فريدة لتسأل أكثر أو تدقق بما قلته لها، وهي تعيش وحدها وتحتاج إلى من يؤنسها ويبقى رفيقها في السراء والضراء. كان لي من العمر عشر سنوات تقريباً.

رغم صغري عشت في كنف فريدة راضياً عن عملي الذي أتقنته كفلاح وخادم أهتم بها وبالبقرات التي كنت أنام معها لأجعل من شيخ التبان عالمي المعتم مع أنفاس البقرات التي تعلقت بها، وصوت فريدة العازف على متعة الحب الذي جمعها مع جهاد الأصلع أو أبو ملحم يحفر في قلبي، ويزعجني هذا الرجل رغم أني كنت أنتظر لحظة أضع عيني على ثقب الجدار وأرى ما يجعلني أحلق في سماء وأرحل إلى عالم لا أدرك ما هو. إلا أنها لحظات الانسجام مع مخيلتي وعقلي وحواسي التي تجعل الدم يهدر في عروقي، وأنا المنبوذ في بيت البقرات التواق إلى الحياة.

لم يبق من ذاكرتي إلا اللحظة التي دخلت فيها بيت فريدة وصورة أخي وهو يقع في البئر ويصرخ قبل أن أهرب وأتوجه إلى هذه القرية التي تمج الطبيعة جوانبها والهادئة هدوء بئر أرى فيها وجه أخي...

لم يكن بيت فريدة الزنبق سوى حديقة واسعة وبيت صغير يقع على أطرافها كبيت الساحرات اللواتي تحكي لي فريدة عنهن، وهي تصنع صواني القش وتلونها بحبكات حلزونية ذات ألوان وأحجام مختلفة، وأبرزها صينية كبيرة كمتاهة ذات دوائر حلزونية ملونة تزين بها جدران بيت التبان الذي دخلته أول مرة، والرعب يحتل حواسي قبل جسدي للعتمة القوية التي اغتالتني في داخله الممتع المرعب. إلا أن رائحة بيت التبان القائم على جدران من حجارة سوداء وسقف من طين تجعلني كمن علقت في أنفه رائحة الولادة واللذة والخوف. وفي كل مرة تضع بقرة في بيت التبان أشعر أن عائلتي تكبر، وأن الأبقار نعمة افتقدتها في البيت الذي خرجت منه هارباً راكضاً متمسكاً بحنطور تعلقت به لأصل إلى بيت فريدة الزنبق والتفاحة في يدي.

كنت أشعر أن هذه القرية خرجت من قمقم الطبيعة لأنها بين قبضة الجبال المرتفعة في هوة عند أطراف جبل شامخ بأشجاره الكثيفة، وعندما سألت خالتي عن اسمها قالت : خربة داوود. هذه القرية «كم بيت ودكان»، لكن جمالها في بيوتها الحجرية الفقيرة ومحبة أهلها. صحيح أني أعيش وحدي في هذا البيت. لكني أشعر أن خربة داوود هذه بيت واحد ذوغرف ننام فيها ليلاً. وديوك تصيح فجراً وتهلل لبداية

يوم جديد يبدأ بحلب البقرات وينتهي بدعك قدمي فريدة أو ثقب أفتحه على عراك أدمنته بأصواته وحركاته ولذائذه المخدرة. لم أكن أشعر بالغربة في بيت التبان ولم أخش خيال الظل هذا. إذ لا بئر على سرير فريدة لتقع فيها أو يقع فيها هذا الرجل الذي يأتيها كل أسبوع تقريباً. فيتعارك معها وتتأوه إلى أن تسترخي وتنام كدودة الحرير ملتفة بشرنقة دون ورق توت أسطره لها إلى أن تستيقظ في اليوم الثاني مفعمة بالحيوية والجمال.

رغم حزني لأني لست ابنها ولأنها لن تنجب من رحمها الولد الذي تتكىء عليه في كبرها. إلا أني جعلتها تشعر بأمومة ناقصة. إذ أوكلت إليّ الاهتمام بالبقرات وبيع الحليب وصنع القشطة لجهاد الأصلع، كما أني أدمنت العناية بقدميها اللتين ازدادتا بياضاً وليونة كلما نقرت بها على الأرض واهتز خلخالها مع خطواتها التي أشعر أنها تنقر قلبي، كانت تهتم بإبقاء قدميها طريتين ناعمتين كي لا يشعر جهاد الأصلع أنها فلاحة خشنة كما كانت تقول لي كلما فركت لها أصابع قدميها.

أحضرها جهاد الأصلع من بيت والدها لتخدم زوجته، وتتعلم صنع اللبن والجبن وتقوم بإعداد طعام الولائم في بيته قبل أن تستقر في بيت الزنبق الذي جمعني بها وساعدني لأكون مستقلاً بعيداً من أي مأزق بعد وقوع أخي في البئر، أخبرتني ذات يوم أنها كانت تقرأ فناجين القهوة في صبحيات ست خديجة وتؤمن بها النساء جاراتها، مما أخاف

الرجال من فضح أسرارهن فوضعها جهاد الأصلع في هذا البيت لتبقى لياليه عامرة بجمال يكسوه النضج والحب وهو الأصلع الذي يهتز عند أي عاصفة اشتياق تصيبه عند لقائها حتى يخيل إلي أحياناً أنه سيلفظ أنفاسه الأخيرة بعد كل عراك معها.

كانت غرفة فريدة بنورها الباهت وسقفها العالي المحمول على جذوع الأشجار تحمل الطين المحروق قوية بما يكفي لتتحمل عواصف عراك ظلال جسدين أستمتع برؤيتهما كل ليلة خميس وأتـذوق إيقاع تأوهاتهما، كأنهما على مسرح خيال الظل أو في صندوق الفرجة الذي كنا ننتظره بفارغ الصبر مع أخي قبل أن يسقط في البئر ويحدث ما يحدث، وهنا أنظر من ثقب في جدار بيت التبان دون امتعاض من فريدة ذات البشرة البيضاء والشعر الأسود الطويل الملامس لقدميها والمنسدل بنعومة حريرية، بل كنت معجباً بفنها مع هذا الرجل الغبي الذي يتدثر بغطرسة لم أفهم سرها حتى في السرير مع فريدة المستسلمة لقبلاته وقطرات عرقه التي تبللها وأشعر بها تتلألأ مع الضوء كأكواز الثلج المعلقة في أغصان الأشجار، كانت تقول لي: نحن الفلاحين لا نملك من أمرنا شيئاً لأننا ملك أصحاب الأراضي يا عبدو.. فقراء لكن أن تعرف إنساناً يعيش داخلك يعني أنك تحمل العالم أينما حللت. ومن اعتاد أكل الملح لن يستطيع تذوق قطعة سكر واحدة. وإلا سيبصقها كما يبصق أبو ملحم بعد خروجه من غرفتي.

– شو يعني ملك أصحاب الأراضي يا خالتي.

- يعني روح على شغلك يا عبدو من فم ساكت ونظف تحت البقرات منيح يا رب سودا تنجب عجلاً هذه المرة لأشتري لك كم خروف.
- قوليلي شو يعني ملك أصحاب الأراضي؟
- انسى هالسؤال، والله يا خالتي هيدي الناس صدقتها، إنك ابن أختي اليتيم وجبتك تعيش عندي بعد ما تزوج أبوك.
- مين أبوك يا عبدو؟
- والله ما متذكر يا خالتي.
- يؤرف عمرك شو متذكر أنت؟
- متذكرك أنت وبتلفيني وبتحطيني مع البقرات.
- هههههه أي والله خفت عليك، افتكرت شي غبي يتبعك ليقتلك. لأني بعرف ضربهم جربته يا خالتي..
- كيف يا خالتي؟
- يوم أبي ضرب حصان أحدهم وجفل الحصان ورماه.
- -مات أبي تحت الضرب يا عبدو.

كان حديثي مع فريدة يشعرني بالفرح رغم أن لهجتها لا تشبه لهجة الصيادين ولا لهجة أمي، فهي تحبني وأعرف جداً مدى تعلقها بي بعد سنوات مضت بسرعة حملت فيها سر وقوع أخي في البئر. وحملت المباهج اللذيذة المحفوفة بالخوف وبموسيقى تتناهى إلى مسمعي فأطير معها إلى أن يرتجف جسدي وتسكنني نشوة فريدة التي

تترك جسدها مكشوفاً دون غطاء، فأتأملها صباحاً قبل أن تستيقظ وهي فاتنة الجمال فتية شابة تصغر الأصلع بكثير. شاطرتها الحزن والفرح والمتعة والخوف وكنت خادمها القوي الأمين. إلا أني لم أتزوجها لأنها تعشق الأصلع وتنعم معه بلياٍل نادرة الوله. رغم ما كان يظهره من شغف نحوها لم أشعر بحبه القوي لها عند خروجه من غرفتها متنحنحاً كديك جارتنا أم جابر يهز كتفيه ويصدر صوت نحنحة غريبة ومن ثم يبصق على جموم الفنطزية.

كانت فريدة تخاف عليّ من غضب جهاد الأصلع أو أبي ملحم الذي ينظر إليّ بحقد، ربما سببه غيرته على فريدة مني، فبرغم عمري الصغير حينذاك، إلا أني كنت من الغلمان الذين يبلغون الحلم باكراً وعندما حاول جهاد الأصلع معرفة من أكون سعت فريدة جاهدة لمنعه من ذلك متعللة بأنها تحتاج إلي معها لمساعدتها وللبقاء في خدمتها لتبقى بمأمن وهي تعيش وحدها.

أبو ملحم لفتته قوتي البدنية فيما بعد. لهذا لم يزعج فريدة لوجودي عندها. بل كان يتقصد إصدار الأوامر في كل مرة أمامها ليشعرها بمدى قوته وضعفي لأطيعه ويروّضني وأعتاد خدمته. لأن قلة اختلاطي بالفلاحين ستجعلني بعيداً من العين. عندما يحكم الخبثاء على الضعفاء يبدأ الخراب على الأرض.

يراودني الإحساس بالغضب كلما زارتنا أم جابر مع طلوع الفجر أحياناً. فتجلس منتظرة صحن القشطة وتستحوذ عليه، كأنها الثعلب

الذي يسرق دجاجات فريدة ليلاً أحياناً عندما يغدر بي النعاس. لكن خلدون بات صديقي ذاك الشقي كان شديد السخرية من الأصلع ويقلده جيداً خصوصاً في بصقته وفرك أصابعه واللعب بذقنه. كان يغمغم بكلمات لا أفهمها عندما يمر الشيخ مرزوق من أمامنا ونحن نجلس على الحجارة المرصوفة أمام بيت فريدة.

يترك جهاد الأصلع فريدة عشرة أيام أحياناً، فتصبح مريضة أياماً ومن ثم تتعافى وتعود إليها رشاقتها مع أني لم أكن أعلم أنها في فترات الحيض تتألم وتتوجع إلا بعد أن كبرت قليلاً واستطعت اكتشاف ذلك. فأسعى لخدمتها ولا أتركها. هذا الأبله يتركها في المرض ويأتيها وهي معافاة تتشوق إليه كعروس في ليلة دخلتها في كل مرة وتتوهج أكثر عندما يلمسها فيجمّلها أكثر وهو يشاطرها سريرها ليلة بأكملها كل أسبوع وأشعر بإثارتها إلى حد الجنون. لتصبح أكثر إشراقاً وليونة وبياضاً وجمالاً. وهي قوية البنية خصوصاً عند اشتداد عاصفة الشوق التي تضرب بها كما تضرب عاصفة شهر كانون قرية خربة داوود.

في المساء وعندما تشعل فريدة القناديل الثلاثة أحضر لها العشاء الذي تحبه الشنكليش المفروم مع البندورة والبصل الذي تأكله بشهية كبرى مع خبز مرقوق ساخن يوم تكون مريضة أو جهاد الأصلع في طرابلس بضعة أيام. يكفي أن تحب شخصاً ما لتمنع نفسك عن كل ما تحبه. وأنا أحببتها ومنعت نفسي عنها احتراماً لرغبة أمومتها فيّ.

- الشنكليش اللي بتحبيه يا خالتي.

- خالة الدبب إن شاء الله، يا صبي قول فريدة.
- يا خالتي ما بحب قولك باسمك فريدة لأنك خالتي، بس يا خالتي شو يعني إنت عشيقة الأصلع؟ وأنت وحدك بهالبيت ما عندك أهل؟
- شو عرفك يا صبي؟
- سمعت أم جابر تقول ذلك لخلدون عندما ذهبت أعطيها الجبن. كما قالت لإحداهن أيضاً إنك امـرأة متصابية ومحمية من جهاد الأصلع، وما رح يخليكي تتجوزي ولم تنتبه أني كنت أجلس مع خلدون تحت الشباك إلا بعد أن قالت لجاراتها إن فريدة عشيقة الأصلع ومين بيقدر يحكي معها كلمة تزعجها؟

حدقت إلي فريدة وقالت ضاحكة : إنها على حق فلا شيء يزعجهن إلا عشيقات الأصلع. قص الله لسانها، النساء يراقبنني وما فناجيهن إلا الحجج الواهنة ليزرنني ويتحققن أن بيتي لا يليق بأبي ملحم ولا بتطلعاته نحو مجد السياسة لأنه أصبح يمتلك الكثير من الأراضي التي وصلت إلى خربة التين في سوريا ووادي خالد وأيضاً الكثير من بساتين الليمون في طرابلس وحولها التي تذكرني بأهلي..

- شو هو السهل يا خالتي؟
- يا لطيف شو بتسأل كأنه ما عشت ولا سنة قبل ما تجي لعندي السهل أرض لا جبال فيها قريبة من البحر.

ارتجفت مجدداً عندما ذكرت البحر فسارعت وسألتها:

- أنت من السهل يا خالتي؟
- أي من السهل يا عبدو لما زور أهلي باخدك معي لتشوف بساتين الليمون التي زرعها أبي ما أجملها متل الذهب عند المغيب الله يسامح أبو ملحم جابني وحطني بهالضيعة، لا يا ليت ضيعة هي كم بيت وتنور. هذه مصطبة الأصلع يا عبدو بكل مصطبة في امرأة ما في ديك بلا دجاجة يا عبدو.
- ضحكت بصوت عالٍ مطمئنة أن جهاد الأصلع في طرابلس. وقالت لي:
- غداً تذهب إلى بيت الشيخ مرزوق وتطلب إليه أن يعلمك القراءة.
- لا أريد يا خالتي.

قضيت أسابيع لأقتنع بفكرة أن أتعلم القراءة في بيت الشيخ مرزوق الذي يعج بالأولاد الكبار والصغار وهو جالس على المصطبة كأنه ديك أم جابر الذي يقف على مصطبتها، كلما زاد عدد الدجاجات أمامه أو كأنه ملك السبعة بحار الذي تحكي لي عنه فريدة كل ليلة، كما اعتادت يوم يتغيب جهاد الشتلة وهي تصنع صواني القش التي بدأت تنال شهرة في القرى المجاورة صواني فريدة الزنبق القش.

أجمل الحكايات هي تلك التي نعيشها ونحكي عنها للآخرين وكأن تفاصيلها خرافية لا تمت إلى الحقيقة بأية صلة وأنا يا عبدو

أحضرني جهاد الأصلع من بيت أبوي ليقص جدائلي ويجعل مني خادمة الأكابر أو لعبة أم عميش لرجل يتصنع الوجاهة وهو الذي يعاشر نساء الفقراء ليذلهن، ويشعر أنه انتقم لرجولته من نساء لا يستطيع استمالتهن.

- عن أي نساء تتحدثين يا خالتي.
- نساء المدينة النساء اللواتي في صالونات رجال السياسة يا عبدو.
- من هم رجال السياسة يا خالتي؟
- بس تكبر بتعرف.. المهم بعض أشيائنا لا نغادرها حتى الممات.. منها مثلاً طباعنا الأساسية وأنت غدوت لي طبعاً.. من شب على شيء شاب عليه.

لم يفارق كلام فريدة مخيلتي كأنه الحليب الساخن الذي يصبح أكثر بياضاً قبل أن يغلي ويفور غاضباً مثل الضباب الذي يرتسم بأشكال مختلفة كلما نمت على الأرض وشعرت بقسوة البئر التي و قع فيها أخي، ونحن نتشاجر من أجل تفاحة أعطاني إياها صاحب القبعة البيضاء الذي كان يصطاد السمك قرب السنسول، وما زلت أشعر أني أنا من وقع في بئر فريدة وهذه القرية التي دخلتها متجمداً من الثلوج ومرعوباً خائفاً من عتمة بيت التبان ومن أصوات نهر اللذة الذي يجري في سمعي في كل ليلة ينام أبو ملحم في سرير فريدة التي تتأوه

كما تتأوه مياه بحيرة الكواشرة التي أصطاد منها السمك مع خلدون، والمتعة القوية التي تثيرني حتى الجنون وتصيبني بنشوات تتكرر حتى في أحلامي. فأنا مدين لهذا الرجل الذي جعلني أتطلع إلى معرفة حركة الأجساد ونشوة الأرواح المتحررة من أجسادها. أحياناً تتشابه المباهج والآلام وقرصة البرد الشديد يصعب تخفيفها ما لم أنس وقوع أخي في البئر. كنا نلملم الأسماك من شباك الصيادين قبل أن نتشاجر من أجل التفاحة. يرن صراخه في أذني كما يرن صوت فريدة مع الأصلع وأحاول النسيان كل مرة فأفشل في ذلك.

كنت في كل ليلة جمعة أتوجه إلى بيت أبي ملحم وأنا أحمل جرة ملأتها فريدة بالقشطة، فتطل عليّ خديجة وعلى رأسها الشال الأبيض الشفاف، كأنها حورية البحر وتمنحني كمشة من الزبيب واللوز بعد أن تفحص الجرة بعناية فائقة وتمسحها بقماشة من مخمل مغمسة بالخل الذي أكره رائحته المنبعثة من جرار فريدة والذي يصيبني بالتهيج وتتأهب حواسي منه خصوصاً عند اختلاطه برائحة زهر الليمون. في أول مرة التقيت خديجة زوجة أبي ملحم انبهرت بجمالها ووقفت كالأهبل صامتاً وتلعثمت بضع دقائق قبل أن أقول له : خالتي فريدة ترسل لك القشطة.

لم تسخر مني خديجة كما كان يفعل ذلك جهاد الأصلع. فركت كفي بعد أن أنهيت أكل الزبيب واللوز وأنا أنتظرها لتعطيني الجرة. إلا أنها نادت سهام لتقوم هي بالمهمة. بقيت منتظراً وأنا أجول ببصري

على المطبخ بسقفه المرتفع و طناجره النحاسية كالنمل الذي يصطف بثبات لمقاومة ريح عاتية، والأواني الفخارية وصواني القش من صنع فريدة التي تترك بصمتها الحلزونية على كل صينية تقوم بصنعها من دائرة حمراء تنتهي بمثلث وفي داخله عدة دوائر صغيرة.

تركت منزول أبي ملحم وأنا أفكر في جماله وسرح ذهني إلى أن وصلت إلى تلة قرب نبع جعلوك الواقع غرب القرية لأستريح من مشواري الأسبوعي إلى منزل أبي ملحم وجرة القشطة بين يدي. وضعتها على الأرض وأخرجت السكين الصغير المعلق بالشملة التي ألفها على شروالي رغم خصري النحيل. عندما رأيت جذع شجرة صغيراً على الأرض. لم أفهم حتى الآن كيف استطعت صنع قارب صغير من جذع ملقى على الأرض، ولم أنتبه إلى أن الشمس بدأت بمشوارها المغيبي. إلا عندما سمعت صوت فريدة يقترب مني ركضت نحو صوتها، فأمسكت نعلها وبدأت تضربني، فركعت أمامها وتركتها تضربني حتى تعبت وهي تصرخ انشغل بالي عليك افتكرتك غرقت بالنهر يؤصف عمرك إلهي.

- نهر هنا يا خالتي؟

رمقتني ثم استدارت ومشت بخطوات تغرزها في الأرض كفلاحة غاضبة من ثور كبير، فلحقت بها وهي عائدة إلى البيت وفي يدي الشختورة الصغيرة التي صنعتها دون أن تكلمني، لكن أحسست

ببكائها حتى كدت أمسح دموعها، لكن لم أجرؤ حتى وصلت إلى البيت وهي تلهث..

أسرعت وأحضرت الوعاء النحاسي وملأته بالماء والملح وماء الورد الذي تضعه في خوابٍ ترتدي أثواباً من خيزران، والخزامى والقصعين ووضعته تحت قدمي فريدة وبدأت أفرك قدميها حتى استرخت غالباً ما يقال إن سر روح المرأة يقبع في أصابع قدميها. إن ما يبقى من الرغبات في النفس يجعلنا نستمتع بالحياة بشكل فطري سليم وهذا ما فعلته لرغبات داخلية عششت بي جعلت من قدمي فريدة رمزاً لوجودي الحقيقي على الأرض.

- دخيلك يا خالتي ما تزعلي.
- العمى بعيونك رعبتني افتكرتك غرقت أو رجعت من مطرح ما جيت.
- بعمري ما بتركك يا خالتي وأخذت أفرك قدميها مجدداً بأصابعي التي تجعلني في نشوة وراحة كنت أفتقدهما في بيتنا من قبل وهي تتأملني وتلاعب شعري الطويل ورأسي الصغير ورقبتي الطويلة التي تنحني تلقائياً لفريدة عندما أمسد قدميها..
- ما الذي كنت تفعله على تلة أم عيون؟
- مين أم عيون يا خالتي؟
- يخرب بيتك التلة التي كنت تجلس عليها اسمها تلة أم عيون.

- التقطت جذع شجرة مرمياً على الأرض، لأنحته فصنعت منه قارباً صغيراً ونسيت حالي يا خالتي. ما تقوليلي تلة أم عيون لها حكاية أيضاً.
- من وين تعلمت هيدا الشغل؟
- ما بعرف يا خالتي بس طلعت معي لما لقيت جذع الشجرة، أثار اهتمامي وأنا جالس في الجهة الأخرى من الوادي، وادي أم عيون هههه.
- هات هذه الشختورة التي جعلتني أضربك من خوفي عليك.

أحضرت الشختورة من شيخ التبان بعد أن أضفت إليها بسرعة شراعاً من قطعة قماش مزقتها، وأخذت منها قطعة صغيرة حولتها إلى شراع، فزاد جمالها وأصبحت جميلة المنظر وهي بين يدي، كأنها جاهزة للسفر. أمسكتها فريدة وتأملتها ومن ثم وضعتها على نافذتها المربعة والغائرة في الجدار الحجري، كأنها قطعة أثرية في كهف تم اكتشافه داخل جبل عكاري مخفي وهي تلامس سريرها النحاسي العالي الذي تغطيه بشرشف من قماش ملون جمعت أقمشته من الثياب العتيقة الملونة بعد أن صنعت منها مثلثات مبطنة وعلقتها بعضها ببعض بالخيط والإبرة. فأصبحت كحراشف سمكة. استرجعت في ذاكرتي كلمات نظمية وهي تقول لها أنت من عائلة إنكليزية يبدو أنها أتقنت فن التطريز أو ربما من عائلة تركية نزحت إلى عكار يا ويلي ما كلنا عثمانيين أتراك.يومذاك صمتت فريدة وتناولت طاسة الماء المحفور

عليها سلالة أحصنة تحبها. بللت شفتيها ومسدت شرشف الحراشف القماشية الملونة بيديها، ليصبح الغطاء كلوحة فسيفساء مصنوعة من ألوان قوس قزح. أو الأحرى مثلثات من كل لون وبحجم واحد تصطف بتكرار ونظام يحتاج إلى صبر تتقنه فريدة القادرة على الصمت دهراً يمضي وهي تخيط مثلثاتها الملونة أو القش في صينية تعلقها على جدار ما.

كان على نظمية مهمة الاعتناء بفريدة بأمر من جهاد الأصلع من حيث حاجباها وإزالة شعر ساقيها وإعادة نضارتها وتسريح شعرها الطويل الذي يصل إلى كاحليها. كنت أتساءل كيف يهتم بجمالها ولا يهتم بمزاجيته معها. إذ تبدو حزينة جداً لأنه تعشى ورحل دون أن يتعارك معها في فراشها.

بدا العيش مع فريدة مثالياً أو هذا ما ظننته حتى اهتديت إلى اقتناع أني خادمها الأمين وبات فراقها يخيل إلي أنه أصعب من وقوع أخي في البئر، وهي كتفاحة في يدي اختطفتها من أخي ولم أستطع أكلها حتى تهرأت ومن ثم تيبست وتلاشت، وأنا أراقبها كميت في بئر، وفريدة تفاحة لا أطيق فراقها ولا أستطيع الأكل منها. كنت أسعى دوماً إلى تأمين راحتها، وأدرك أوقات حزنها عندما تبدأ بتشكيل مثلثاتها من الأقمشة لصنع طراحة أو شرشف أو مسند أو حتى ستار لنافذة تعلوها حجارة سوداء. ليس على الإنسان أن يقف عند نهاية هي بداية لنهاية أخرى، وما كان مني إلا الانصياع لخالتي فريدة لأتقن القراءة والتجويد

عند الشيخ مـرزوق. وهو سمين ذو كرش يتدلى. عبوس الوجه وصاحب صوت خشن يجعل السامع في حالة من الدوران الشديد. ربما هذه صفات أصفه بها لأني لم أحبه يوماً. لكن له الفضل بتعليمي القراءة والحساب والكتابة بخط جميل جداً.

على العموم في الليالي الباردة جداً حيث يقرص البرد الشفاه يحلو لي حدل السقف كي لا يتسرب الماء إلى الداخل كما يحلو أكل البلوط المشوي ولعب البرجيس مع فريدة. تجلس على الأرض وتمد ساقيها فيهتز خلخالها مع كل حركة وهي تعد مربعات البرجيس، أغلبها أو تغلبني إلا أننا معاً ننهي الليل بأكل البغاجة التي امتهنت صنعها بالقشطة والعسل وبشرب مغلي البابونج في كؤوس من نحاس وأنام تحت سريرها مسترسلاً قبل أن أنتفض صباحاً مع أصوات البقرات التي أهجرها في شيخ التبان وأنام في غرفة فريدة عند غياب الأصلع.

عادة خلدون البدين هو من يستقبلنا في بيت الشيخ مرزوق وهو المسؤول عن تنظيم جلوسنا واستراحتنا ومراقبتنا، تعود معرفتي به إلى يوم ولادتي في بيت التبان، لم أنس مراقبته لي والماء البارد يغسل جسدي من إثم البئر ولعنتها. لم يحلق لحيته بعد أيضاً، ينتعل دائماً حذاءً مفتوحاً من خلف مصنوعاً من الجلد، بينما أنا ما أنتعله من البلاستيك أو الكاووتشوك وأسعد النحيل هو المسؤول عن نظافة الليوان أو المكان الذي نجلس فيه، وما إن مرت الأشهر حتى تعلقت

بهما وتعلقا بي، علمنا الشيخ مرزوق آداب الانصياع للأوامر حتى باتت لعبتنا المفضلة إطلاق الأوامر وتنفيذها فيما بيننا. أذكر مرة طلبنا من أسعد جمع جموم البلان حتى تورمت يداه أياماً وأصبحنا نحن من يقوم بخدمته وبمهامه في بيت الشيخ مرزوق وهي جلب الماء وملء الجرار كل يوم.

كنا نلتقي في مرج القرية أو في المرعى حين أسرح مع سودا وزيتونة. لم أكن قد انتبهت إلى أن أسعد يميل إلى المشاغبة إلا حين اشتبكت مع خلدون ومعه عند الشيخ مرزوق. إذ قرر أسعد سرقة السمكات التي أحضرها أبو وليد للشيخ مرزوق بعد أن علق السلة بدوره تحت العريشة كي لا تهجم عليها القططة بانتظار عودة ابنته من شك الدخان ليلاً كي يتعشى السمك بعد أن ابتُلي خلدون وأسعد بتنظيفه وتوضيبه على النهر وراء التلة. لم يكن دار الشيخ مرزوق إلا مدرسة جمعت الغلمان والفتيات لتنطق ألسنتهم باللغة القرآنية التي أتقنها الشيخ مرزوق. إلا أنه ما استطاع ردع بصره من التلذذ بالنظر إلى الجميلات منهن خصوصاً فضيلة ذات العينين الزرقاوين والخدين الأحمرين، فأنهكها تعباً بطاسة الماء من الجرة كلما أراد أن يستمتع بحركة مؤخرتها وهي تحضر له طاسة الماء ليشرب وتعيدها أيضاً، ليروي ظمأه برؤية مؤخرتها التي تهتز تحت تنورة من الكتان. إذ تلتصق ببجامتها الطويلة أو اللباسة بمؤخرتها، وهي بيجاما قروية لم ترتدها فريدة يوماً.

فهمت وأنا حينذاك ابن العشر سنوات وتزيد سنتين أو ثلاثاً تقريباً أن الشيخ مرزوق تفتنه البنات الصغيرات ونظراته تنطق بشواهد أحاسيسه وهو من أتقن فهم الأحاسيس التي تتألق كلما التقى جهاد الأصلع فريدة، ذلك الحب الذي لم يفهمه وخصوصاً أن خديجة زوجة جهاد الأصلع تشبه الحوريات أو الملائكة في ليلة بيضاء. ومع أني عشت وحيداً في بيت فريدة. إلا أني كنت أدللها مثل ملكة في قصرها الخرافي أو أميرة في خدرها. وليست عشيقة جهاد الأصلع الذي لا يبلغ مستوى عتبة باب شيخ التبان الفاصل بينه وبين غرفة فريدة أو حتى بابه الخشبي العتيق.

الحقيقة أنني أحياناً كنت أشعر أنه من أقزام الحكايات التي ترويها لي فريدة في ليالي كانون الباردة ونحن نشوي البلوط، أشهرها حكاية حديدان وجارته الغولة التي ينتصر عليها في كل مرة وينتفخ صدري أياماً بعدها، وأخاف على فريدة أكثر من خوفي على نفسي، خصوصاً عندما تمرض وتصبح قلقة جداً، لأن جهاد يتوقف عن زيارتها أسبوعاً وأكثر. إلا أني كنت أنفخ الصدر وأشعر أني حديدان الذي تحدى الغولة وما أكلته، ومع ذلك لم يعجبني ما يفعله الشيخ مرزوق بالفتيات من فرض لخدمته وهو يقوم بتدريسهن القرآن. وعيناه على مؤخراتهن.

نادى الشيخ مرزوق بالفتيان إلى صلاة المغرب يا شباب اليوم أنا متعب سأصلي في الدار. إلا أنني لم أغادر الدار وقلت للشيخ مرزوق

خالتي فريدة طلبت إليّ انتظارها هنا تريد التحدث إليك. تأفف الشيخ مرزوق وهو من وعد نفسه بأكل السمك الليلة، فإن جاءت فلن يستطيع أكل السمك إذ ربما تأكل معه وأتبعها أنا بالقضاء على سمكاته، رمقني بازدراء وقال لي:

- قل لخالتك اليوم إني متعب غداً صباحاً.
- لا يا خال لا أستطيع هي قادمة ستصل.
- أحضر لي الماء لأتوضأ إذاً وساعدني على تنظيف الدار قبل أن تأتي ابنتي.

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

- بتعطيني حلقوم؟
- يخرب بيتك ما بتشبع أكل وبطنك وظهرك سوا؟

لماذا تتركها تعمل في شك الدخان يا خال؟

- وهل تستطيع الرفض ونحن الفلاحين لا نملك إلا ما نأكله.
- كيف ذلك يا خال؟
- هذه أراضي الأغنياء ونحن الفلاحين لكن شيخ القرية يعتمد عليّ بتعليم صبيانه القراءة. غير أن ابنتي يمكنها العمل مع الآخرين ولا أستطيع الرفض. لا بأس نحن سعداء يا ولد معها بنات من عمرها وبالكاد أنجبتها قبل أن تموت أمها وهي ونيستي.

كانت الأراضي المزروعة بالتبغ محددة وهي أشبه بمربعات

تتغير أشكالها في الفصول من خضراء إلى صفراء إلى حبال تتدلى منها هذه الأوراق التبغية حتى جفافها وتحميلها وإرسالها إلى إدارة حصر التبغ والتنباك. هذه المراحل كنت أشارك فيها خلدون وسعدون وأم جابر وبعض الجيران أيضاً. ونغني ونمرح وأشتري بالقروش السكاكر الملونة من دكان خالد أفندي الدكان الوحيد في قرية خربة داوود.

ختمت جزء عم بسرعة وبدأت بختم ربع ياسين وهذا لم يحدث قط مع أي من التلاميذ عند الشيخ مرزوق فأرادت فريدة أن تثني عليه على هذا المجهود الذي بذله معي، وهي مسرورة جداً أني أصبحت أقرأ مثل الأفندية في القرى المجاورة. وجدته فريدة يصلي، طلبت إليها الجلوس على اليووك لتستريح من مشوار الطريق والعرق يتصبب من جبينها بعد أن قطعت شوطاً طويلاً في الحياة. ولم تتعلم أن الحرف الذي تسمعه ويجعلها في قداسة لا تدرك سره هو الحرف الذي سينطق به الولد الذي هبط إليها من السماء وأصبح كابنها الذي كانت تحلم به وحرمها منه جهاد الأصلع.

لبثت فريدة في بيت الشيخ مرزوق قرابة نصف ساعة قبل أن ينهي صلاة المغرب ويجلس معنا منتظراً منها بدء الحديث بما تريده من زيارته له.

- الله يزيد فضلك يا شيخي.
- بما أن عبدو ختم جزء عم سأعطيك الربع ليرة التي اتفقنا عليها ولك مني ليرة بأكملها عندما يختم ربع ياسين لأن أبا ملحم يريد تسليمه دفاتر الغلة وليرة كاملة عند ختمية القرآن.
- والله دفاتر الغلة؟
- أي والله يعني الله يخليك تهتم فيه بالحسابات وإلك مني حليبات كل يوم وثلاث فرنكات فوقها.
- تكرم عينك يا فريدة وصينية قش وطراحة فوقهم.
- من عيوني يا شيخ مرزوق بكرا الصينية بتكون عندك، لكن أرسل لي ما هو عتيق من الثياب عندك لأصنع لك الطراحة ومسنداً ملوناً وحبة مسك فوقهما.
- حاضر يا ست الستات يا جميلة القرية. كأنه زايد وزنك أم مخطىء؟
- نعم شيخي زايد أي والله.
- من أكل القشطة والعسل كفي عن العشاء يا فريدة وأثناء الجوع عليك بالخيار أو الخس أو الملفوف الحقول مليانة خير الله اسمعي الكلمة بعد ثلاثة أشهر ستكونين رشيقة كالحجية الترشيق يحتاج تطبيق.
- حاضر شيخي.

- -أمسكت فريدة بيدي فرفعتها عن اليوك بعد جلسة انتظار كللتها بالاتفاق مع الشيخ مرزوق لتعليمي على يد بصباص القرية ربع ياسين، وهي تعشق صوتي عند قراءة القرآن فجراً خصوصاً سورة «طه» وأنا أحلب البقرتين زيتونة وسودا اللتين تركتهما لي بعد أن أتقنت العناية بهما. كما كنت أقرأ لها أيضاً عندما تمرض سورة الفلق، فترتاح وتنام مستقرة بانتظار معركة مع جهاد الأصلع الذي يستسلم لها قبل أن تبدأ الرقص وأستمتع معها بليلة من ليالي الظل في ضوء سراج وفتوش بفتيلة حمراء.

كانت تستمتع بمراقبتي وأنا أقوم بواجباتي اليومية كنس الدار ومد الحصيرة ونفض الطراريح ومسح كل جرة بماء الورد كي تبقى رائحتها منعشة طوال النهار وهي تقشش وتصبغ القش لتنسج منه صواني الزينة والأكل واستطاعت أن تستخلص من جهاد الأصلع ثمن بقرة جديدة لتستطيع تزويجي عندما أكبر وهذا أسعد أبا ملحم، الأصلع. إذ لم يكن مقبولاً بالنسبة إليه أن أبقى قرب فريدة، وأنا أنمو كنخلة في داره ومازلت بعمر الغلمان، تخيفه نظراتي الحادة، وكنت أتقصد ذلك وفريدة تمسح له الحذاء في الخارج بينما أجهز له الحصان ليخرج من بيت فريدة الزنبق كالمخمور من ليلة ما استكملها قبل أن تخور قواه كفلاح حصد حقلاً بأكمله.

كنت ألتقي أسعد وخلدون ونتحدث كثيراً عن أحلامنا حتى

تعلمنا تربية دود القز واستخراج الفراشات والاحتفاظ بالبيض في شيخ التبان لأنه بارد حتى في فصل الصيف. لم يكتم أحد منا مخاوفه عن الآخر، ولم نطلب يوماً الغفران من الشيخ مرزوق إن حاول عقابنا على غلطة أو هفوة صغيرة وغالباً ما كان أسعد من يعاقب بجلب الماء من عين البنات إلى بيت الشيخ مرزوق الذي كان يردد دائماً. العدالة على الأرض لم تستقم ولا تستقيم لأحد.

لم أشعر أن لي أحلاماً ولم أفكر أني سأغادر فريدة يوماً أو أتزوج ويصبح عندي أولاد كما كان يحلم بذلك أسعد وخلدون، ولكنهما كانا يهربان من البيت ليستريحا معي في بيت التبان الذي بدا لي كسجن يريحني ويحيط بي برائحة وعبق حجارة عالق فيها وجودي الأول فيه. كنت أخفي الثقب في الجدار بقطعة من قماش أسود وأسحبها عند الحاجة للنظر إلى جهاد الأصلع عند دخوله أوضة فريدة. أكثر ما كان يسعدني شرب فنجان الشاي بالحبق مساء مع فريدة وهي بانتظار الأصلع مشتعلة بلون أحمر يميل إلى البرتقالي مع زهرة الختمية خلف أذنها اليمنى. غالباً ما يصاحب فنجان الشاي حكايا تثبت لي مراراً وتكراراً أن وقوع أخي في البئر حكاية لا تروى، وأنا من يعرفها فقط.

مرت الأيام والفصول سريعة في القرية وبساتينها ومروجها وغلالها. يومذاك كانت الثلوج قد بدأت تتساقط ولم يعد بالإمكان بلوغ الياخور في أعلى الضيعة حيث خيول جهاد الأصلع، وبدأ خوفي يزداد وصفير هبوب العاصفة الثلجية ينذر بقوتها في الخارج، وأنا

من يعتني بالخيول بعد مرض أبي الراس خولي المنزول. إذ لم يكن مفترضاً أن أبقى في بيت فريدة طوال اليوم، وجهاد الأصلع يزعجه طولي وحجمي بعد بلوغي نحو الخامسة عشرة، وما زالت غمغمات صوته في فراش فريدة كالعجل العالق في حفرة لا يستطيع الخروج منها، وهذا الصوت المزعج بدا لي شبيه الريح العاصفة التي تغتالني وتشعرني بالغضب، فتتكور قبضة يدي لاشعورياً، وأشعر بتشنج في فكي الأسفل الذي يصطك، وأبقى على هذه الحال إلى أن يغادر جهاد غرفة فريدة الزنبق ورائحة الورد عالقة به كمن يخرج من حانة مخموراً. وما تلك الأصوات المثقلة بالرغبات إلا المحفز الأساسي الذي يجعلني أتشوق لرؤيته يزور فريدة مرة أخرى رغم كرهي له، فيكسر رتابة أيامها وهي مهجورة ذابلة دونه.

تتفتح فريدة مثل زهرة زنبق حين يزورها وتنام معه كقطة في شهر شباط تتلوى حليبية لينة متموجة في سرير يغمره ضوء السراج الخافت، ويغادرها في يوم الجمعة صباحاً كثور فلح الحقل بأكمله في فصل خريفي يوحي بذبول الطبيعة. عادة وصول يوم الخميس يزعجني لأن فريدة تنشغل في إعداد أقراص الكبة ورائحتها المداعبة لأنوف من حولنا، فيتدافع الجيران لزيارتها. ومهمتي كل يوم خميس دق اللحمة بالجرن والبرغل، ومن ثم فركه وإعداده لفريدة لتكمل هي ما تبقى. وقد ترسلني مع عشرين قرص كبة محشواً باللوز والجوز واللحمة

إلى خديجة، فأجد سهام تنتظرني وفي يدها حفنة من البابونج الجاف والزبيب والجوز. كانت تلك طقوس يوم الخميس التي أحن إليها الآن بين عجائزي البدينات. لأنه أشبه بليلة عيد عند النساء اللواتي تفوح رائحتهن بالورد والخزامى. وبسبب الثلوج والعاصفة الثلجية القوية اكتفت فريدة بالكشك المغلي مع قديد اللحم.

إعداد الكشك في قرية خربة داوود مهرجان صيفي تتناوب عليه صبايا وشباب على الأسطح وندخل في مباراة تذوق لا تنتهي حتى أشهر الشتاء حيث يحتفظ بعضهم بما تبقى من كشك للصيف القادم. من أطيب الأطباق وألذها مغلي الغمرون من يدي خديجة بالثوم والنعناع والزيت الأصلي. كنا في أيام فرك الكشك لا نهدأ من الدبكة والرقص والمواويل إلى أن ننتهي من فرك الكشك آخر النهار ونحن نصف نيام من التعب.

المهم.. ارتديت السوكا وانتعلت جزمتي الكاوتشوكية وحملت عصاي المصنوعة من خشب الجوز أو من الجوزة التي أحبها، لأنها في مثل عمري تقريباً. لم يكن متوقعاً خروجي في مثل هذه الساعة والثلوج تتساقط منذ الأمس حتى أصبحت بسماكة أكثر من خمسة أمتار. كانت ضربات العصا للثلوج أشبه بضربات الأحلام التي بدأت تتقاذفني، وأنا أحلم بخديجة زوجة جهاد الأصلع الصامتة كالملائكة دائماً، والأهم من ذلك نظراتها إلي كلما جئت إليها محافظة على إيقاع كلامها التكراري وكمشة اللوز والزبيب والملبن المجفف التي

ترفع من حرارتي أكثر فأكثر حتى كأنه يتبخر بين الثلوج التي تلتصق به وتذوب متلاشية سريعاً.

كيف يمكن أن ألتقي خديجة دون أن يراني أحد من الموجودين في البيت والمنزل وخصوصاً سهام التي تأكلني بنظراتها. اختبرت ذلك عندما كنت أتصنع الإغفاءة لأسمع وقع خطوات خديجة دون أن تتشتت حواسي، والأهم من ذلك صوتها وهي تغني شباك حبيبي يا خشب الورد ويالليالي الورد يوم مايلاغيك يضحك سنك. لك دلفتين هيضموا القد وورد الخد بكرة يغير منك.

كانت سهام تبلغ من العمر تقريباً التاسعة والثلاثين قوية البنية، لكنها قصيرة ونحيلة قوتها بين أسنانها وفخذيها، إن أطبقت فخذيها على ظهر علي الحجل لا يستطيع الإفلات، وإن أطبقت فكيها على جوزة كسرتها، أما شفتاها الغليظتان فلا يمكن أن تغلقهما، تشبهان زهرة فم السمكة بلون زهري يميل إلى الصفرة. شعرت بالغضب وهي في المطبخ تنظر إليّ بعينين تتوقدان. نظراتها تجعلني أفكر في الغولة في حكاية حديدان التي تحكيها لي فريدة.

ترقبت خروج سهام لتلتقي الحجل علي. واستمتعت بمشاهدة خديجة وجهاد الأصلع في فراشهما أحد الأيام التي أتيت إلى المنزول وأنا على مقربة من نافذة غرفة خديجة سمعت صوتاً كمواء القطة في شهر شباط وشاء القدر رؤية ملاكي وهي بين يدي الشتلة الأصلع. لحظة لا أنساها جعلتني أكتشف التفاعل الهادئ الذي ينساب كشلال

نهر حزين من بين صخور قاسية. تسمّرت مكاني لأن الشمس رسمت خطاً من ظلي على الأرض وخفت من القطة سهام أن تشتم رائحتي فتأتي إلى هنا وتراني. لم أستطع أن أخطو ولم أستطع البقاء في مكاني خوفاً من ظل الشمس أن يمر قبلي أمام نافذة تشهد على لحظة انتظرتها كثيراً. مسحت بكف يدي قطرات العرق التي بدأت تنزلق على عيني والغليان بي أصاب أنفاسي، فوقعت في نوبة رغبة تسربت إلى جسدي الذي تخدر وأصيب بتنميل انتهى برعشة رمتني على جم من الحطب الجاف سمح لي بالجلوس القرفصاء بعد أن أنهى جهاد الأصلع معركته مع خديجة التي انتهت بتلاشيها ورأسه بين ساقيها يهتز كعجل ولد حديثاً يرضع ضرع أمه، أحسست أنه أغمي عليها. خفت عليها كثيراً عندما تثاقلت أطرافي وأحسست بشهوة اجتاحتني غلب عليها الصمت أو بالأصح الكبت الصارخ الصامت. لم أعرف ماذا أفعل هل أتقدم أو أتراجع. أخيراً سمعت صوت الباب الخشبي يتحرك فزحفت على ركبتي كي لا يظهر ظلي أمام النافذة، وجلست على الأحجار قرب باب المطبخ بانتظار سهام التي غابت ولم أشأ مناداتها كي لا تشعر أن مشاعري المتوثبة تريد الانقضاض على أي امرأة تظهر أمامي أو ربما كي تهدأ وتنطفئ شهوتي مرة أخرى. التقطت حطبة صغيرة وأخرجت السكين الصغير من جيبي وبدأت أنحت وجهاً ملائكياً مفترضاً. أحسست أنني أستخرج روح خديجة من خشبة بين يدي.

شهر آذار شهر تدب فيه الحياة في أشجار اللوز التي تكتسي

بزهورها البيضاء فتصبح القرية مغمورة ببياض آخر لا ينتمي إلى الثلوج التي غمرت قدميّ قبل وصولي إلى بيت فريدة الزنبق أول مرة. مما يدفع البصر إلى التأمل المهيب. كان الجو عابقاً برائحة الياسمين أيضاً، فالجلوس على أحجار سوداء يتدلى عليها زهر الياسمين ببياضه. شهر آذار الغدار فيه من الربيع ومن الشتاء ما يجعل الأرض تمور بالجمال.

مرت الأيام والأشهر والسنوات وأنا أكبر مع خلدون وأسعد والبنات من حولنا يتوهجن مع الفصول في خربة داوود ذات الزواريب الضيقة التي لا تتسع إلا لبغل يمر أو لبقرات تترنح بطونها ممتلئة من العشب في الربيع، ومن الحليب في ضروع تنتظر الأصابع المرنة لتفريغها. كنت أحب الجلوس بين الزواريب والمطر ينهمر في شهر نيسان بينما البقرات تسير بتثاقل مغسولة بمطر يثير نشوتي. إذ تبدو الزهور حينذاك تتراقص أمام الشمس المختبئة خلف الغيوم. فعلاً لقد تشكلت حياتي في هذا المكان الذي يبتلع كل مخاوفي عندما أتذكر وصولي إليه.

لم أستطع مقاومة نظرات خديجة كلما ذهبت إليها لأعطيها القشطة، ولم أستطع إغلاق أذني عن معزوفة فريدة وجهاد الأصلع، ولم أفهم كيف لي أن أتحول إلى وحش عند تقطيع الحطب وإلى راع في الحقول العكارية الممتدة وإلى مرافق للأصلع جهاد وإلى متفرج على الشهوات التي تأكل من الإنسان نفسه وجسده، ولم أفهم ماهية هذا الأفندي الذي يحتفظ بزوجة وعشيقة وهو كالثعلب المحتال ولا أغنية خشب الورد التي تغنيها خديجة ولا أغنية على مسرحك يا دنيا ليه

حفضل كدة غني ألم، والدهر ليه وأنا ذنبي إيه ولا شفتو لي بيوم ابتسم يا دنيا ليه.. إيمتى يا دنيا تتحقق الأحلام.

في الربيع أعشق الأرض التي أغرز فيها سكيني الصغير وأستخرج الهندباء وأمشقها وأغسلها في نبع البنات حيث كانت تجتمع البنات يوم الغسل وأعود إلى وادي الدلب لأبحث عن الخبيزة التي أحبها مطبوخة من يدي فريدة بعد أن أجهزها لها للطبخ. رحلة استخراج الهندباء والخبيزة من الأرض كانت مشواري الذي أنتظره بفارغ الصبر لأنه يجعلني مع الأرض في حالة اتحاد. الأرض التي لن تضم جسد أخي الذي وقع في البئر.

عبر طريق العودة إلى سودا وزيتونة كنا نلتقي جهاد وخلدون ونتحدث عن الحكايا التي نحفظها خلدون من أمه وأسعد من جدته وأنا من فريدة، أبقار خلدون تميزت باللون البني الفاتح وأبقاري بالأبيض والأسود أما أبقار أسعد فكانت من اللونين. إلا أن كل الأبقار ميزتها أنها لا تخطئ المجيء إلى حظيرتها وحدها تماماً كل ما تحتاج إليه منا هو البقاء بهدوء لترعى من العشب الأخضر ما يجعلها تمنحنا وافر الحليب في الربيع. كنا نسمع ليلاً أصوات صراصير الليل كموسيقى تتركني جالساً على الليوان حتى الفجر منتظراً مرور الشيخ مرزوق إلى الجامع، فأرفع الأذان بصوتي وأشعر أن الله يوقظ أخي وينتشله من البئر.

لم تكن الأبقار إلا وسيلتي لأمضي حياتي بصحبة أخرى تنتمي

إلى راحة البال وعدم الخوف من القبض علي في كل لحظة أرى وجوه الغرباء في القرية. إلا أنهم غالباً إما ضيوف جهاد الأصلع وإما رحالة يمرون من القرى يبيعون أو يجولون بحثاً عن الهندباء في الأرض أو نبات الرشاد الذي يطيب لي مفروماً مع الزيتون والحامض والفجل والخبز الساخن صباحاً ومساءً.

في خربة داوود يمكنك رؤية الجبل في علو شاهق، وبضبابية تفرض انتعاشاً على الحواس. إذ يصعب على المرء مقاومة جمال الطبيعة فيها ونبرة الهدوء الصباحي الذي يتخلله تغريد العصافير وصياح الديكة عند الفجر وأصوات الأبقار عند خروجها إلى المرعى.

لم يكن قد تبقى من الخريف إلا القليل في ذلك العالم الذي اتخذت فيه من البرية مسكناً آخر مع بقراتي واستخراج الهندباء من الأرض وفي الصيف عصر الخرنوب وعصر التوت وبيعه باستثناء صواني فريدة وميزة حبكتها اللونية ومثلثها الذي يشعرني أني الدائرة فيه فشدني إلى داخل الدائرة الحمراء في وسط الصينية الدائرية والمثلثات الصغيرة المتناثرة حوله. مثلثات تشبه إلى حد بعيد فريدة وقصة حياتها التي ترويها بالقش المصبوغ والأشكال التي ترسمها وتزين الجدران العتيقة في الكثير من البيوت أو حتى مدخل الدار مع الجرن الحجري الكبير الذي شهد على دق الذرة ودق اللحم وإعداد الكبة المشوية مع فريدة في الأعياد والمناسبات.

بدأ الشتاء مبكراً بعد أكثر من صيف وخريف أمضيته بين بيت

الشيخ مرزوق والمرج والياخور وبيت التبن والعين السحرية التي أطل منها على مسرح خيال الظل الذي أدمنته. هرولت الأشهر مسرعة، يبدو أن السعادة كالربيع سرعان ما تهرول هي أيضاً. كانت الأشجار الخضراء التي تعرت بشكل لافت تسمح برؤية الياخور من بعيد. لاحظت باب الياخور مفتوحاً، فأسرعت راكضاً والثلوج تتطاير كالقطن المندوف أمامي وبثقل جعلني أكاد لا أرفع قدمي اللتين تنغرزان في الأرض وتصنعان الثقوب في طريق ثلجي ممتد. بدا لي من بعيد درباً تملؤه الثقوب في معركة شنها الخلد ليتنفس. كانت سهام ترتدي ثوب خديجة متنكرة فاتضح لي أنها سهام من شاشيتها الخرزية المميزة بخرز عنق الحمام المتلون، ولكني تقدمت نحوها بهدوء متغابياً وأنا ألهث دون أن أنظر إلى وجهها ما أدى إلى بث المزيد من الشغف بي حين اكتشفت أني أظنها خديجة..

مالت سهام نحوي ووضعت يدها على كتفي تاركة لحرارة يدها ملامسة ولو جزء بسيط مني لعلها تحتفظ برائحتي لكني ابتعدت بسرعة، مما جعلها تقع على الأرض فأسرعت لألتقطها، لكنها قبلتني بسرعة على فمي قبل أن أفلت منها مغتاظاً معاتباً كالأنثى التي تتمنع بغنج لا برفض.

- أريد الاطمئنان إلى الأحصنة. زرقا حامل ولا أريد لها أن تشعر بالبرد فتخسر وليدها.

تلعثمت سهام وفركت يديها ونفثت فيهما لتشعر بالدفء.

- ماذا تفعلين هنا يا سهام؟ الياخور ليس من مهامك.

- وليس من مهامك يا عبدو أبو ملحم لم يوكلك به.
- ليس من شأنك زرقا أنا أحبها وطلبت إليه أن أعتني بها وهو سمح لي فما شأنك أنت؟
- أنا أحبك عبدو.
- لست للحب يا سهام، الفقراء لا يغرمون، الحب لهم ولنا الهم والغم والخوف والعوز وما زلت صغيراً.
- ليس صحيحاً، نحن أيضاً لنا قلوب لا فرق بيننا بالحب ولست صغيراً أنت بعمر الشباب.
- هل تستطيعين الزواج بجهاد الأصلع؟
- لا تقل جهاد الأصلع إن سمعك قتلك. أنا لا أحبه، أحبك أنت تركت أبا ملحم لخالتك.

رمقتها ولامست زرقا على رقبتها نظرت إلى قبضة يدي المتكورة وفركتها قليلاً وقلت لو أنني اخترت أمي في الحياة لكانت فريدة وهي أمي فعلاً وليست خالتي..

أخرجت نهدها من بين أزرار ثوبها كحجل أطل برأسه الصغير من عش دافئ.

تجمد الدم في عروقي وشعرت برغبة في ضمها أو اصطياد حجلها أو أن ألتهمه بقضمة واحدة. إلا أني أمسكت نفسي مما زاد غضبها ورمتني على التبن محاولة تقبيلي. لم أشعر إلا بقبضة يدي قد تكورت وأصابتها على ذقنها الذي اهتز وسالت منه الدماء.

حقيقة اصطكت أسناني، أصابتني برعب هذه الخرقاء وأعادت بي ذكرى مشاجرتي مع أخي قبل أن يقع في البئر.

تركتها تمسح الدماء عن صدرها وذقنها وخرجت من الياخور بحالة غضب شديد وحواسي تلتهب من جمر ما حدث.

كان الثلج قد توقف في الخارج، ولكن الأرض قد ارتدت ثوبها الأبيض بزيادة سنتيمرات ثلجية إضافية، فتغطت الثقوب وضاع أثر مجيئي إلى الياخور، فمشيت وعصاي تضرب نعومة الثلج فيتطاير، وما بين الياخور وبيت فريدة الزنبق لا يشبه أبداً ما بين فريدة وخديجة من فروق امرأتين لعملة واحدة هي الحب الذي توجني أو توج عبدو الزنبق كما أصبح اسمي لاحقاً..

في اليوم التالي وبينما كنت أقوم بتقطيع الحطب ناداني جهاد الأصلع وقال لي الحقني إلى المنزول، فوجئت بعدد الأحصنة خلفه وعدد الرجال، كما فوجئت بطلبه الغريب لكني تركت الفأس وتوجهت إلى شيخ التبان لأنتعل النعل، وفي ذلك الوقت دخلت فريدة مستغربة مجيئه، لكنها تابعت بنظراتها حركاتي إلى أن أنهيت استعدادي.

- ناداني جهاد الأصلع وهو يريدني في المنزول لأمر ضروري ربما..
- دخيلك يا خالتي شو بدو فيك بالمنزول ليأخدك وما يرجعلي ياك.
- ما تخافي يا خالتي ما بتركك لو يموت العالم كله.

- إنت ما بتعرفو يا خالتي.
- مهرهر شو ما بعرفو يا خالتي ما بيتحمل ضربة.
- هس لا تنطق بهذا الكلام بتاتاً أمام أحد. تعلم دائماً أن الكلام حين يخرج من الشفاه ينتشر بسرعة.
- لم يكن المنزول الكبير إلا البيت الذي يضم في إحدى غرفه الكبيرة غرفة خديجة ملاكي الذي أسعد برؤيته كلما انتظرت سهام وهي تستبدل جرة القشطة بأخرى فارغة وتمسحها بالماء والخل لتعقيمها من الجراثيم لتطيل فترة بقائي أمامها.

وقفت عند الباب متردداً والأصوات بداخله تشبه بيت الشيخ مرزوق والأولاد يثرثرون في الاستراحة. لم أستطع الدخول ولم أستطع العودة تسمّرت مكاني وغرزت عصاي التي أعشقها. اقتربت قليلاً لأنظر من شق الباب، فتراجعت متسائلاً ما كل هذا العدد. صرخ بي أبو ملحم من الداخل عندما أحس أني أسترق النظر من شق الباب.

- ادخل يا صبي.

شعرت بالغضب من كلمة يا صبي التي أكرهها ألم يشعر أني رجل هذا الشتلة.

وقفت قرب الأصلع ووضعت أذني قرب فمه الذي يلتهم أصابع فريدة كأنه يلتهم الزلابية أو الحلقوم أو معكرونة فريدة المصنوعة من طحين الذرة والمعروكة على صينية القش والشبيهة بالأصابع الصغيرة.

- خذ أحصنة الضيوف إلى الياخور واعلفها جيداً مشوارهم طويل غداً يبدو أن الخولي أبا الراس أوكل المهمة إليك وأعطاك عمره.
- لكن يا... أنا ما بفهم بهالشغلة.
- روح جرب تفهم أحسن ما علقك بالسنديانة..

وأكمل حديثه مع الضيوف قائلاً: وقعت القطيعة الله يستر الآتي أعظم والكارثة كبيرة الحدود مع سوريا تسكرت والخراب وقع والطواحين وغلتها علقت خربت البيوت يا جماعة. أحياناً يكون الخوف مما نسمعه أكبر بكثير من الحقيقة نفسها. أحسست أن القطيعة عاصفة ثلجية ستضرب القرية ونموت من الجوع على أثرها.

لم أر في حياتي جموعاً كهذه كل ما كنت أراه رؤوس الأولاد ببيت الشيخ مرزوق ولم أعرف كيف يربط كل حصان في معلف إلا بمساعدة سهام التي ما عاد حجلها يطل من بين أزرار فستانها المزهر بل بات يطل فمها الآخر الذي يطل فاتحاً شفتيه كلما تقصدت جلوس القرفصاء أمامي. كانت رائحة العلف تثير بي نرفزة لا أعرف سرها حتى الآن. رغم أن بيت التبان يفوح برائحة العلف. إلا أنه بالنسبة إلي الجزء المهم من كياني ووجودي فهو مكان ولادتي وعطر كينونتي فيه. أدركت بفطرتي القوية أن سهام لن تخرج من الياخور ونظراتها المعاتبة والشهوانية تدفعها إلى اختلاق الأحاديث كي أحاول مغازلتها. أو ممارسة لعبة الجيران معها أو مصارعتها كما تصارع فريدة جهاد الأصلع فيصرعها ويتركها في نوم عميق إلى يوم آخر.

الأحصنة هادئة وبدأت تأكل ما رأيك بفنجان زهورات ساخن يا عبدو؟

- سأذهب إلى فريدة لأكمل تقطيع الحطب الذي بدأ ينفد والليلة تبدو باردة جداً.
- لن تستطيع الذهاب الخولي أبو الراس مات ويبدو أنك ستكون مكانه في الياخور.
- كنت أظن أنه في مكان ما ومتغيب فقط عن عمله اليوم.
- لا لم تشأ ست خديجة إخبار أبي ملحم أنه كان يحتضر. يبدو أن مرضه الخطير هو الذي أودى بحياته، فالسعال الذي أصيب به لم يفارقه، وبدأ يتف الدم من فمه في الآونة الأخيرة.
- لا أحب العمل مكانه ولن أعمل خولي لأبي ملحم، ولا لسواه.
- إن سمعك سيقتلك.

خرجت وصعدت إلى ظهر الياخور لأحدله أو الأحرى أرصه بالمحدلة كي لا تتسرب المياه إلى الأحصنة فرأيت فريدة تمشي أمام بيتها ذهاباً وإياباً، كنت أراقبها وصوت المحدلة يرجح حواسي واشتياقي إليها، يبدو أنه كان في رأسها بعض المخاوف والأفكار المتعلقة ببطش أبي ملحم بي، وهنا المصيبة الكبرى وهي التي اعتادت وجودي معها لم تستطع البقاء واقفة بانتظاري، لفت رأسها بكوفية من

الصوف الأزرق المعلق على طرف الشباك واتجهت نحو المنزول العامر بالأصوات، لم تستطع العبور من أمام باب المنزول وقد شعرت بوجود عدد كبير من الرجال في ضيافة أبي ملحم. يحدث ذلك عند وقوع خطب ما ويبدو أن الحدث جلل. أشارت لي بيدها لملاقاتها قبل أن تنتظرني.

توجهت نحوها لكن لم تنتبه لوجودي فلحقت بها بعد أن لمحت خديجة تلوح لها بيدها لتدخل، فصعدت الدرج من خلف المنزول والتقت خديجة الجالسة قرب النافذة، وأمامها سلة الخيطان الملونة والخرز الذي تصنع به شالات الرأس المطرزة بالمكوك الخاص بأغطية الرأس الخاصة بها. ووقفت في عتبة الغرفة خلف الباب أنتظرها. ولم تشعر بوجودي.

- عبدو ابن أختك بالياخور الخولي أبو الراس مات والأحصنة هلكانة والليلة يبدو ضيوف جهاد للصبح ليروحوا.
- شو صاير لكل هالحشود؟
- وقعت القطيعة مع سوريا الله يستر.
- شو هالخبرية؟
- أي والله سمعت أبو ملحم بقول القطيعة وقعت والحدود تسكرت والآتي أعظم.
- سأعود إلى البيت وأنتظر عبدو لن أستطيع الوصول إلى الياخور لأطمئن إليه.

- لا تخافي سهام معه.
- مقصوفة العمر معه وما بدي خاف. متى سيسوء ظنك بالآخرين يا خديجة الله يستر ما تبلعه الليلة سهام. اصطدمت بي فجأة فأرعبتني وأرعبتها ولم يكن مفترضاً أن تبقى معه وأنت تعلمين أنها لا تستطيع البقاء بلا رجل أسبوعاً واحداً.
- يخرب بيتك شو عم تعمل هون ما يشوفك أبو ملحم ليقتلك.

لمحتنا خديجة ونحن نتكلم. تركتها فريدة وأمسكت بيدي ونزلنا درجات الحجر الطويلة. قالت: اذهب إلى أبي ملحم وقف بين يديه ولا تتركه حتى يطلب منك ذلك. وذهبت مسرعة نحو البيت والقلق يساورها جراء موت الخولي وهي لن تستطيع معارضة جهاد الأصلع إن اتخذ قراراً بإبقائي في الياخور أو خولي دائم للمنزول.

دخلت المنزول مرعوباً وجلست على العتبة بعد أن أمرني أبو ملحم بالجلوس على العتبة بانتظار من يريد المغادرة فأجلب له حصانه وامتدت السهرة وبدأ النعاس يدب بي وهم يتكلمون عن خالد ومشكلته في لبنان ولم أعرف يومذك خالد ولا لبنان الذي يتكلمون عنه. أحسست أن خالد هذا يشبه أبي. ولبنان أمي يومذاك لم أفهم القصة كما أفهمها اليوم، ولكن شعرت أني لا شيء أمام معاناتهم مع خالد ولبنان وأنا الذي أشعر بالرعب عندما وقع أخي في البئر.

قال جهاد الأصلع:

- كيف بيستفزونا ونسكت؟
- هيدا إنذار كبير يا بك ما لازم نسكت أبداً.
- لازم ننتظر عبدالحميد بيك ليشفى.
- أين حق الجار يا رجل نحن فايتين طالعين على بعضنا بلا حدود بلا بطيخ.
- شو هالحكي أبو مصطفى.

حاولت معرفة ما الذي يستنشقونه ويعطسون. لماذا العطاس يصيب الرجال بينما آخرون منهم يتحدثون. دخل خلودي المجنون المنزول وهو يغني وبعد أن أنهى الغناء طلب من كل بيك قرشاً. أذهلتني قدرته على استقطاب اهتمامهم، وكأنهم تفرجوا من صندوق الفرجة على أراكوز أو يستمعون إلى خطاب من صندوق أبي ملحم الذي يتكلم. زاد انتباههم له عندما سأله الحاج مسعد عن الحجية وبدأ يقلدها كمهرج أتقن فن استعراضه.

كأني كنت أرى عالماً جديداً لم أعرفه من قبل، بل كأن كل هؤلاء ولدوا من حكاية فريدة التي كنت أسمعها في ليالي الشتاء الطويلة ونحن نشوي البلوط ونأكل الملبن بالجوز. تساءلت هل كبرت أو أني كنت ميتاً وولدت أو أنني خرجت من البئر بعد أن رمى بي أخي فيها؟

كنت مخطئاً بالتأكيد يبدو أننا نولد في زمن بدائي ونموت في

حاضر مشتت لنولد من جديد في مستقبل من دون زمن. لم تكن هذه العتبة جديدة علي لأني جلست على عتبات غيرها أنتظر جهاد الأصلع ومن بعده غيرها الكثير. إلا أن معركتهم مع خالد العظم انتهت ولم أفهم من معركة الكلام هذه شيئاً ولا ماهية الذي يشمونه فيعطسون. والشيخ علي يؤذن في مسجد المرج. كنت قد غفوت عدة مرات وأنا جالس بانتظارهم. إلى أن بدأت بوادر رحيلهم، فطلب إلي الأصلع إحضار أحصنتهم، تركت العتبة التي تشبه مجلسي هنا، وتوجهت إلى الياخور تفقدت فرسي زرقا ومسحت على رقبتها وقبلتها، ومن ثم بدأت أهيىء للمتعاركين أحصنتهم ولم أفهم ما انتهت إليه معركتهم مع خالد الذي يزداد عجرفة عليهم، ولا ماهية القطيعة التي وقعت وجعلت أبا ملحم يوكل إليّ الإشراف على المطاحن أو الأحرى الإطلالة عليها فيما بعد.

أما سهام التي علمتني كل شيء عن المنزول وكيفية الاهتمام به وبالياخور فقد استطعت ترويضها وأمسكت لجامها كفرس لا يقوى على ركوبي عليه. لأني أدركت منذ الوهلة الأولى علاقتها بعلي الحجل مخبول القرية جراء طباعه البسيطة. كانت تخفي علاقتها به عن الجميع. إلا أن رائحته العالقة بها باتت تتعطر بها دائماً وتشعرني بالنفور منها، رائحة تشبه الزعتر والقصعين وماء الزهر معاً. على كل إنسان منا أن يبحث عن جينته المناسبة بما يكفي ليشبع رغباته المصابة بمجاعة فوضوية لا تهدأ. أنفي الحساس لا يخطئ. شعرت بعصياني وتمردي عليها بعد أن استسلمت لتهديداتي. إذ فقدت الأمل بي أو

الأحرى التهامي كما كانت تفعل بعلي الحجل. الغبية لم تترك لي فرصة رؤية ملاكي خديجة مع جهاد بيك كلما كانا معاً في الغرفة. إلا بعد أن أغويتها بلقاء علي الحجل في الياخور ووعدتها بالصمت وعدم البوح لأحد بعلاقتها به. بل أقنعتها أنه المناسب لها وإلا سيزوجها الأصلع إن شعر بحاجتها إلى رجل لأن نظراتها الشهوانية لم تتوقف عن ابتلاع الداخل والخارج إليه. كنت أشعر أن علي الحجل سيخرج يوماً من الياخورمن دون جلد بهيكله العظمي فقط.

ربما المجنون أو المخبول أكثر قوة مع المرأة من ألف حصان أو ربما! لأنه يتغذى بما تنتجه البراري من هندباء وتوت وفطر وعكوب وعسل من جرار الجيران. وهذه القوة لا يمتلكها جهاد الأصلع الذي يمضي ليله مع أصابع قدمي فريدة أو مع أصابع يدي خديجة هذا الرجل مهووس بالأصابع على ما يبدو. كلما كبر زادت خطوط وجهه.

ازددت اهتماماً بفريدة التي كانت أكثر إدراكاً مني لمهام الخولي والمكاري معاً. لأني بعدها أصبحت المشرف على منزول جهاد الأصلع الذي ازداد انهماكاً بمهامه السياسية وطموحه إلى بسط السيطرة على أملاكه التي كانت تكبر بعد كل غلة قمح أو طحنة أو بيع مؤونة قامت بإعدادها النساء استرضاء له حتى حين كان يلتقي الحجية بعد استعراضاتها في مرج القرية من رقص ومشي على الحبل والجرة على رأسها أو من يتشجع، ويمنحها من كرمه حق الضيافة في القرية أسبوعاً. وهكذا كانت الأفراح في القرية التي مشيت على أرضها

وعرفت أسرارها.

أما فريدة التي كانت قد بلغت الأربعين من العمر وسيطر عليها الحزن لبعدي عنها فلم تلح عليّ في الزواج بعد رفضي الدائم لفكرتها. لأني كنت محباً لها عاشقاً. وأخاف عليها من جهاد الشتلة نفسه. كنت أحقد عليه لأنانيته المفرطة في سريرها وأحقد أكثر عندما كنت أراه يغدق على خديجة بفن الاسترضاء. كأنه فريدة في فراش خديجة. لا أعرف حقيقة ما هي الازدواجية التي عاش بها. إلا حين صدمت برؤيته مع الحجية في مرج وثير من الأغطية التي لفلفها وجعلها من وسائد ملكية لحجية سخرته لشهوة استخرجتها كما نستخرج القشطة من الحليب. لم تكن أزمته فريدة أو خديجة أو الحجية بل يبدو أنها نفسه التي تضعف أمام الأزمات الأخرى في الحياة.

أدركت أنه يبحث عن شيء أضاعه معها، لأنه يفتقدها في السلطة التي يحلم بها وما استطاع الوصول إليها. لكنني تعلمت منه كيف يمكن أن أخفي رغبات نفسي ولا أظهرها حتى للمرأة التي عشقتها، وكافحت من أجل هذا سنوات عديدة. إلا أني تعذبت كثيراً عند رؤيته في سرير خديجة ولا أعرف لماذا كدت أقتله عدة مرات وربما فعلت بمخيلتي إلا أني أجهل السبب. يومذاك استطعت أيضاً رؤيتهما بعدما انشغلت سهام مرة أخرى مع علي الحجل في الياخور. كانت خديجة شبه عارية وأصابني الخجل من سريرها النحاسي العالي الذي سمح لي برؤية جمالها الباهر وصدرها كصينية بغاجة بالجبن. كان الأصلع

جاثياً على يديه وركبتيه يشتم أصابع قدميها الجميلة وهي في تأملات لجذوع الأشجار التي تحمل سقف غرفتها والقناديل التي تتدلى منها. أكمل شم جسدها فضمت ساقيها أكثر. تركها وجلس على حافة السرير يرمقها. شعرت بالخوف تركت المكان واتجهت إلى الياخور حيث سهام وعلي الحجل غيرا مزاجي عندما دخلت ولم يشعرا بي جلست على التبن وحبست أنفاسي.

كانت كلما حاول القيام عنها أمسكته مجدداً وكأنها تضع المزلاج لباب تغلقه جيداً. سهام المرأة الوحيدة التي أخذت حاجتها من الدنيا وتركت لي ذكرياتي عن وحشيتها التي ما قلدتها فيها امرأة طوال معرفتي بها في حياتي.

الحزن في نفسي على أخي يكبر كلما كبرت وشعرت أن الأخوة كنز ضائع علينا البحث عنه دائماً. أما التفاحة التي أعطاني إياها الرجل صاحب القبعة البيضاء فلا تزال حاضرة في ذهني أحياناً أعلقها بخيط وأتركها تدور كطاحونة لا تهدأ أو كجاعور بصوت يبكي على أيام أرعبتني وتفاحة ملعونة بقيت في يدي.

كنت الخولي الأكثر مهارة في الاعتناء بالأحصنة والمعالف، حتى تجارة الأحصنة بدأ بها جهاد الأصلع وزادت من أرباح هذا الحقود الأناني. كنت أجد لذة في إبعاده عن فريدة وخديجة. لكن دنيء النفس ما توقف يوماً عن معاشرة النساء ولا معاقرة السياسة التي ابتليت بها معه لحبي الشديد لشاب اسمه رشيد يحكي عنه جهاد الأصلع في

المنزول دائماً.

«سرقوها منا بالقوة والاغتصاب، بالاغتصاب والقوة نسترجعها» لم أستطع معرفة معنى كلمة اغتصاب حاولت أن أسأل سهام فسخرت مني قائلة يعني أن تقلبني أرضاً وتفعل ما تريده بي غصباً عني. شعرت أنها تسخر مني فسألت خالتي فريدة عن ذلك فقالت أن تأخذ أرض أبي ملحم من دون إرادته وتفلحها وتأكل من خيرها غصباً عنه فقلت لها:

- ألا نفعل ذلك نحن الآن؟
- لا نحن لا نفعل ذلك لأننا نعطيه خيراتها كلها ونأخذ ما يبقينا على قيد الحياة.
- ولماذا لا نأخذ الأرض منه بالقوة ونحن من نفلحها ونزرعها ونجني منها ما يأخذ منه هو الحصة الكبرى.
- لأنه يملكها لو فعلنا ذلك لاغتصبنا أرضه وسرقناها. الفقراء لا يملكون الحق في أن يكونوا ملاكاً لهذه الأراضي.
- الآن فهمت يا خالتي وفلسطين هذه تشبه أرض أبي ملحم؟
- فلسطين بلد كبير يسكنها أناس مثلنا يا عبدو. لكن إسرائيل اغتصبتها وأخرجت أهلها منها لتمتلك هي الأرض.
- هل كانوا من اغتصبوها من الفقراء ولا يملكون الأراضي؟ ومن هي هذه إسرائيل؟؟
- قم يا عبدو واذهب إلى المنزول يا خالتي. تفهم كل ذلك فيما بعد..

في غمرة عملي بالمنزول والياخور وانتقالي إلى القرى المجاورة لمواكبة غلة الطواحين والزراعة في أراضي الأصلع أدركت أن عكار الواقعة شمال طرابلس هي لوحة خضراء مرسومة بيد الخالق، ونحن فيها نتشكل من ألوان الحياة المختلفة ما يجعلها آية تشع إنسانية وطيبة.

عندما يتحدث جهاد الأصلع في المنزول عن فلسطين المغتصبة كنت أشعر بمتعة تكوير قبضة يدي التي ما ضربت بها أحداً إلا المخبولة سهام منذ أن وقع أخي في البئر. لكن الجبناء في هذه الحياة كثر لم أستطع احتمالهم وقتاً طويلاً كنت أهرب إلى فريدة التي كانت في كبرها أجمل من صباها. لأفرك قدميها كما كنت أفعل وتحضر لي مكمورة الملفوف بحامض الرمان والبرغل والزيت الأصلي الذي نعصره ويأخذه جهاد الأصلع تاركاً لنا القليل. مكمورة الملفوف الأشهى التي أحببتها من صنع أنامل ما هدأت حتى وهي تحوك صواني القش أو تخيط مثلثات على شراشف حراشف السمك الملونة. كنت أواظب على زيارتها إلى أن فارقتني حزناً على المتعوس جهاد الذي بقيت معه سنوات شباب لا تحصى. ولم تنجب هذه المرأة الحنون التي أغدقت علي من محبتها ما جعلني أسعدها، وأجعل منها ملكة في بيت الزنبق، بل حولت دارها إلى حديقة ورد وزنبق يقصدها جيرانها. أجمل مما كانت أيام جهاد الأصلع الذي أهملها فيما بعد لانشغاله بتوقف بنك أنترا وأمواله العالقة فيه. ومن بعدها الخلاف بين العشائر وتهيئة موكب أحصنة مرافق إلى جرود عكار. أحصنة جمعناها من كل القرى لتحمل

الزعماء إلى فنيدق وغاباتها لمصالحة العشائر.

لم أصب بمزاج شمعوني أصيب به جهاد الأصلع وحافظت على جمال بيت فريدة الزنبق الذي ازدهر بالورد والزنبق وأضفت إليه الغاردينيا والسلمكة أو عطر الليل. لم أشبع من نظراتها إلي يوماً ولم أنس ذاك الفظ الذي ما قدم لها ما قدمه لخديجة التي منحتني أسرار المنزول ودفاتر الغلة لطواحين جهاد الأصلع. إنما أبقيت على لساني داخل فمي ولم أخرجه يوماً....

في اليوم التالي على وجودي الأول في المنزول ناداني جهاد الأصلع وقال لي: ستبقى في المنزول لخدمته أبو الراس مات وستكون مكانه بشكل دائم وتبقى عند فريدة بين الحين والآخر كما ترغب هي. إياك ثم إياك أن تتفوه بكلمة عما تسمعه هنا أو هناك أو ترتكب أي حماقة وإلاّ أعلقك على السنديانه إلى أن تموت أو أرميك في بئر وادي جهنم. الآن اذهب وقل لفريدة إنك ستبقى في المنزول بشكل دائم وعد غداً مع بقجة تيابك، وسلمها إلى سهام التي ستهتم بملبسك وطعامك.

لا يستطيع الإنسان فعل أي شيء بمفرده وهو أمام قوة عظمى تحيط به من كل جانب. أرعبني بكلامه واشتد الخوف في نفسي تنشقت الهواء إذ كدت أختنق حين قال لي أرميك في بئر وادي جهنم. سمعت بوادي جهنم ونحن في موكب مصالحة العشائر على طريق فنيدق، لكن لم أر بئراً هناك هبط الحزن على نفسي هبوط عتمة شيخ التبان يوم ولادتي فيه.

طأطأت رأسي وذهبت إلى فريدة حزيناً، شعرت بكامل الحزن على فراقي الطويل هذا عنها، ولكن أدركت أن أي اعتراض ميؤوس مني ومنها. فما كانت تفعله فريدة لا يشبه ما تفعله خديجة والإنسان يميل إلى من يقسو عليه، وشعرت أن خديجة هي ورقتي الرابحة للوصول إلى ما أريده عند الشتلة الأصلع الذي منحني ثقته منذ أن وقعت القطيعة السورية ورفض الوحدة الاقتصادية الشاملة بين البلدين أو الوحدة الاستئثارية. لا أعرف لماذا يحب الإنسان استئثار الآخرين حتى أنا استأثرت بفريدة ولم أسمح لأحد بالاقتراب منها غير الأصلع الذي تمنيت قتله عدة مرات. واستأثرت بخديجة حتى جعلتني اليد اليمنى لجهاد، فالتصقت به كما يلتصق عطر أبي أكرم الذي اعتاده جهاد الأصلع وهو من خلاصة الصندل والخزامى والغاردينيا.

لم تنفع لغة الإنـذارات رغم أزمة الرجل الصحية ولم تنقطع زيارات جهاد الأصلع لطرابلس التي تمنيت أن تزورها فريدة معي لتراها وترى عظمة المباني فيها، مصاطبها، حدائقها قبابها. نهرها وشرفاتها والأزقة التي كنت أمشي فيها حاملاً من خيرات عكار ما يسعد قلوب أصدقاء جهاد الأصلع الزيت والصابون وشالات الحرير والسجاد أو البساط، كانت تنفرج أسارير سعيد أفندي ومصطفى لاغا ودرباس بك والمونسيور سراج عند وصولنا إليهم. كنت أشعر وكأني من فرسان حكايا فريدة أو فرسان الهيكل بعد أن قرأت عنهم في كتاب التقطته يوماً من صندوق في قبو درباس بيك الذي أنام فيه أحياناً عند

بقاء جهاد بك في بيت درباس.

كنت قد بدأت أشعر برجولتي أكثر وبفهمي لما يحيط بي. لأن جهاد الأصلع سري جداً ولا يتكلم عن نفسه كثيراً أمام الآخرين، بل يتركهم يتكلمون. لا بل غالباً يسأله بعضهم لم أنت صامت. فيجيب الكلام في حضرة أمثالكم خسارة علينا. نحن نسمع وأنتم تتحدثون. منكم نتعلم.

انقطعت عن مخالطة خلدون وأسعد وأصبح لقائي إياهما لقاء عمل وأنتجت صداقتي لهما اهتمامهما الدائم بفريدة وتقطيع الحطب وتوفير حوائجها في حال غيابي أياماً عنها. كنت أشعر أني ظل أبي ملحم، ولكن هو من يعتني بمظهري وأراه بتحمل المسؤوليات يحتاج إلي كما أحتاج إلى العصا بيدي. أفرحني يوماً أنه احتاج إلى عصاي ليرقص بها في عرس حضره في طرابلس مع المونسيور سراج. المسؤول عن إحضار ثمن الجبن من بنك انترا قبل أن تعلق أموالهم فيه، كان يذيل بعض الأوراق بختم أبي ملحم وبتوقيعه وتصل بعدها الأموال، فنضعها في أكياس الخيش وننقلها إلى الألف حصان ومن ثم إلى غرفته الخاصة فوق المنزول تحت سرير نحاسي مغطى بشرشف حراشف السمك الملون المشهور من صنع فريدة.

وبما أنني أصبحت اليد اليمنى لجهاد الأصلع كما تقول خالتي فلم يكن نافعاً أن أتولى الكثير من الشؤون الأخرى الخاصة بالمنزول، فهذا لا يتوافق مع مهامي الجديدة مع جهاد إذ أوكلت إلى خلدون

وأسعد حيث العناية بالمنزول والياخور، كنت أذهب من طرابلس إلى اللاذقية مع جهاد بالسيارة التي أفزعتني أول مرة رأيتها شعرت وكأنها ألف حصان مرة واحدة، أربع ساعات في السيارة إلى اللاذقية كانت كافية لأغفو وأصحو والأصلع المفزوع من القطيعة يتحدث دون توقف مع درباس بك مرافقه الدائم في طرابلس. وعن خوفه المستمر على الفدائيين في عمان. بعد أن اطمأن إلى وصول جرات الجبن إليهم والسجاد والأغطية الصوفية.

أربع ساعات بمحاذاة البحر من البداوي فالمنية والعبدة والشيخ زناد، فالنهر الكبير بعدئذ توقفنا أمام مغارة حكى عنها درباس بك أنها تحتوي الكثير من الآثار للإلهة عشتروت وقد سرقت منذ عام ١٩٢٠ فتأسف أبو ملحم وعدنا فانطلقنا نحو اللاذقية التي دخلناها والفجر يشقشق. استقر الألف حصان أمام باب قصر كبير استقبلتنا فيه امرأة تيبست أمامها، وهي تنتظر دخولي بعد أن مر أبو ملحم وضيفه إلى الداخل قائلاً متى تكرميني وتمنحينني كلمة من أرصدة قلبك الضخمة أنت غنية جداً وقلبك مصرف في بيروت متى تكرمين أعزتك بمفردة واحدة، فضحكت بوقار مهيب ولا أعرف إن كان الجمال ولد من كفيها. دخل جهاد الأصلع وصديقه وبقي السائق في الألف حصان ينتظر تعليمات الأفندية. قالت لي المرأة المذهلة ضع الحقائب في الأوضة عند الدرج على إيدك اليمين. نظرت إليهما مندهشاً فاتحاً فمي مترهلاً كالمصعوق بضربة كف ساخنة.

- ما بك يا أهبل ما سمعت الست سحر شو قالت؟

أجبته بأنني لا أعرف ما تعني بالأوضة. سمعتني سحر وقالت لي هات الحقائب والحقني يا صبي. شعرت أني في قصر حديدان صاحب حكاية فريدة. بيت لا يشبه المنزول أبداً ولا هذه المرأة تشبه خديجة أو فريدة أو سهام أو أي امرأة في القرية. وضعت حقائب البيك في الأوضة وهي غرفة النوم التي أشارت إليها الست سحر ونزلت إليهما، فطلب إلي أبو ملحم أن أذهب مع السائق وأحضر لوازم سهرة الليلة.

- يا بيك ما هي لوازم الليلة ؟
- انقلع من وجهي وقل للسائق مثل ما قلت لك.

خرجت من قصر الست سحر ودخلت الألف حصان وقلت للسائق ما أمر به أبو ملحم. مشى مسافة طويلة إلى أن وصلنا إلى السوق واشترى حبيب المكسرات والزبيب والجوز والعرق والنبيذ واللحم حتى كدت أموت من حمل الأكياس وكدسها في الألف حصان. في طريق العودة مر حبيب على امرأة أحضرها معه. تبدو كفريدة في عمرها تقريباً إلا أنها متلفعة بغطاء رأس ملون. قال لي حبيب:

- ما قصتك يا صبي لأول مرة أبو ملحم يحضر معه أحداً من لبنان ماذا تفعل هنا؟
- لا أعرف لأول مرة أعرف أن في العالم أمكنة كهذه غير قريتي.
- يبدو أنك أهبل خادم على الكرة الأرضية لم تسمع عن

اللاذقية أو سوريا أو حي الصليبة.

- حتى لبنان أول مرة سمعت عنه في المنزول وعرفت بعدها أنه البلد الذي يضم قريتي لكن اللاذقية بلد من؟ وحي الصليبة لمين؟
- لا أنت أهبل خالص؟
- ما بك يا رجل.
- كم عمرك يا ولد؟
- لم أكمل العشرين.
- ما تقولي ولد ما شايف الشوارب بوجهي يعني.
- هل الرجال بالشوارب؟
- نعم الرجال بالشوارب يا أفندي.
- كنت أنت رجال لكن ولد وأحمق أيضاً.

شعرت بقبضة يدي تتكور وفكي الأسفل يصطك ومن ثم يتقلص إلى أن وصلنا إلى قصر ست الحسن ليلتئذ لم أنم وأنا أستغفر الله العظيم من هذه المشاهد الداعرة التي أصابتني بالقرف والاشمئزاز، وعاهدت نفسي أن أحرمه من لقاء فريدة. هذا العربيد أيعقل أن له ملاكاً كخديجة وحسناء كفريدة ويفعل كل هذا؟

لا أنكر أن جمال سحر لا يقاوم، بل هي قادرة على استلاب الرجل روحه، هذا ما فعلته مع أبي ملحم ودرباس بك فقد أصبح كالمعمي معها...وهو يحاضن جسدها في ناعم سريرها في دفء

فراشها في شجوها في بوحها الصامت في همهمات رغباتها الجامحة في ملامسة جسدها بجسده في شهوة عارمة زادتني جحيماً، جعلتني أمضغ قبضة يدي وأدعك قميصي وثيابي الداخلية تبللت وظهرت البقع خارج ثيابي. هذه المرأة تمنحني طاقة متجددة كلما التقيتها وتعزز الثقة بنفسي، بل جعلتني رجلاً مخلوقاً غير مجوف كشجرة مقطوعة في برية قابعة فيها منذ ألف عام.

لم يستيقظ جهاد الأصلع في اليوم التالي كعادته بل دخلت سحر القبو الذي نمت فيه مع السائق وأيقظتني من غفوة حلمت بها أنني في سفينة سندبادية وسط البحر والعاصفة ترجح السفينة وهي تكاد تتحطم. الإحساس بالفراغ ظلام وظلام الفراغ هو ما يحيط بي. فراغ نفسي مدغم بالإحباط التام بمحيط لا أعرفه ولا أنتمي إليه كأنها كوابيس لا تنتهي أو متاهة حيوات مختلفة أو مثلث فريدة بدائرته المسجون فيها مذ خرجت من بيت التبان إلى المنزول.

- قم يا صبي قم هيا.
- إلى أين يا خالتي؟
- خالة الدبب يقتلك في قلبك ما أوقحك ست سحر يا حمار.
- أمرك ست سحر.
- اذهب مع السائق إلى مرفأ اللاذقية لسحب البضائع من الميناء بتخلصها مع حبيب وناطرك أبو ملحم هون يلله.
- يا خالتي أستغفر الله ست سحر أنا أول مرة برافق أبو ملحم

للاذقية.

- بعرف يا غبي. افعل ما قلته لك.

واتجهت إلى حبيب وشرحت له ماذا يفعل وأعطته منديلها الفيروزي.

- شو عم يصير يا حبيب أنا متل الأطرش بالزفة.
- شو بدو يصير شغل البيك باللاذقية شو بس بطرابلس وببيروت.
- ماذا تقول؟
- تفضل خواجة عبدو ما ناقصني أغبياء بحياتي بشرحلك بالطريق.

كانت الطريق خالية والسيارة تتخبط هنا وهناك وكلما مرت أمامنا عربة يجرها حمار يضحك حبيب ويشعر بعظمة الألف حصان التي يركبها، ولكن أغاظني لأنه لم يشرح لي ماذا نفعل تماماً.

أصبت بدوار عند دخولي المرفأ مع حبيب واصفرّ وجهي وتقيأت فظن حبيب أني شربت أمس من العرق في الأكواب فجن جنوني.

- أستغفر الله يا رجل كيف أشرب المحرمات.
- وهل البيك كافر؟
- يا رجل لماذا تريد مني قول ما لا أريد قوله كل الموضوع أنني أصبت بدوار من رائحة البحر على ما يبدو.
- وهل ركبت السفينة يا رجل أنت ركبت سيارة ولد رح تبقى ولد عمرك ما بتكبر.

التقينا رجلاً في المرفأ رحب بنا كأننا البكوات أنفسهم ودخلنا معه إلى غرفة فيها طاولة وكرسي تطل على البحر مباشرة والسفن كأنها طيور النورس التي كنت أراها في طريقنا إلى هنا. أعطاه حبيب منديل ست سحر فضحك وقال له قل لست سحر الأبقار ستكون في المشيرفة غداً إن شاء الله، أما جرار الجبن فتستطيع تسلمها بعد ساعة استرح سأطلب لك القهوة. اقتربت من حبيب وسألته شو القصة فهمني يا رجل ضحك المنحوس وقال لي انتظر لتكبر قليلاً روح احلق شواربك تكورت يدي تلقائياً لكني أمسكتها حتى هدأت ولم أتكلم معه إلى أن حضر الرجل وقال الجرار في السيارة تفضلوا.

ودعه حبيب واتجهنا إلى السيارة التي كادت تلتصق بالأرض.

- ما كل هذا حبيب؟

هس اركب واسكت.

ركبت الألف حصان واتجهنا إلى حي الصليبة حيث قصر الست سحر قرب كنيسة تطل على البحر، ولم أكلمه طوال الطريق لأنني أحسست بغباوتي معه. سطعت الشمس قبل غروبها الأخير وعكست أشعتها على وجهينا. جمال الطبيعة هنا ليس كما هو في خربة داوود إنه غريب جداً وبارد مع لفحة ثلج قاسية تقرص الوجه، وكل ما ظهر من اليدين، وفجأة يميل إلى الدفء قليلاً. مضت قرابة ثلاث ساعات وهو يدور في اللاذقية وغاب الضوء وظهرت أضواء السيارة، كأنها قناديل فريدة أو قناديل ليل كالتي كنت أجمعها وأضعها في شيخ التبان. لم أستغرب أني غفوت إلى أن وصلنا. وأنا قرب حبيب والسيارة تهدهدني

لم أفهم معنى ما قام به من لف ودوران قبل العودة إلى القصر.

كان جهاد الأصلع ودرباس بك يتناولان العشاء مع الست سحر وذاك العبوس مع فريدة وخديجة لم يكن هو جهاد الأصلع الذي أعرفه بتاتاً يرتدي بيجاما وفوقها ثوب كالنساء يربطه إلى خصره وفي يده الغليون الذي كنت أراه في المنزول قرب المدفأة..

- الأمانة صارت بالسيارة يا بيك قالها حبيب وهو ينظر إلى الأرض وأنا أراقب الست سحر التي وقفت كالفرس الجموح وصرخت بحبيب.
- حصتي وينها؟
- ما زالت في السيارة يا ست الستات.
- ضعها في القبو بعد تعليمات الخواجات.

مسح أبو ملحم فمه وذقنه ووضعت له سحر في كفيه ماء الخزامى فمسح به لحيته وكفيه وجلس على كنبته الخاصة. وقال:

- ضع ثلاث جرار لسحر في القبو والباقي اليوم يصل إلى الياخور.
- لكن يا بيك ننتظر أذان الفجر وننطلق.
- الآن يا حبيب الجمال في الخارج تنتظركما، تصلون إلى الياخور ظهراً من وادي خالد. ولكن مر على شيخ عشيرة طالحة واطلب منه إثبات نسب لعبدو أنه من عشيرة طالحة.
- بأمرك يا بك.

ربطنا الجرار إلى الجمال وغطيناها بالسجاد الأحمر وانطلقنا والرعب يدب في قلبي كيف سأدخل إلى القرية وماذا سأقول لخديجة ولفريدة وما هذه الجرار التي أحضرها جهاد الأصلع..

غفوت وصحوت غير مرة وحبيب يلف السيجارة تلو السيجارة حاولت أن أمج معه سيجارة تتن لكني كدت أختنق وشعرت بالخزي مرة أخرى وكرهت حبيب وكرهت نفسي معه، مررنا بقرى كثيرة ولم أحفظ إلا بعض أسمائها التي عددها لي حبيب الطابيات، والعوينة والشيخ ضاهر والقلعة وغيرها إلى أن وصلنا ظهراً إلى الياخور فقال لي نجيب ضع الجرار تحت التبن وانتبه لها ولا تترك أحداً يدخل إلى هنا سواك إلى أن يحضر أبو ملحم سآخذ الجمال إلى مرج القرية لتستريح وكي لا نلفت نظر الآخرين.

- إلى أين ستذهب بعد ذلك؟
- إلى عمّان يا غبي.
- أين عمّان في طرابلس؟

لا... أنت الكلام معك خسارة.

ضممت زرقا فرسي وأغلقت باب الياخور جيداً ونمت نوماً عميقاً صحوت بعده بنشاط غريب أسرعت أتفقد الجرار لأتحقق أنني لم أكن أحلم فتحت باب الياخور وجلست في العتمة التي أرخت ستارها بعد

نومتي العميقة وحمدت الله أنه لم يشعر أحد بوجودي في الياخور. بمقدور أي فتى أن يتخطى طفولته نحو البلوغ ليستقل عن عائلته إلا أنا لم أحب ذلك لحبي لفريدة ولسعادتي بقربها. إلا أني اجتزت ذلك بصعوبة مريرة لا اختيار لي فيها.

على الأرض ورق البلوط المتناثر يتطاير من أمامي كأنه شرارات أفكاري المقيدة إلى رحلة العجائب التي قمت بها مع جهاد وذلك القصر في حي الصليبة المشدود بعضه إلى بعض، كأنه صينية القش التي تصنعها فريدة. بمثلثها الكبير ودوائرها الحلزونية. لم يكن الياخور يطل على المنزول مباشرة تخفيه أشجار البلوط الممتدة بين الياخور والمنزول، كان بيت فريدة كالصحن أمامه بنوافذه الحجرية التي تطل على الجبل غرباً وعلى أرض دنكة المنبسطة شمالاً. لم يكن هناك أمام الياخور إلا الدرب المفتوح كخطين مستقيمين من أحجار سوداء تمر بينهما الخيول أو الجمال أو البغال المحملة بالبضائع، وحده الياخور الذي يشبهني في زاوية القرية.

لعل الأمسيات التي يمضيها الأصلع في اللاذقية هي التي تجعله لا يشبه أبا ملحم الذي هنا فاللاذقية هي مصدر آخر لمعرفتي بامرأة هادرة بالأنوثة والذكاء وتشع فتنة وعطاء. لكن من مساوئ هذه الفترة أنني شعرت بالرعب من الجرار، وكأنها تحتوي في كل منها على مارد لن يحقق مطالبي باستعادة أخي، وإن فتحتها فسيخرج ولن أستطيع إدخاله أبداً.

نحو العاشرة صباحاً أتى جهاد الأصلع وكأننا ما سافرنا معاً أبداً.

- أغلق باب الياخور وهات الجرار بسرعة.
- بأمرك يا أبا ملحم.

أحضرت له الجرار ففتح واحدة فيها من الأكياس السود ما يرعب وكأنه الكحل الحجري الذي يأتي به الحجاج من مكة تفقده وشمه ومن ثم طلب إلي وضعه في العربة التي تجرها الحمير والمتوقفة في الخارج. وطلب إلي تسليمها إلى الحاج فؤاد في منحدر التلة الأخيرة على حافة سهل عكار، ونظر إلي نظرة مرعبة وسألني إنْ التقيت أحداً أمس فقلت له أغلقت الباب وانتظرتك حتى هذه الساعة.

- لسانك بقصو إذا بتحكي شو شفت وكن حريصاً أشد الحرص لتصل الجرار بسلام. عند عودتك زر فريدة ونم عندها وإياك أن تعرف تفاصيل رحلتك معي.
- بأمرك يا بك.

اشتقت إلى فريدة حتى كادت الدمعة تفر غاضبة مني لكني ركبت مع العربجي بعد أن لففت الجرار بالتبن ووضعت أكياس الطحين أيضاً لأخفي ما لا أعرفه كما طلب أبو ملحم. كانت تلك المرة الأولى التي أعرف الحاج فؤاد الذي استقبلني وكأني جهاد الأصلع، ولست صبياً غبياً كما قال حبيب سائق الألف حصان والجمال.

كان الحاج فؤاد في الستين من عمره تقريباً أسمر الوجه أنيق اللباس بقميصه الأبيض وشرواله الأسود والكوفية البيضاء والعقال قال بنبرة المضياف الكريم وهو واقف أمام باب بيته الخشبي: اغسل

يديك من ماء البركة وتفضل الطعام بانتظارك الشباب بياخدو الجرار من العربة، لكن لن ترجع مع العربجي ستأخذ حصاني معك هدية لأبي ملحم. وتذكر كلمتي دائماً عظمتك هي في مواجهة ذاتك لا الهروب منها، وإني أشعر أنك ذكي جداً وحياتك ستكون كنار كسرى. لم أفهم من هو كسرى هذا الذي بقي في بالي مثل شيطان النار الذي ينفث في وجوه أهل القرى الذين تروي لي عنهم فريدة.

غسلت يدي كما أمر وجلست على كرسي حجري مغطى بطراحة حراشف السمك الملون، وصينية القش من صنع فريدة مملوءة بالخير القروي من الجبنة والعسل والقريش واللبنة والزيتون يبدو أن صواني فريدة القش ليست كمنديل سحر. لكني لا أعرف لماذا ارتبكت عندما رأيت صينية القش وكدت أبكي فعلاً عندما جلست على طراحة حراشف السمك الملون، ولم أستطع تناول الطعام اعتذرت من الحاج فؤاد وقلت له: يجب أن أعود يا حاج فؤاد الياخور وحده ولن أتأخر أكثر. أعطاني سبحته من العقيق الأخضر هدية لي ولا أعرف لماذا! إلا أنه نادى السائس ليحضر الحصان ركبته وتوجهت نحو القرية لألتقي فريدة وقلبي كالنار المشتعلة.

ربطت الحصان إلى المعلف في الياخور ومررت على خديجة لأسلم عليها وأستأذنها لأني سأبقى مع فريدة الليلة وهاجمتني سهام كعادتها. استندت إلى الباب الخشبي ذي المستطيلات الرفيعة، وفي يدها طاسة نحاسية تراقبني بعيني نسر جارح، وهي تهتز مثل عنكبوت

تغزل خيوطها استعداداً لفترة بيض تحتاج إلى تلقيح. لم أفهم يومذاك مدى حاجة الأرض البور للري ورأسي يكاد ينفجر من اشتياقي إلى فريدة.

- أين كنت كل هذه الأيام مع أبي ملحم.
- ما خصك يا أم لسان.

رمقتها خديجة بنظرة قوية، فاستدارت واتجهت إلى المطبخ وقالت لي خديجة:

- لا تتأخر. أحتاج إلى بعض الخرز من عند الحاج خالد أفندي أحضرها معك في عودتك مع خيوط ومكوك وعلكة طبخ. لا تنس علكة مستكة أيضاً. وكانت تمضغ العلكة بفم مغلق كعادتها. هذا المعتوه يترك الأنفاس المطيبة بالمستكة ليشم أنفاس اللاذقانية سحر.
- هل أحضرها لك الآن؟
- لا اذهب إلى فريدة من المؤكد تشتاق إليك بعد غيابك عنها لأول مرة كل هذه الفترة.

لم تسألني خديجة أين كنت. إلا أن هدوء وجهها بث في نفسي سكينة غريبة. هي ملائكية الطبع في بيت من حجارة قاسية وأصلع لا يشبع من النساء أبداً.

دخلت البيت وأنا أغني أغنية فريدة المفضلة على مسرحك يا دنيا ليه حفضل كدة غني ألم، والدهر ليه وأنا ذنبي إيه ولا شفتو لي بيوم ابتسم يا دنيا ليه.. أيمتى يا دنيا تتحقق الأحلام. فركضت وضمّتني إلى

صدرها حتى شعرت بضغطها على أضلعي قبلت يديها وركعت تحت قدميها وبكيت لاشتياقي الشديد إليها وبكت فحملتها ووضعتها على اليوك ومسحت دمعها الذي تمنيت لو احتفظت به حتى الآن.

- أين كنت يا عبدو.

كبرنا وصارت خالتي فريدة تسألني وين كنت يا عبدو خلص ما بقى ولد؟

- كبرت يا عبدو رجل نعم سندي وابني وحبيبي أنت لست بالوقح صبي مرضي الله يرضى عليك يا خالتي.
- وما أدراك أني كبرت ربما ما زلت ذلك الولد الذي بال على بنطاله خوفاً في بيت التبان هههه؟
- عمرك من عمر سعادتي لكنك تبدو رجـلاً، وكلامك المعسول يعالج وحدتي يا عبدو.

وقفت بسرعة وطلبت إلي إحضار الحطب لأستحم وأتعشى وأحكي لها حكاية غيابي.

دخلت بيت التبان الذي يفوق قصر الست سحر جمالاً ورائحتي فيه ما زالت كما هي والبقرات مكانها المؤونة لفريدة لأني أريدها ملكة وجهاد الأصلع لا يبخل علي بما أطلبه منه لأحضر ما تحتاج إليه فريدة وهذا ما جعلني أخدمه مغلق الفم.

في شيخ التبان المعتم وضعت الماء البارد على الموقدة وانتظرته ليسخن متأملاً فريدة وهي تجهز الموقد الصغير للسهرة. فركت جسمي بورق الغار وأحسست بأني أغتسل من رحلة ما قام بها سندباد نفسه،

أمضيت ليلتي مع فريدة أسمع أخبار القرية منها وأخبار خلدون وأسعد اللذين ما تركاها، وهما من ساعداها على تنظيف الدار في غيابي وضعت الجمر المشتعل في الموقدة لأشوي البطاطا الحلوة وأسهر مع فريدة وأحكي لها حكايات خرافية فتنام كطفلة صغيرة أحملها وأضعها في سريرها وأنام على طراحة قرب سريرها النحاسي العالي.

في اليوم التالي اجتمعت مع أسعد وخلدون في بيت فريدة. أوكلت مهمة جمع غلة الطواحين إلى أسعد والعناية بأراضي الفلاحين إلى خلدون مع الاهتمام بالأحصنة في الياخور لأبقى مع أبي ملحم كما أمر، يومذاك قالت لي فريدة عشت وشفتك يا بنيي رجال بحق وحقيق. كنت أنتفخ من كلامها وأشعر أنني الرجل الخارق، وقال لي يومذاك جهاد الأصلع إن عمله في اللاذقية سيكون من مسؤولياتي وفرحت جداً، وما أدركت أنه يغامر بي كحصان في حلبة سباق راهن عليها، ولكن ملامحه كانت كملامح من ولد في الحال، وشعرت أن سحر أضافت إليه من سحرها، مما جعله مشرقاً كطنجرة النحاس عندما يتم تبييضها، فركت وجهه بأصابع قدميها وبللته بماء الزهر والخزامى. يبدو أن المرأة الفاتنة تصنع المعجزات بكهولة رجل أبقاه الدهر في عظمة الرياسة المغشوشة أو الزعامة التي لا يحتاج الفقير إليها.

كان المنزول بحجم عشرة بيوت من القرية وسقفه يضم من جذوع الأشجار الكبيرة ما يشبه الجسر الخشبي المعلق عند عبور الألف حصان إلى اللاذقية، ولكل جذع حكاية في هذا المنزول المفروش

بالأثاث الخشبي المطعم بألوان دمشقية التراث وأيامي في المنزول كانت مدرسة تعلمت منها الصمت والتفكير بخلسة واستخلصت أن السفيه كيس طحين فارغ بالون هوائي والتجاهل يحفظ الكبرياء والكرامة ويجعل الآخر صفراً مهما علا شأنه.

كان أسعد قد اعتاد مهامه. غالباً ما تكلم عن سعادته في عمله هذا معي، وبدأت الخيول تأخذ منه كل رعاية واهتمام وفي كل معلف كان له حكاية مع سهام، وكلما خرج لملاقاتها خلف الياخور في الكوخ الصغير الذي صنعه لنفسه كنت أغطيه كي لا يكتشف أبو ملحم أو خديجة غيابه ساعات، وحين ألمحه بعد معركته مع سهام أشعر وكأنها امتصته مثل مصاص الدماء حتى بات نحيلاً وشرواله يحتاج إلى ربع شملة فقط وبيدين قويتين لا تتناسبان وحجمه القصير والنحيل سألته مرة ما الذي يعجبك بسهام التي تمتص الرجل وترميه وتتركه مثل العود في حبة الزبيب؟

نظر إلى السماء وقال:

- هذه من مهام الرجل في الحياة أن يعطي الخير للمرأة، وأنا أهدي إليها من خيراتي ما أشاء. لكنها امرأة لا تهدأ ومحرومة من الزواج. وتبدو لي امرأة لا تريد الزواج. إنما تأخذ رغبتها ممن يعجبها دون أن يتعاظم الخوف في نفسها. امرأة تنتقم من شيء ما لا أعرف ما هو. لكن يمكنني ترتيب أموري معها.

- تزوجها.
- لا يمكن أنت تعرف أنها كانت مع مخبول القرية وغيره. أنا لم أخدعها قلت لها لست للزواج وهي موافقة تبادلني إشعال النار بنار أقوى.
- إذاً أحسن صحبتها يا أسعد.
- لا تخف على من أحسن زرع الحبق وسقيه.
- كلام سخيف لم أفهم ما وجه المقارنة بين وصيتي لك وزرع الحبق.
- هههههه عندما تكبر تعرف معنى زرع الحبق.

لكمته على خده مداعباً وتوجهت إلى عملي. كان علي زيارة كرمسباط لتوزيع الجبن أيضاً لهم. لكن إلى كرمسباط على البغل تحتاج إلى نهار بأكمله. خرجت من الياخور ودخلت غرفة أبي ملحم الخاصة حيث مكتبته وزاويته التي عشقتها رغم أني لم أستطع أن أقرأ أي كتاب فيها. سجادها الأحمر وطراريحها الصوفية والعصافير المحنطة والخناجر وبواريد الصيد القديمة كلها تشبه صينية قش مشغولة بفن لمارد ما خرج من فنجان قهوة فريدة. إلا أنني المسؤول الوحيد عن نظافتها والاهتمام بها. ممنوع على خديجة دخولها، هذا كان يشعرني أني الرجل المميز والأقرب عند الأصلع.

كان يضع جرار الجبن الملفوفة بسجاد أحمر وأبيض وآخر

أبيض وأسود في زاوية المكتبة نقلتها ووضعتها في السرج وانطلقت نحو كرمسباط حاملاً سبحة فيروز من أبي ملحم إلى عياض. بهرني كرمسباط لجماله ظننته قرية كبيرة لكني فوجئت أنه بيتان ودكانة صغيرة سألت صاحب الدكان عن عياض فقال لي:

- أنا عياض يا أخ ماذا تريد؟
- أبو ملحم يهدي إليك سلامه وهذه السبحة.

تناول السبحة من يدي وتفقد حباتها الفيروزية باهتمام أثار دهشتي وطلب إلي إدخال السجاد إلى الدكان، وكلما أعطيته سجادة يسحب منها جرة الجبن ويقول سجادة رائعة تسلم أنامل العكاريات. سلمته السجادات السبع وسلمني مجموعة أوراق مربوطة بحبال صغيرة بعد أن لفها بسجادة صلاة وقال لي هذه لأبي ملحم وأعطاني سبحة من العقيق اليماني لي أنا سألته مرة ثانية لأتحقق هذه لي؟ فيقول نعم لك أنت.

غريب أمر المسابح وقال لي قل لأبي ملحم السبع بخير ونحن بخير والسبحة ما فرطت. وخرجت من دكانه أتأمل السبحة والبغل يسير بين أشجار السرو والسنديان والجنة التي ما أحببت الخروج منها لو لم أكن أحتاج إلى نوم عميق يسحب مني كل هذا التعب وهذه النشوة العارمة بطبيعة ساحرة من كرمسباط إلى خربة داوود غابات كسبحة من حجر الملاكيت.

نجحت في إدارة المنزول والاهتمام بغلة الطواحين التي كانت

تزدهر وتكبر، ولكن ما لا أعرفه هو ما الذي كان يفعله جهاد الأصلع بالمال. لا أولاد له وأبناء عمومته ينتظرون موته بفارغ الصبر وهم لا يخفون الكره الذي يضمرونه له. رغم أنه كان لا يبخل عليهم في شيء. خصوصاً بعد أن مرت القطيعة على خير وبدأ العهد الشمعوني مع ابن الزعيم الذي أحبه جهاد وأخلص له مع ابنه الرشيد، ولكن فهمت طبيعة عمله في اللاذقية التي أصبحت أزورها وكأنها قرية من قرى لبنان. تهريب مادتي البارود والكبريت وإرسالها على ظهر الجمال بات روتيناً أقطعه برحلة لا يحلم بها سندباد،من الغابات الممتدة بين فنيدق والقبيات وعكار العتيقة وما بين بيوت الفلاحين وبيوت الأسياد طريق ممتد أيضاً غير آمن للسالكين.

كنت أبقى في دير جنين عند الخوري جرجس حتى يطحن لي التبغ ويحوله إلى عطوس بكميات كبيرة. وهو رجل وقور في التاسعة والستين من عمره تقريباً. يحب الفرح جداً والمحبة يرشها كالمياه المقدسة على درب دير جنين جنة عكار دائمة الاخضرار. عندما أعطيه الورق الأبيض يبتسم وتطل أسنانه من بين شفتيه دون ضحكة عريضة. فيقول لي دايم دايم وأقول له ما هو الدايم الدايم؟

- الرب يا ولد.
- لست ولداً أبونا جرجس.
- كلنا أولاد الله يا ولد.

كنت أبقى عنده أياماً وأسابيع أحياناً إلى أن ينهي عصر الزيتون وطحن التبغ. لقبني بالواعظ لصمتي ودقة كلامي. وأم الزلوف أم البنات تساعدنا على ذلك فأساعدها بدوري على تنظيف الكنيسة وتمر الأيام بسرعة ولا أعود إلى دير جنين إلا بعد سنة في موسم عصر الزيتون القادم، الذي يشهد على قوتي الفاصلة بين عبدو والواعظ مع ذلك كنت أحب البقاء في دير جنين لمحبة أهلها لي. خصوصاً أم الزلوف الأقرب إلى قلبي.

أما الرحلة إلى شدرا، فكانت كلما حل الليل فيها أكتحل بنسيمها القدسي الذي أستنشقه كما يستنشق درباس بيك عطوس الأصلع، فأشعر بقوة الحياة تتجدد بي وتمدني بمرحلة جديدة من توزيع الجرار والسجاد والأوراق. في طرقات شدرا كنت أسير مع الراهبة جانيت قبل توضيبها شالات الحرير، فتقول لي الفداء الفداء فأضحك وأقول لها أبونا جرجس يقول لي دايم دايم وأنت الفداء الفداء ما بكما.

تضحك وتقول لي الفداء هو الإخلاص والرب المخلّص لا؟

لا أذكر مرة أن أحداً استوقفني وأنا ابن شيخ من عشيرة طالحة أعطاني صك وجودي على هذه الدنيا بورقة دمغها بختم ممهور بشحتار من فتوش وهو سراج صغير كنت أشعله في استراحات موكب الجمال التي كانت تتعب قبل أن أشعر أنا بالتعب، وبقي سر إرسالها إلى الحاج فؤاد وعياض والخوري جرجس في دير جنين يغلي بي ولا أعرف ما الذي يفعله الحاج فؤاد بالكبريت والبارود ولا عياض بالجبن. ولا الخوري جرجس بالأوراق والحبر. ولا الراهبة جانيت

في شدرا بشالات الحرير.

كل ما أفعله في كل مرة هو التحدث إلى نفسي محاولاً فك خيوط العنكبوت التي تلتف أمامي ولا أعرف كي أفكها لأمضي بسلام في هذه الحياة دون أن أقع فيها وتأكلني العنكبوت.

في كل رحلة إلى اللاذقية أعيد السير على خريطة توزيع الجرار والسجاد والعطوس والتبغ من وادي شدرا إلى درب عندقت القبيات، ومن ثم دير جنين فمشمش وفنيدق ومطحنة حرف حرار القرنة فوادي الجاموس والبرج.

حتى أصبح عندي صندوق سبحات عقيق وخرز من كل الألوان وأجملها سبحة جانيت من حب الزيتون، وسبحة الخوري جرجس من خشب الورد. إلا أن أهمها سبحة سحر الفيروزية.

كنت أضع زيت الزيتون وأخلطه بدهن أستخلصه وأمزجه بعطر البنفسج والخزامى وأفرك به جسد سحر حتى تذوب الكتل والنتوءات فيها وتذوب لذة. وهي لذة العاطفة للمحب التي تفتح مشاريب العقل ويسيل الفكر، وينهال سلساً عذباً حقيقياً خالداً مؤثراً عميقاً ممتنعاً. هناك لذة نزوة لا تعني غير وقتها ولذة جسد يستسلم للعاطفة والإيمان بالشيء هذه تتحول عشقاً، وتلك تنقلب كرهاً فمن ينسك مرة واحدة فلن ترغب ثانية فيه. مما يعني أنها نزوة.. شهوة ومن يعاشر امرأة لنزوة فيه فلن يرغب فيها ثانية لأنها لا تعني له غير كأس لعطشان هل يقرب الكأس بعدها أو يطوح بها جانباً. لهذا حين كانت تمر أصابعي على جسد سحر تمر بنعومة فوق هضباتها لتنزل رويداً رويداً حيث تجتمع

الروح فتنتفض وتبقي على أثرها في حياة لا موت فيها.

مفروض بك أن تحشر رأسك بين العقدة والمنشار وتسألني قبل أن تتورط في شحنة البارود هذه المرة.

ابقي بلوعة التفاعل في قلب راقد كي توقظي الحب والتوق والشدو والشجن في قلب عبدو. هل ما زلت عزيزاً لديك؟

أتسأل يا عبدو وأنا أستمتع بلحظاتي معك؟ الحياة تتقلص كي تلد كالحلم. فحين تضمر التينة وتجف تسقط غصنها كي ينمو برعم جديد على أغصان أخرى في طور الولادة. كذا هي الأشياء التي مرت بي خالدة عموماً ماضية خصوصاً نضج الوعي بي جعل وعي الأفراد ينحسر أمامي فللحياة وجوه أخرى.

- أنا من وجوهها يا سحر؟
- أنت الآن تراني بمنظار مختلف تراني كرغيف لجائع يجده كامل الأوصاف. وجسدي أدمن لمساتك في حين أدمن الآخرون مضاجعتي. خدمة في مقابل خدمة.
- لا يتعادل صاحب المنظار مع صاحب الرؤية وأنا لي رؤيتي معك يا سحر.
- ما حاجتك إلي يا عبدو ولم تضاجعني رغم جسدي العاري بين يديك في كل مرة يكاد يلفظ وجوده الأخير. هل أنا كائن يستحيل مضاجعته أو لأن الأصلع كوالدك؟
- لا هذه ولا تلك يا سحر لمساتي لجسدك هي حكاية من

وحي أعماقنا حقيقية غير ملفقة لا نقولها بصوت بل بهمس ودفء. لست من يخيف امرأة قدمت لي نفسها ومالها ومكانتها. أنا أمانك الروحي الوحيد وخصائصك وأسرارك وبوحك وتمنياتك، وهمسك مع الذات. أنا فهمك وعالمك إن لم يفهمك أحد حتى وإن افترقنا، فلعل الزمان يوماً يجود. وليس الزمن بخيلاً فلا تخشي جزءًا يحميك وأنت فاتنة ومميزة وتشاركين في أعمال لا يوجد في العالم من يقوم بها مثلك يا سحر.

- ألست عالمك يا عبدو فلماذا تخشى مشاركتي في رغباتي أريد استجابة بسيطة منك فقط دع لي الحرية قليلاً.
- خادمك وعزيزك يا سحر ولكنني أردت أن أزيدك من فهمي لشيء عشت فيه وحرموك منه من عاشرتهم فقط.
- أنت الصوت الذي أسمعه ولا أراه الزمن يستهلكني يوماً بعد يوم والزمن الحقيقي بات متعتي معك يا عبدو.

لم أنس كلماتها الساحرة والحزينة كلما بقينا معاً أسبوعاً، وعند رحيلي كانت تعطيني منديلها الحريري الأبيض المعطر بالفل.

كانت سحر فاتنة من عجائب النساء في ذلك الزمن. لأننا نادراً ما كنا نرى امرأة مكشوفة الرأس مرتدية ثوباً قصيراً عاري الصدر أو مخلوع الظهر ورثت من الرجل الذي ضاجعها أول مرة طولها وتركها منكوبة لا تعرف كيف تهتم بالبقاء في قصر يحتاج إلى أموال ليصمد.

لكنها صمدت حتى كاد منديلها يصل إلى الكونغرس الأميركي. فعجائب منديلها الحريري المطرز كادت تقتلع الكثير من الرجال. لم تحرمني يوماً من منديلها، ولم أحرمها يوماً من أصابعي. كان يمكن أن تجعلني صبياً لها مديراً لأعمالها مهتماً بشؤونها، لكن لم تستطع إقناعي بأن أتزوجها. لم أشعر يوماً أني خلقت لأتزوج وأنجب. عندما اندلعت الثورة السورية خسرت سحر قوة منديلها وأصبح المنديل لا ينفع في كش الحمام. باعت قصرها واشترت منزلاً صغيراً في المشيرفة وشعرت بالذل بعد أن كانت في أوج عزها ملكة يقصدها كل صاحب مصلحة. لم أكن أؤمن أن المرأة قادرة على الوصول إلى النهاية رغم أنها كانت تنفق على عائلات فقيرة كثيرة. لكن ما أن يقع الإنسان حتى تكثر الذئاب من حوله.

ما أن تحقق حلم الفتى الأميركي أرمسترونغ حتى غفا حلمي بالعودة إلى سحر واستكمال رحلتي السندبادية في كل فصل من فصول السنة كنت ناضجاً بما يكفي لأخطو خطواتي المستقلة على الأرض. إلا أنني لم أخطط للعمل المستقل رغم أن شيخ التبان امتلأ بالأموال في قبر وضعت فيه جرار محشوة بالليرات التي لا يمكن عدها ولا البئر التي بات هولوكوست من نوع مختلف حتى سهام وضعتها فيه بعد أن حشوت فمها بكيس من البارود، وكدت أشعله بها تلك الثرثارة التي لم تهدأ يوماً حتى تبعتني تلك الليلة التي تشاجرت فيها مع الحاج فؤاد في الياخور وضربته بقبضة يدي على رأسه ومن ثم لففت ذنب زرقا

على رقبته وقبضت روحه النتنة ورميت فوقها سبحته التي أهداها إلي. يومذاك عرفت سهام أني أضع من يختفي في بئر خالتي فريدة فوضعتها فيها.

نحن الفقراء نطوي صفحات الحياة فنموت وكأننا لم نولد وأجمل لحظاتي هي تلك التي تنسجم مع أحلام يقظتي، مما يتيح لي تركيب الأشياء على هواي لا يشاركني في حلمي أحد، فأتمتع كثيراً بأمان داخل سرية نفسي الحظ قبيح ومتوحش إنسانياً والأنا هي من تقود إلى الخسة.

بحث أهل القرى عنهما كثيراً فلم يجدهما أحد وكنت مطمئناً إلى أن البئر المهجورة لن يفتحها أحد لأني غطيتها بالقش الذي تستخدمه فريدة في صنع الصواني، ساعدني صمتي على إبعاد الشكوك عني، وبما أن الحاج فؤاد خطف سهام ورحل معها إلى المجهول. كان يجب أن يجد الأصلع بديلاً له ومن حسن حظي أني لم أكترث لهذا الاختيار، بل تذمرت حتى كاد يجلدني. ما كدت أجتاز مرحلة موت الحاج فؤاد وسهام حتى بدأت ملامح رحلة جديدة مع البرنسيسة، ولم تعترضني المشاكل في ذلك لأن البرنسيسة بقيت الرصيف الآمن الذي ألجأ إليه عند تعبي، وهي امرأة من عجينة طيبة. إلا أنها وقعت في يد قواد أنعم عليها وأهداها إلى جهاد الأصلع. وهذا الشتلة المحظوظ لا أعرف كيف يعجن النساء ويصنع منهن الخبز الذي يعيش منه. عندما رأيت ليلى البرنسيسة أول مرة شعرت بحاجة إلى البكاء. لأن سحر عادت

بوجه أكثر شباباً هذه المرة وما جمعه الزمن لا يفرقه القدر إلا بعد حين.

أصابت البرنسيسة دهشة كبرى عندما رأتني مع جهاد أول مرة. كان بادياً علي أني ابن قرية يرى الأشياء أول مرة وكنت أتصنع هذا كي لا أثير غيرة الأصلع الشتلة. الشعر الكثيف حول ذقني زاد من جمالي، وبت أشبه فريد الأطرش حسب قول البرنسيسة المنفعلة من مفاجأة لم تخطر ببالها. دخلنا المطبخ لتساعدني على وضع الأغراض في البراد الذي ظننته نملية من حديد، مما أثار سخريتها التي أغاظتني. تعلمت لاحقاً كيفية ترتيب هذه الأشياء التي يحتاج إليها طوال إقامته في طرابلس.

- أين الحاج فؤاد؟
- لا تسألي يا برنسيسة أسئلة ليست من مهامك.
- سيكون عبدو مكانه سيحضر لك الأغراض كل أسبوع وعندما أكون هنا سيرافقني دائماً.

لم تقل شيئاً عندما أمسك الأصلع مؤخرتها بل جفلت كفرس لم ترفس صاحبها. شعرت أنها أصبحت كفرس يحتاج إلى تهدئة أو إلى تفاحة يأكلها يا إلهي لا أحب التفاح يذكرني بأخي. دخلت البرنسيسة مع جهاد إلى غرفة وأغلقت الباب خلفها. ثوانٍ قليلة بدأت تأوهاتها تثيرني تصيبني بالجنون كدت أمزق ثيابي. دخلت المطبخ لأبحث عن القهوة ربما أهدأ بعد فنجان قهوة ساخن معطر بالهيل. لكني شعرت بانفعالات ورجفة في أصابعي وفكي بدأ يصطك، بحثت عن ثقب

لأراهما منه أو نافذة ما، إلا أني فشلت، كدت أجن من هستيريا لأول مرة تصيبني ولم أجد سبيلاً إلا شرب القهوة والانتظار إلى أن ينتهي هذا الأهبل المحظوظ من التهام البرنسيسة.

بعد أكثر من ثلاث ساعات خرجت البرنسيسة وهي ترتدي قميصها الذي يشف عن تفاصيل جسد كلؤلؤ يضيء ليلاً دروب قرية خربة داوود كلها. ولم أستطع أن أغض نظري الذي أكلها واعتصرها وأخرج منها الشهد أيضاً. وما بين نهد ومؤخرة تاه بصري بالخصر النحيل وبالشعر الخرنوبي على الكتفين. وبقرط في أذن واحدة.

التمعت دموع في عينيها، فشعرت بغرابة وارتباك ولم أعرف ماذا أفعل. إلا أن دمعها تدحرج بغزارة حتى خيل إليّ أن وجهها يمطر دون عاصفة تسبق ذلك. أمسكت كم قميصي ومسحت دمعها فدفعتني بقوة وأوقعتني على كنبة طويلة. نظرت إلي وانفجرت بالضحك.

- آسف إن أزعجتك لكني أردت مساعدتك.
- ما من أحد يستطيع مساعدتي.
- أين أبو ملحم؟
- نايم ما عم تسمع شخيره.
- لا سمعت أصواتاً أخرى.

أصابني الحياء وأنا أقول لها هذا إلا أنها قالت:

- لا تخجل الأمر عادي لولا تأوهاتي لم يشعر أنه فحل وهو

بصلة ما في يدقها ولا يأكلها.

- أنا بدق بصلة بقبضة يدي وباكلها بلقمة وحدة وبلا شنكليش ببندورة وبصلة.

ضحكت مرة أخرى أو الأحرى وقعت في نوبة من ضحك متقطع كلما نظرت إلي ما انتهت إلا بعد ربع ساعة. إلا أنني كنت سعيداً جداً مع البرنسيسة وهي تبكي وتضحك كالمجانين. علمتني كيف أضع الكاسيت في المسجلة وأسمع أغاني فريد الأطرش التي تحبها ليلى. حتى بات هذا الرجل ممن أهواه وأحب صوته وأفلامه أيضاً.

في غمرة الأجواء الغريبة التي بدأت مع البرنسيسة كان لا بد من استكمال مهام الحاج فؤاد وهي تسليم البارود والجبن والسجاد والصابون بعد أن يتركها جهاد بك ويعود إلى القرية. كنا نوزعها معاً أنا والبرنسيسة مع حبوب الجبن التي كانت تستهوي الحاج فؤاد وأحضرها له من وادي شدرا على ظهر البغال المحملة بالفحم. تعلمت من البرنسيسة الأناقة، وشعرت بهذا فريدة عندما عدت إليها أول مرة بعطر بقي عالقاً في ثيابي. لكنها لم تسألني كعادتها. ربما كانت تخاف أن أقول الصدق رغم أنني ما كنت لأفعل. يومذاك لم تضع لي العشاء كعادتها. لكني شعرت بطيبة قلب هذه المرأة التي تعشق هذا العجوز النتن الذي أكرهه كلما سمعت صوت امرأة تتأوه تحته أو فوقه لا فرق أو وهو بين ساقين مثل جوزة بين فكي كماشة.

أحببت رقة صوتها وخفة حركتها وشدة جسدها المتماسك

المتشنج أيضاً. إذ بدا لي أنه يحتاج إلى لمساتي الخاصة كي يلين. حولت ضبط شهقتي فلم أستطع حين ارتخى ثوبها ووقع على الأرض متزحلقاً عن جسدها. وإذ بها ترتدي سواه بلون أزرق نزل من رأسها واستقر على جسدها وصولاً إلى ركبتيها. مسحت عينا البرنسيسة وجهي فاشتدت عضلاتي بسرعة. لكني بقيت مثل طنجرة الحليب على الموقدة جالساً على الأرض، وما ارتفعت لأبقى تحت مستوى طولها وأتمتع برؤيتها كنخلة أمام زنبق أسود.

لم أهتم بنفسي يوماً، بل لم يسبق لي أن اشتريت عطراً في حياتي قبل أن أتعرف إلى البرنسيسة. ظللت أفرك زهر الياسمين بين كفي سنوات عديدة، وكلما مررت بشجرة ياسمين تتدلى من على حجارة سوداء أندفع نحوها لأقطف منها ما أفركه بيدي وأضعه في جيوب شروالي وفي صدري ما يجعل فريدة تأخذ شهيقاً عميقاً. عشت على هذا النحو ما يقارب العشرين سنة وما عوّضني عن الياسمين زهر سواه. إلا بعد معرفتي بالبرنسيسة، لم تكن تشبه الأخريات كانت تستفزها العطور وصرت أتباهى بعطر الياسمين الذي يمزجه أبو شاهين بالصندل أسميته عطار ساحة التل الذي انتشر في القرية والقرى المجاورة. حتى أصبح عطر ساحة التل هو عطر غالبية الرجال في القرى وأبيعه أو أستبدله بالبيض والخبز واللحم القديد والتين الجاف لأسعد فريدة.

ثمة قواسم مشتركة بين النساء. ربما لأني كنت مثل القطار الذي توقف فجأة عن الجري في طرابلس وبات أشبه ببيت فريدة المهجور

فيما بعد. إلا أنني واظبت على لقائي البرنسيسة قبل أن أرسلها إلى قبرص مع أبي الخل وتركتني أسبح في متاهة تصريف كمية البارود العالقة في سفينة روزاليندا. ثمة معتوهون في حياتي أتمنى لو عادت بي الحياة لقتلتهم كما قتلت أبا فؤاد وسهام، ولأخفيتهم في بئر لا تفتح إلا لوضع الأجساد النتنة فيها. لم أقنع يوماً بضرورة الزواج، ولم تفارقني صورة فريدة وظلها على جدار يهتز من غضبي. لعب الأصلع دوراً مهماً في حياتي، وتركني في حالة بحث دائم عن ثقب في جدار أروي منه عطشي لحركة الأجساد بعضها مع بعض أو لبئر لذة لا تنتهي.

كنت أنتظر اللحظة الكبرى في بيت البرنسيسة بعد أن ثقبت الجدار وهي غائبة عن البيت ووضعت مزهرية كي لا تكتشف ذلك ليلى البرنسيسة. فعلت ذلك بدافع الفضول أكثر من البحث عن اللذة، لكن البرنسيسة كانت تصبح جامحة بعد دخولها غرفة العجائب. أنا نفسي كنت أظن أن شيطانة خرجت منها وأنهكت جهاد وتركته كالأشلاء لا يقوى حتى على رفع يده وتركني معه مستنفراً مستعداً لجولة شيطانية أخرى أحب عنفوانها وأعشق توحشها وأذوب في بدائيتها لأنها كتلة مكتظة بالشعور.

عرفت أجساد الكثير من النساء لكن الجسد العاطفي لم أعرفه عرفت الجسد الجنسي كالحيوان يتمرغ بلذته وهو يهمهم بالضبط مازلت أشتهي الجسد الذي تنبع الأحاسيس الطيبة منه تجاهي بشهده. الجسد العاطفي يمنح جنساً يشبه الشمبانيا أو يشبه مكمورة فريدة

بحامض الرمان والبصل المحمر والبرغل الأبيض.

كانت تفرط في شهوتها وكأنها تريد قتله من شهوة. تشن غارتها ولا تهدأ فلا يموت ولا تيأس، ولكن تصيبني لعنة الأرق والحاجة إلى ممارسة طقوسي نحوها بفرك جسدها بزيت معطر يجعلها في ذبول متألق. كل النساء الجامحات يحتجن إلى ذلك. إلا فريدة وخديجة قديستاي المباركتان في الحياة وأظن أن ما أبقاني إلى الآن هو دعواتهما لي. كان يجب تسليم مادة البارود إلى أبي الخل كي يتم توزيعها بالتساوي على شاليهات يسكنها الأباطرة الذين يشحنون المتفجرات والأصابع الحريرية إلى الغيب. حاولت البحث لمعرفة إلى أين تذهب مادة البارود والأصابع الطويلة دون جدوى.

انتظرت البرنسيسة بعد أن وزعت البارود في حقيبتي سفر، وكأننا مسافران وفي قرارة نفسي أخذها إلى شاليه أبي الخل بعد أن يذهب بالبارود إلى بيروت.

- ما كل هذه الشراسة يا ليلى؟
- هل تغار؟
- لا أحسد هذا الرجل.
- الجنس يا عبدو يشبه ثمرة قد تأكلها ناضجة وقد تأكلها بالعسل.
- خنفشاري هذا الكلام.
- شو يعني خنفشاري يا خواجة عبدو قصدك عبثي؟

- شو يعني عبثي ست ليلى؟
- العبثي من يبحث فلا يجد وأنا وجدت. وجدت الحقيقة لا الجسد العاطفي ولا أطلب منك شرحاً وأنا من يسوقه.
- وما هي الحقيقة تؤبريني.
- وجدت الحقيقة في أن الجسد العاطفي هو من يمثل الحب الكامل، بمعنى أنه هو من ينطوي على الرغبات المشبعة بالحب. أنت منحتني النشوة مرات ولم تشاركني ولم تهتم غريب أمرك. تمتلك أصابع ديناميتية تفجر روحي في جسدي.
- للأسف أنا لم أحظ به ولم أدركه.
- أنا عرفته خذ مثلاً رجلاً عرف أجمل نساء الدنيا ضاجعهن مرة أو ست مرات ثم شعر أنه بعيد عنهن وعن أجسادهن بالمرة ورجل ضاجع قروية بسيطة الجمال وفتية ووجد كل لحظة أنه يحتاج إليها جنسياً ماذا يعني؟
- أحبها؟
- هو هذا الجسد العاطفي كجسدي لمن يحبه وأبو ملحم ما أحب امرأة سوى فريدة وأنا ما أحبني إلا أبو الخل.

أنت أعلم.

كان جهاد الأصلع رجلاً قصيراً لا ينحني بسهولة، كأنه مصاب بداء

تحجير العضلات كنت أظنه أحياناً قد ابتلع من البارود ما يجعله قنبلة متحركة لا أعرف متى تنفجر في وجه الجميع. إلا أنه لم يحرم فريدة من إطلالته الأسبوعية ولا من شتل الزنبق الذي يجدده كل سنة لها، كانه ينتقل من أبيض خديجة وشالها إلى أبيض فريدة وزنبقها المميز وهو الذي منحني سحر التي هامت بي وجعلتني أمتلك كنز أحاسيسها. لكني ربما أنا الشقي الذي سبح مع هذه الدنيا عكس التيار. كانت تقول لي فريدة من يعش مع فريدة يصب بحمى الشقاء، ولا أعرف يا عبدو أي قدر ساق لي الصبي الذي لم أحمله وحملني في كبر.

كنت أخاف منه ولم أعرف يوماً أن الرزق ليس بالمال فقط، بل بالمحبة التي تأتي فجأة إلينا، وتجعلنا نمتلك قلوباً قوية تحتفظ بالوفاء والإخلاص. عندما عدت من اللاذقية آخر مرة بعد غياب شهر تقريباً شعرت فريدة أنني لم أفرك قدميها بماء الورد والخزامى كما كنت أفعل. وكأنها أدركت أنني فضضت بكارة عزوبيتي أو ربما هذا ما كنت أشعربه عندما أتهرب من النظر إلى عينيها. لكن سحر منحتني ما لم تمنحه لرجل عاشرته ولا حتى لأبي ملحم. وهذا أعطاني قوة كبيرة. إلا أن هذا ما استمر فالثورة في سوريا قامت والتغيير امتد حتى إلى لبنان، ولكن البارود لم يتوقف شحنه وتحميله على ظهور الجمال التي كانت تعيش سياحة من عكار إلى سوريا، فعمان ومن بعد ذلك الله أعلم، ومن ثم تعود حاملة بضاعة أخرى.

أن يصاب الإنسان بالتوحد لهو نعمة كبرى، لأني أصبت بعد

موت سحر بالإحساس باليتم مرة أخرى رغم وجود فريدة. إلا أن سحر قررت الرحيل بملء إرادتها بعد أن شربت السم وأنا قابع في منزول جهاد الأصلع الذي ما كلف نفسه استقبالها في القرية، ولا حتى دفنها فيما بعد وهو الذي جمع من خلالها الأموال الطائلة التي ورثها أبناء إخوته. يا له من رجل خبيث اعتنى بالبارود والجبن أكثر مما اعتنى بشيء آخر.

في عكار الأرض هي جنة ومأوى الأحرار وعشاق الحياة، في الصباح الكل في نعمة وبركة، وما من دار لا تخلو من بقرة أو بقرتين وإن خلت من الأبقار لا تخلو من الأغنام، وما تقدمه المرأة في دارها على الإفطار لا تقدمه أكبر المطاعم في طرابلس، وإن اصطحبني جهاد الأصلع إلى بيت البرنسيسة يواجهني بسكويتها الفرنسي وجبنتها ذات الرائحة العفنة المثيرة للقرف وشكلها الذي يتلوى كذنب سودا. تستريح غالباً على كنبة طويلة تشبه اليوك في بيت الشيخ مرزوق إلا أنها بلون فضي. لم أكن قادراً على حجب نظري عنها رغم أنها ليست بجمال سحر. إلا أنها طاووس محنط لا يستجيب لعبارات ركيكة، ومن يتكلم معها عليه أن يتقن لغة خاصة بها. أمامها أشعر أني أخرس فلا أستطيع الكلام وإن حاولت أفشل.

مكتبتها الغنية بالكتب تغريني بالبقاء عندها أكثر من البقاء معها، وأنا أعرف قوة حبها لأبي الخل القواد المقرف الذي يشعرني أنه المغتصب الوحيد في العالم، وهو أكثر اغتصاباً من أعداء اغتصبوا

الأراضي وشردوا أهلها والذين مازالوا يشبهونني في كل شيء، لئيم صارم يظن نفسه الأصلع وهذه إحدى أسوأ صفاته عندما يحادثني بلهجة الأمر وعيناه ناعستان لا تليقان برجل يظن نفسه الصالح الوحيد الذي سيدخل الجنة.

شاخت فريدتي سريعاً وما عادت فريدة التي أعرفها، كأنها في ذبول جعلها تبدو كتسعينية وهي لم تبلغ الخمسين أو أكبر ربما قليلاً! على الرغم من نحولها الذي أفقدها سمنتها بدت بعينيها السوداوين غائبة عن دنيا رحل عنها الأصلع المستفز لحواسها دون سواه، وفي ملامحها ألف سؤال وسؤال ولا أجوبة عن أي منها. كانت تسألني عنه فأجيبها أنه بخير وما من امرأة في حياته. كذبت نعم كذبت عليها ونفيت علاقته بالبرنسيسة التي بدأت برقص وانتهت في شقة اشتراها لها خصوصاً لتكون محظيته فقط وربما أحسن إلي في هذا كثيراً، لأني كنت المسؤول عن طلبات البرنسيسة وأعرف أسرارها كلها معه، وهذا ساعدني كثيراً لأنتقل إلى العيش معها في طرابلس بعد موت فريدة وتوزيع الإرث كله على أبناء إخوته لا أعرف لماذا ركض في الحياة؟ وماذا أراد من هذا كله؟.

أخرجت المال المتبقي من الياخور ليلاً وحملته على ظهر البغل إلى أن وصلت إلى بيت فريدة الزنبق، وهناك وضعته في حقائب ثلاث ودفنته في أرض شيخ التبان قرب التي دفنتها من قبل، ورحلت عن البيت متوجهاً إلى بيت البرنسيسة لأرجوها شراء بيت فريدة الزنبق

لأن فؤاد بك ابن أخيه سيبيعه يقيناً. ففعلت واستطاعت استمالة فؤاد الصغير بمبلغ كبير ومن ثم باعته لي بعد أشهر فعاد البيت ملكاً لي بعد أقل من سنتين.

لعبت الحياة معي بأزمنتها كثيراً ووضعتني كل مرة في بيت من بيوت الأصلع مع فريدة الزنبق وخديجة وسحر والبرنسيسة قبل أن أنهي طريقي نحو طرابلس مرت بذاكرتي لمحات أخي وهو يقع في البئر وتكورت قبضة يدي وتيبس فكي إذ لم تعد تصطك أسناني، وأنا جالس في جحش الدولة كما كانوا يصفونه وهو باص الدولة خط عكار طرابلس بيروت.

وصلت إلى بيت البرنسيسة التي كانت تغط في نوم عميق رميت حقيبة الأموال المتبقية على السقيفة وأغلقت بابها، دخلت المطبخ لإعداد القهوة لأستريح من مشوار أنهكني. يبدو أنها عرفتني على الفور كعادتها. لأنها لم تتحرك وتسأل من في البيت وبفضل الضوء الخافت في غرفتها استطعت رؤيتها تغط بنوم عميق دون أن أزعجها وغفوت على الكنبة محاولاً منح نفسي استراحة قبل التوجه إلى المرفأ لأعرف متى تصل باخرة المواشي التي طلبها جهاد الأصلع باسمي بسرية تامة قبل أن يموت لتأتي السفن الأخرى باسمي بعد استطاعتي فهم كيفية توزيعها على التجار. لأني بالنسبة إليه كنت كبش فداء، وماذا يعني السجن لمن مثلي لا عائلة تسأل عنه. لم أتردد لحظة واحدة في إخفاء الأمر فيما مضى عن خديجة، التي رمقتني بحزن وأنا أودعها بعد

أن انتقلت للعيش في منزل والدها في قرية العيون، لأنها كانت ستخبر فؤاد اللعين بأمر المواشي، وهذا أفضل شيء فعله جهاد سريته حتمت عليه أن تبقى باخرة المواشي سرية ولا أعرف إن كانت محملة بالبارود والجبن أيضاً.

لم أحب فؤاد الصغير ولم يحبني. لهذا عندما طلبت إليه الرحيل إلى طرابلس وافق بسرعة عندما علم أنني سأعمل حمالاً في مرفأ طرابلس وكنت على معرفة بأبي الزيك الذي عرفني وعرفته عندما وصلت شحنة الأبقار أول مرة إلى المرفأ ووزعناها كالعادة على القرى والمزارع والمذابح مع الجبن وجرار البارود والسجاد. كانت غرفة المكتب الخاصة بجهاد الأصلع في بيت البرنسيسة تضم مكتبة كبيرة لم أجرؤ يوماً على قراءة كتاب منها أو الجلوس على الكرسي خلف المكتبة. كانت واجهة المنزل تطل على البحر في الميناء والمسالك إليه مفتوحة وبالإمكان أن تصل السيارات بسهولة. لم يكن هناك مخزون كاف من الكاز للقناديل التي أحب إشعالها في المكتبة. حالة طرابلس بدأت تتراجع مع وجود الفدائيين بكثرة في المخيمات، والخلاف الذي ينشب بين المتقاتلين في التظاهرات أحياناً. إنها تلك الأقدار التي تصيبنا بدهشة لا تقودنا إلى الموت بل إلى حياة أخرى.

أنا العدم الذي أنجب شيطانه، فإن
قتلته سأنجب سواه
إن قتلت نفسي تحرر من سلطتي.

منذ متى وأنت هنا يا أبا الزيك.

منذ أن وضع الرئيس شمعون حجر الأساس هناك عند دكان هذه المرأة التي تبيع المشروبات. أترى ذلك الكوخ هناك على أطراف البحر؟ إنه كوخنا حيث عشت مع عائلتي قبل أن أنتقل إلى حارة الرملة بالمينا قرب المقابر في بيت صغير مع أمي أطال الله عمرها وزوجتي والبنات.

هذا يعني أن الرئيس شمعون هو من وضع حجر الأساس له؟

نعم ما زلت أذكره بلباسه الأبيض الرسمي عام ١٩٥٣ ومن ثم وضع حجر الأساس للجمرك أيضاً، كان من قبل عبارة عن قرميد وعندما تمطر كانت الأوراق تتبلل بالماء فنسرع لتغطيتها. بدأت العمل هنا مع أبي صغيراً ما زلت أذكر الثماني ليرات التي كانت كنزي اليومي.

أرض أدونيس وواحة الكرامة طرابلس التي زرتها غير مرة قبل أن أستقر فيها بعد موت الأصلع وفريدة، في أزقتها مشيت وتحت قباب أسواقها المملوكية تسوقت واشتريت العطور والخرز والخيطان والأقمشة لفريدة وعلى ضفاف نهر أبي علي شربت القهوة ومن مشربياتها رأيت الجميلات اللواتي تعانق زرقة عيونهن السماء. طرابلس يا مدينة الأسرار. كنت أسير في الليل على ضفة نهر أبي علي وغليوني في يدي محاولاً فهم ولادتي الثانية في هذه المدينة التي أشعر أنني ابنها فعلاً. ولا بد أن تشعر بذلك إن زرتها يوماً وتجاذبتك محبة أهلها.

أبو الزيك ولد في المرفأ في هذا المكان تحديداً هو الغطاس في المرفأ وهو المسؤول عن مراقبة السفن منذ ما يقارب العشرين سنة وعن تفريغ المواعين من البواخر إلى المستودعات.

لم أكن قد نمت بما يكفي لأتوازن حين جاء أبو الزيك ولمس جبيني ليتفقد إن زالت حرارتي المرتفعة جداً، لكني كنت واعياً كل حركة في غرفته الصغيرة التي يضع فيها عدة الغطس أحضر بابور الكاز ومنحه دفعة من الحقن السريع وأشعله ليصنع الشاي بنكهة الليمون والنعناع.

ألقيت نظرة على تفاصيله وهو يغني بصوته الذي يوقظ الحزن في نفسي «جميل وأسمر بيتمخطر شغل قلبي بكم نظرة تقول سكر أقول أكتر» فبكيت إلى أن امتدت يده إلى دموعي وهو يبتسم لي قائلاً :

المقبرة ليست بعيدة من هنا في حارة الرملة مقبرة متواضعة أضعك فيها وكأنك لم تولد في هذه الراحلة يا عبدو.

يناديني بالواعظ مذ التقينا معاً أم الزلوف عندما رافقني إلى ديرجنين لأسلمه الأوراق التي اعتدت تسليمه إياه كل عام. فوقع هذا الاسم على مسمع أبي الزيك وبدأ يجعلني أشعر أنني عشت قبل هذا الحياة حياة مختلفة كنت فيها الواعظ المبشر الذي يستميت في الدفاع عن الإله أو عن الرب الذي يحب شعبه. ربما الخوري جرجس كان محقاً حين قال لي مرة: إن وجهك ليس بوجه الرجل البريء وستحمل حياتك سهاماً عديدة كل منها تصيب الإنسان بمقتل.

جلست ووضعت المخدة خلف ظهري ورائحة الليمون أنعشت انفاسي إلا أنها ذكرتني بجهاد الأصلع وعراكه مع فريدة. شربنا الشاي وحدثني أبو الزيك عن مشاكله في المرفأ مع الفدائيين غالباً وتهريب السلاح بعد رميه قبل وصول الباخرة إلى الشاطىء والغطس ليلاً لانتشاله وإدخاله إلى المخيمات. إذ ما إن تنتهي شحنة سلاح إلا تأتي أخرى وهو أعلم بخبايا تهريبهم للسلاح. وكل شحنة تصل يقتسم نسبة منها لأنهم يرمونها في البحر قبل وصولها إلى المرفأ، ويعيد لهم سحبها ليلاً بواسطة مراكب الصيد الصغيرة التي تصطاد ما ترميه البواخر قبل وصولها إلى المرفأ.

أبو الزيك أشهر غطاس في مرفأ طرابلس منذ أن افتتحه كميل شمعون لكن ما لم أفهمه هو كيف بقي كل هذه السنوات في هذه الغرفة

التي يمضي فيها ليله أكثر مما يمضيه مع زوجته التي تعيش وحدها، ذكرني السراج ببيت فريدة الزنبق فعلى الرغم من أن الكهرباء تعم مدينة طرابلس إلا أنها تأخرت في وصولها إلى عكار ولم ترها فريدة إلا قليلاً.

لكن يبدو أننا نتقهقر بعد العز أو أننا نعود بالزمن دائماً إلى الوراء رغم الاختراعات، من يقول إن فورد أبو دعسة الألف حصان كانت سيارة أنجبت آلاف السيارات غيرها والأحصنة باتت في خبر كان تؤخذ إلى ميدان سباق الخيل فقط أو يحتفظ بها أصحاب النفوذ للوجاهة ليس إلا.

أنا نفسي أكاد لا أصدق غير أني مع أبي الزيك أشعر أنني بخير. أطأطىء رأسي له وأنا الذي لم يترك أحداً يلكمه في يوم من اليوم. تشاجرت معه عندما تأخرت سفينة الأبقار الآتية من رومانيا وانتظرتها معه بضعة أسابيع. أحسست أن المال الذي ادخرته في بيت التبان سيأكله البحر الذي ما أحببته يوماً ورغم ذلك تعلمت الغطس من أبي الزيك وكنا نصل أحياناً إلى عمق نخاطر فيه بأرواحنا. إلا أننا نخرج ونستلقي على الرمل ونتأمل النجوم في السماء فالغطس ليلاً يخرجك من قوقعة وجودك بأكمله.

يكره أبو الزيك أن يسأله أحد عن زوجته أو ابنته ولا يفرط في الأكل كي يحافظ على وزنه ولكي لا يزداد بدانة لأن ذلك يعيقه عن الغطس تركني أسابيع على السمك المشوي فقط لأخسر من وزني وأستطيع الغطس أكثر وسمعت كلامه رغم تمردي الذي جعلني

متسلطاً لأني لم أجد راحتي يوماً إلا بين يدي فريدة هي المرأة الوحيدة التي كنت أشعر أنها أمي التي ولدتني رغم حبي الشديد لها ورغبتي فيها التي كنت أصرفها مع سواها. لأني أقدسها وأشعر أنها من انبلجت من زهرة الحنان عند الفجر.

جلس أبو الزيك أمامي متربعاً مثل أعمدة بلدة منجز الأثرية وشعره الأشعث يتدلى على جبينه وأذنيه وبؤبؤ عينيه كرقاص ساعة يميناً وشمالاً هو هكذا عندما يحاول أن ينتزع مني معلومات تؤكد شكوكه، لكنه في كل مرة يساعدني وتمر الأمور على خير.

- هذه المرة شحنة الأبقار ليست بخير يا أبا الزيك.
- وما أدراك! انظر إلى نفسك لم تفهم هذا يوم شحنة الكبريت، رغم خطورتها كنت مستعداً للمخاطرة بكل شيء من أجلها.
- لأنها كانت للبرنسيسة وكنت أدرك أنها ستمر على خير ما تقوم به النساء في الإدارات لا نستطيعه نحن، وما البرنسيسة إيدها واصلة يا خيي وهي كالشمس تأخذ في مقابل نورها ثمناً باهظاً ليلة تانتراوية وألف ليرة فوقها.
- خوفك لا مبرر له ستصل شحنة الأبقار وأوزعها معك على التجار ولي خمسة بالمئة كما اتفقنا. كل بقرة سنطلب يدها لنرفعها وننقلها معززة مكرمة لنقلها للذبح.
- هي تجي وخذ عشرة بالمائة من الأرباح.

أدار أبو الزيك الراديو وأخذ يبرم زر الراديو الصغير على أغنية وعندما سمع أغنية محمد قنديل جميل وأسمر أصبح كراقصي المولوية في حالة انتشاء ورقص أمامي حتى بعد انتهاء الأغنية. نمت بعدها كأني في حضن عائلة فقدت فيها الأخ وهربت منها إلى جرود الاخضرار ومدرسة الأصلع في الحياة.

قفزنا معاً من خوف على صوت انفجار هز الغرفة الصغيرة على أطراف البور في طرابلس خرج أبو الزيك، فوجد اللانش يغرق ركض نحوي ممسكاً بيدي وقال:

- أخوات الأوادم ضربوا ديناميت عملوها المهربين. جهز حالك للغطس بس لازم نشيلو.

لم أفهم جيداً إلا حين لحقت به وغطسنا معاً ورأيناه في قاع استقر فيه. لكنه أعمق مما تصورنا عدنا بخيبة وتركني أبو الزيك جالساً على الرصيف لأنتظره كي يحضر من يساعدنا لننزل أكثر ونحاول ربطه لينتشلوه.

أصابتني نوبة من الضحك الهيستيري فتوقف أبو الزيك واضعاً يديه على خاصرتيه، منتظراً قوى الأمن للتحقيق بالحادث.

- فيني افهم شو هالضحك بلا طعمة؟
- سلامتك منيح تأخرت سفينة المواشي كانت غرقت وراحت تحويشة عمري.

تركني ومشى وهو يقول لي: هذا همك فقط، الله ستر وما لملمونا شقف يا واعظنا المبجل مستشار العجول والأغنام.

بعد أسبوع من انتظار أتلف أعصابي وجعلني مفزوعاً من توقيت خاطئ تصل فيه إلى المرفأ الذي يهاجمه بعض المهربين أحياناً. ارتعبت من فكرة تفجير الباخرة وغرقها، فالمنطقة المحيطة بالمرفأ مفتوحة من جهة البحر بشكل كبير ويمكن رؤية السفن من مرابط مدفعيات الجيش المتوزع حول طرابلس. فكيف يحدث هذا؟

اقتربت باخرة الأبقار من الشاطىء إلا أنها استقرت بعيداً من الرصيف لأن وزنها لا يسمح لها بالاقتراب مثل معظم البواخر ذات الأطنان الكبيرة. كانت التعليمات مشددة وأبو زيك كاد ينط فرحاً، وأنا مندهش بعدما شاهدتها ولم أصدق أنها وصلت بخير. كانت المياه عالية وعلى أبي الزيك تفريغ حمولة الباخرة ولو زحفاً لأن الباخرة تحمل عصارة أيامي في عكار، وسحب المواشي كل رأس أو رأسين دفعة واحدة إلى الهنغار يتطلب ربما أياماً. أمسك أبو الزيك يدي وبدأ بالدبكة والرقص على صوت أغنية لصباح من مذياع لا يفارقه يضعه في جيبه كأنه بلبل أو طير يغرد له، معه شعرت بالفرح وحبست أنفاسي التي كانت تتقطع من منظر البحر والباخرة منتصبة أمامي كجبل شامخ كانت الباخرة سروات شديدة السواد من أسفلها والمياه الزرقاء تغمر اسودادها مكتفية بجبروتها الذي ما جعلها تهتز مع الأمواج اختلجت أحزاني من فرط إحساسي بنعمة خفت أن تزول في بحر أجهله. حاولت إفلات يد أبي الزيك الذي ما أنهى رقصه إلا مع آخر نغمة لأغنية بوسة

ما بسنا وعقله طار كيف لو بسنا شو كان صار حتى شعرت أنني في حبور لا ينتهي وجلست أتأمل أبا الزيك والشباب معه في حركة ما انتهت إلا مع آخر بقرة تم تحميلها إلى الهنغار المخصص.

دخلنا إلى غرفة أبي الزيك وتركته يدخل ليستحم لأخرج فوراً إلى الدبغجي لأعلمه بوصول الشحنة وتسلمها يوجب عليه دفع ثمنها كاملاً غداً. تركت المرفأ بثياب مبللة تسربت برودتها إلى جسدي والهواء يتصارع من حولي إلى أن وصلت إلى بيت الدبغجي. استقبلتني خادمته زبيدة وهي سوداء لؤلئية قبعتها بيضاء. جعلتني أعشق اللؤلؤ الأسود وأشتري عقداً منه للبرنسيسة. كان الدبغجي يجلس في حديقة بيته مع بلبله الأسود كعادته. ناولني الظرف الأسمر قبل أن أجلس وطلب من لؤلؤتي السوداء فنجان قهوة لي.

- إننا نحتاج دوماً إلى صفوة من المغامرين للخوض في غمار تجارة هي القوة لوجودنا.
- لست مغامراً بما يكفي لأكون تاجراً.
- أنت أكبر المغامرين لكنك حذر جداً.
- وما أدراك؟
- صمتك الدائم ودقة تعاملك.
- أنا بحار وغطاس مع أبي الزيك ليس إلا تجارة المواشي تغطية إضافية في الحياة.

تحدثنا بكلمات متقاطعة ولا أحب هذا الصنف من البشر. إلا

أنني اضطررت لتصريف بضاعة لم أقرر استيرادها. تركته عائداً إلى أبي الزيك وفي داخلي نشوة الظرف المملوء الذي لم أفتحه.

وصلت إلى المرفأ ودخلت غرفة أبي الزيك وصوت شخيره يهز شفته السفلى المكتنزة والملونة بالنيكوتين الذي جعلها تميل إلى اللون البني المصفر. شعرت نحوه بحميمية قوية فهو يحرك بي نزعة الفرح المفقود من حياتي طيب القلب لا يتلكأ عند أي طلب منه لي، وليس مناسباً أن لا أترك له مبلغاً من أرباح شحنة الأبقار. أخذت حقيبتي الجلدية والأوراق على الطاولة كأن الأمر أشبه برحلة أخرى على باخرة اسمها المواشي وتجارتها الناجحة في مدينة يكثر فيها الفدائيون الذين يشكلون لي ثروة أخرى، ولا بد من الحذر لأني أخاف التشرد بعد رحيل فريدة والبرنسيسة سهراتها لا تنتهي، ولا أعرف متى تلقي بي في الشارع بعد أن اشتريت منها بيت فريدة الزنبق أيضاً. إلا أنها تشكل لي حماية كبرى من أزلام تعتبرني الدخيل العكاري على طرابلس. اعتادت قبضة يدي العصا ولم أكن لأتركها وأنا متجه نحو الأربعين شاب نصف شعري وأكثر إلا أن العصا تغريني رغم قدرتي على البقاء دونها. فهي صديقتي الوحيدة في خوفي وأمني وسعادتي وحزني وبها أشق كل طريق أخطوه لأول مرة.

ما إن خرجت من المرفأ حتى أطل رجل زنجي وأسنانه البيضاء تلمع تحت الأضواء الخافتة. لا أعرف لماذا توجست منه حين رأيته متوجهاً إلى المرفأ مشيت خلفه فشعر بي وسألني:

- هل تعرف أبا الزيك؟

- نعم أعرفه ما به؟
- لا شيء زوجته وضعت مولودتها منذ أيام وطلبت إلي إبلاغه.
- أيعقل هذا أن تلد زوجته دون علمه؟
- نعم منذ أيام ولم تعرف كيف يمكن أن تخبره.
- لا عليك سأخبره أنا.
- أمتيقن يا أخي؟
- نعم، وقل لزوجته سويعات ويكون أبو الزيك عندها.

تركني الرجل ورحل وعدت أدراجـي إلى غرفة أبي الزيك وشخيره كما هو وشفته السفلى ازدادت وزناً كأنها استرسلت في تنشق الهواء من اهتزازها المتكرر وشعره الأشعث مثل الراسور ينزل ويرتفع. وكزته بالعصا فازداد شخيراً وكزته مرة أخرى، فأدركت أنه في نوم عميق. فما كان مني إلا أن بللت أطراف منشفة بالماء وبدأت أعصرها على وجهه فانتفض وهو يشتم ويضرب من حوله بيديه.

عندما رآني واقفاً قربه أوقعني أرضاً وانبطح فوقي، وأراد أن يضربني تجمدت عروقي، واسترخيت دون أي كلام حاول أبو الزيك رفعي إلا أني أحسست بفقدان الحركة وبشلل في أطرافي عادت بي الذاكرة حيث انبطح علي أخي ليأخذ التفاحة مني فضربته ولم أنتبه أنه يقف قرب البئر فوقع فيها. جن جنون أبي الزيك وشعر أنه أخطأ بشتمي ورميي على الأرض والانبطاح فوقي. إلا أني قلت له:

- لا عليك ما حدث جعلني أعود بالذاكرة ثلاثين سنة وأكثر.
- ماذا تذكرت واعظنا المبجل؟
- لا شيء لاشيء قم وارتد ثيابك يجب أن نخرج إلى مقهى النغرسكو وأيضاً ألا تريد رؤية عائلتك؟
- والمواشي؟
- لن تهرب لا عليك قل للشباب أن يبقوا هنا اليوم بحراستها وأنا أدفع أجرة إضافية.

شد يدي أبو الزيك فوقفت بصعوبة واضعاً العصا على الأرض لتمنحني القوة التي تلاشت، أنهى أبو الزيك تعليماته وخرجنا متوجهين نحو الأسواق واشتريت البقلاوة والزهورات واللحوم والأسماك والفواكه وأبوالزيك يضرب بكفيه ويقول: جن عبدو اليوم. توجهت بسيارتي إلى حارة الرملة في المينا وقلت له زوجتك أنجبت مولودة اذهب إليها وخذ كل ما اشتريناه معك... لم أتوقع أن يضحك أبو الزيك ولا أن يشعر أنني أمازحه.

- واعظ فهمنا وإبليس كمان؟ شو عرفك مرتي ولدت.
- يا رجل اذهب سوف أراك يوم الاثنين في المرفأ.
- بالله عليك كيف عرفت؟.
- جاء زنجي وأخبرني وأنا ذاهب إلى البرنسيسة.

حمل أبو الزيك الأغراض والدهشة واضحة المعالم على وجهه، وتوجه إلى بيته بينما أكملت طريقي إلى بيت البرنسيسة وأنا في حالة

استرخاء لا أدرك سرها بعد أن انبطح أبو الزيك على جسدي عادت بي اللحظات إلى الرجل الأبيض والتفاحة وصوت أخي ينادي من البئر يا عبدو طلعني..

أمضيت الليل بانتظارها بين المطبخ وغرفة الجلوس ودخان السيجارة المتراقص أمامي، وأوراق شحنة المواشي التي مرت على خير تحتاج إلى توقيع يمكنني من إخراجها من المرفأ غداً وعلى البرنسيسة أن تعطيني منديلها لتمر على حواجز المراقبة دون أي بقرة تؤخذ على الذبح وإلا سأخسر نصف الربح باستثناء نسبة البرنسيسة التي لا مفر منها..

دخلت البرنسيسة تترنح وهي تضحك ساخرة من العتمة على درج يحتاج إلى قص وتقصير أو إلى ضوء يجعلها لا تحتاج إلى يدي التي غابت عنها لتصعد ومن المؤكد كعبها العالي بقي خارج كل درجة صعدت عليها بقوامها الممشوق.

- عبدو يا عبدو ليلى البرنسيسة بين إيديك.
- بين إيدي ومش لي شو النفع دخيلك.
- ما تقول هيك يا عبدو شبيك لبيك ليلى بين إيديك.

انتظرت وصولها إلى السرير حيث استلقت وسط شراشفها الذهبية وهي تهذي من سهرة يبدو كانت محمومة بالغزل تركتها كسمكة خرجت من ماء البحر المالح إلى الأرض التي ترحم..

أحضرت لها الزيوت المعطرة والشموع وزعتها على طاولة

أمام المرآة ووضعت البساط الصوفي على الأرض نزعت عنها فستانها وحملتها كطفل ولد من جديد بجسد متصلب متشنج يحتاج إلى لمسات أمه الحنون كانت تئن من الحزن ولم أعرف أسباب حزنها. إلا أنها مع كل لمسة كانت تتنفس كسمكة تحتاج إلى ماء يعيدها إلى مستقرها، تحسست باطن قدميها بأصابعي مرتفعاً ببطء شديد إلى مؤخرتها فظهرها فرقبتها طلبت تشغيل كاسيت وسماع أغنية جين مانسون بدأت جين بالغناء وبدأت البرنسيسة بالرقص بين يدي كالمشبعة بتخدير سلب منها الإحساس بالوجود، فالحزن اشتد أكثر وأحسست أنها بحاجة إلى رجل سواي، ولن أكون البديل مهما حاولت. غفت وتركتها على الأرض بعد أن وضعت على جسدها الذي هدأ من رعشات توالت وصرخات لذة عكست وقع نشوة أناملي.

وضعت غطاء رقيقاً لم يمنع من رؤية جسدها النحيل على أرض صلبة، كأنها استسلمت لها ونامت بنشوة حالمة. يبدو أنها حزينة جداً الليلة. تركتها وخرجت إلى غرفة الجلوس جهزت لنفسي كوباً من الزهورات الساخن واستسلمت لصوت كارم محمود، ولم أشعر إلا وأنامل البرنسيسة تمر على شعري كنسمة صباحية تدغدغ الزهور في حقل الذرة. وبين يدي كتاب عن أصول الدافع الجنسي.

- ماذا تفعلين ليلى؟ لم كل هذا الحزن ليل أمس؟
- طلب إلي إيلي تدميرك لأنك تمثل عائقاً له وهو يريدك أن لا تقترب من المواشي ليبقى الموزع الوحيد لها في طرابلس.

- من أجل هذا أنت حزينة؟
- تسخر مني؟ تريد مني تدميرك؟ حاضر.
- نعم دمريني لأني بهذا سأخرج سليماً مفلساً ولكن يجب أن أجعله مفلساً أيضاً.
- كيف ذلك عبدو؟
- سأفكر في خطة كل ما عليك أن لا يشعر أني عرفت خطته.
- حاضر.
- أريد منديلك يا حلو، منديل الحلو يا منديلو على دقة قلبي بغنيلو، آه يا سيد المناديل محلاك يا جميل على خصر نحيل يخطر ويميل.
- ماذا تريد من المنديل؟
- لازم وزع شحنة المواشي على التجار ولا أريد سلبي رأساً من المواشي لأنهي معاملة خروجها من المرفأ بدك إخسر عشرين بقرة؟
- لا أبداً روح خود منديلي وعلى دقة قلبي غنيلو.
- لازم جهز حالي لأطلع مع إيلي اليوم وما قلت لي ماذا أقول له؟
- قولي له موافقة وأخبرك بالخطة فيما بعد.

لم أنم تلك الليلة بعد أن خرجت البرنسيسة مع إيلي دباغ وهو تاجر مواشٍ بحجم بعوضة صغيرة بالنسبة إلى جهاد الأصلع. إلا أنه لا يطيق

رؤية وجهي ولا يحب مفارقة البرنسيسة، وهي بكامل أناقتها. كانت تعتمد على إيلي في تخليص الأوراق من مرفأ طرابلس، فالكسارات الآتية من اليونان بمنزلة الذهب الأبيض لبرنسيسة تمد بعض الرجال بآلات تأكل من جبال لبنان ما كانت تأكله دودة الحرير من ورق التوت لكني انتظرت البرنسيسة على أحر من جمر عودتها كي أضع النقاط على الحروف، وما إن دخلت حتى شن لساني هجومه عليها وجعلها تدور كتفاحة مربوطة بخيط لا تهدأ كعادتها. إلا أنها اغتاظت وشتمت وكررت ألف مرة أكرهك عبدو وهي تحترق بين يدي كشمعة تحتاج أن أطفىء شعلتها بالسبابة والإبهام.

- مهزومة أنت ستخرجين معه في كل مرة ولن يفعل إلا ما يريده بهذا أنت تضعفين أمامه.
- هلوسة شخصية متلخبطة بين رغبتك في الانقضاض عليه وقلبك المتعلق بي، فتتصدع لأنك أضعف من مهاجمته.
- تسألني فيك؟ أنا عاجنتك وطاحنتك ومخمرتك وخابزتك، ولكن ما أكلتك لو فعلت لعرفت طعمك يا حلو.

  لماذا تتمنع علي؟ حيرتني يا عبدو ما عم افهمك أبداً..
- لأني أحبك أشعر بك في روحي أنا في أعماقك يا بنت، لكن الإيهام سباحة في السراب وهذا إيلي يوهمك أنه سيمنحك القرض لتشتري الكسارات مجدداً من اليونان وشحنها. إنه يستفيد قدر المستطاع لتغطية أشياء أخرى. يا له من رجل

خبيث لكني أحتاج إليه في تصريف صفقات البارود وشراء اللانشات لتساعدني أكثر على رفع المواعين.

الجسد هذا يشهيني بك يستثيرني يؤججني، تتماهين بي. أعشقك لياليك البعيدة وشغفك المحجم وهمتك المعطلة لكن لمن أنت عاشقة؟ هل أقول هنيئاً له؟

- هل تظن سأجيبك؟ اكتشف بنفسك.
- القريب منك بعيد حسبي الله.
- هذه أغنية لنجاة الصغيرة القريب منك بعيد.
- أمام الله لي معكم وقوفاً إذا بلغت حناجرها القلوب، كتبت لك ما يبرز ألف عام، وهذا فعلته كثيرات من النساء جعلت مني قميصاً لها ومن لمساتي شعاراً. أخبىء لك ما فهمت من حواسك ولمساتي لجسد ينتفض وروح كالعسل وهذا تاريخ محبتي لك سيبقى تذكار محبة يجسد حقيقة صحبتي لك كاملة.
- من أنا وحولك النساء والأحباب هم ناسك وأحباؤك وعالمك وأنسي البرنسيسة المسكينة يكفي أنها كلما احتجت إليها تتذكرها. وستنساها بعد الموت.
- حين أموت أريدك حية قوية شابة ترزقين.
- محبة منك لي؟
- لا أكاد أتحمل فقدان مجنونة مثلك لم أنسك ليلى فقد

انشغلت بتهيئة بيت القرية وكنت بحاجة إلى عزلة بعد موت فريدة وابتعادي عن خديجة فابتعدت قليلاً إلى أن تتبلور الأفكار في رأسي أيضاً.

أنت أشبه بذاك الولد الضال. يسيح عمراً ويتذكر في النهاية موطنه ومع هذا بيت البرنسيسة مفتوح. أنت راحل مع أنك مقيم تراوح مكانك وظهرك لبيتك لكنك لم تتقدم بعيداً خطوة واحدة. لك أصالة تمنعك! صدقك يمسكك! لديك طهر خفي يلومك فتعود لأنك طيب. كعطر الياسمين، شهي كورد الجلنار. تدمنك المرأة يا عبدو فلماذا لا تدمنها؟

- أنا لك الآن عبدو فافعل ما شئت بي.
- محبتي لك أقوى من أن يدمرها أي شيء يا ليلى عفواً يا برنسيسة لذيذة أنت برغم مرارتك، ما من دمار ربما قوة. أنا راحل إلى عكار بضعة أيام مرة أخرى بعد وصول شحنة الكبريت، فهل أقبل تاج الورد قبل رحيلي؟ لا يعجبك أعلم الصمت دليل الجبروت. لا تتصنعي الغضب لا يليق بك ولا تشيحي بنظرك عني. ألم أهرب ذات يوم إلى بيت فريدة الزنبق؟ أليست فريدة الزنبق امرأة يشتهيها الرجال ومع ذلك عشقت ذاك القرد المسمى جهاد؟
- أنت عامل متل مقالع الحجر بباب الرمل كل ما خلصت حجارة بتطلع حجارة أخرى.

- على ذكر مقالع الحجر اهتمي بالطباع شوي وما تزعليلي أم علي البيروتية.
- شو خصك بختيارة الخوجاية وخلصت أيامها.
- يا غبية البيروتية كلمتها بتمشي على جيل بكامله أمر ما بتفهمي فيه. أنت ظالمة ومتوحشة وهجين أهكذا قدري عندك؟ أتمنى سرقة لسانك يا ليلى.
- سرقوا يا ليت سرقت قلبي وما تسرق غيرو ولماذا لا تسمي الأشياء بأسمائها ما معنى تاج الورد؟
- هو تاج الورد المشبع بروح الرغبة وشهوة الحياة.

لازم شوف أبوالزيك حكي النسوان ما بيخلص أوووووف.

لا أعرف حقيقة هل تعشقني هذه السنيورة البرنسيسة. أو أنها أدمنت أصابعي فقط. المرأة تعيش في حبها على ألذ ذكرى وأمتع لحظاتها. فقالت بصوت عال هو أبو الخل يا عبدو. شعرت بالغضب فتحت الباب بقوة وترنمت بصوته كالقنبلة الموقوتة خلفي. أو كعاصفة أغلقته بقوة يا ليتني وقعت في البئر وانتهت حياتي كما انتهت حياة أخي.

حياتي تومىء بنهايات وبدايات لست أفهمها وهبوب عواصف النساء في حياتي سرها في بئر قدري لا أستطيع الخروج منها على ما يبدو. وهذه القطة ستتعبني. وأخذني التفكير فيها ولم أشعر بأن السيارة تتحرك ببطء شديد والوقوف للركاب وخروجهم أشبه بالوقوف في بيت التبن، تمر بي خيالات جهاد الأصلع واتفاقاته السرية في إمرار

مادة الكبريت ومادة البارود عبر الجمال والمسالك التي تؤدي إلى سوريا فعمان أو إلى سوريا فالعراق، حاولت أن أتذكر الحاج بارود الملقب باليخني هو الوحيد القادر على فتح أبواب الهجرة لي يجب أن ألتقيه في مخيم نهر البارد لأستطيع الخروج من لبنان قريباً.

وصلت إلى البيت بعيد الساعة الرابعة فجراً والبرنسيسة مازالت على ما يبدو مع إيلي عند الريس علاوي حقيبتها ليست هنا وأنا في حالة يرثى لها من التعب عثرت على ماء ساخن، مما سمح لي بالاسترخاء تحتها. انتعشت روحي بعد فنجان القهوة الذي صنعته بنفسي. وضعت أوراق الكسارات أمامي لأنهي مواصفاتها وأسلمها إلى البرنسيسة لتوقعها من ذاك الذي يتجرعها دون كأس، ولم أفهم كيف ينجو ممن يحاولون قتله أو كيف يمر في المخيمات دون إثارة الشكوك فيه. والحركة الفدائية تتأزم أكثر كل يوم. كنت أتألم على البرنسيسة لأني أعلم مدى بغضها لإيلي لكنها تحتاج إليه لإمضاء أوراق صفقات الكسارات، ولم أجد وسيلة تزيل عنها هم سهرة مازالت فيها حتى الفجر في منتجع الهري. إلا بتهيئة أناملي لممارسة التانترا التي اعتادتها حواسي. أنظر إلى مرآة الزمن فأرى قدمي فريدة وهما تتلويان تحت أصابعي كعجينة طرية قبل أن تتشكل قطعاً حلقومية.

يبدو أن نسائي هن خبز الأغنياء يؤكلن بتعاستهن وهن يرحلن معي حيث لا أجد مكاناً لي معهن. دخلت غرفة المكتبة فوجدت الشموع التي أصنعها خصوصاً لامرأة لا تشبه الزنبق في شيء، بل هي

امرأة الغاردينيا ناصعة البياض ولا يليق بها إلا عطر الغاردينيا الفواح مع نار الشموع الهادئة، وزعت شموعي في غرفة تركتها فقط لفراش من صوف المواشي الذي كنت أجزه قبل بيعه، وحصتي هي حصة أم الزلوف أختي التي لا أعرف من أين أنجبتها أم ما التقيتها. منذ أن كنت أبقى لعصر الزيتون وطحن العطوس حتى يوم وجدتها مرة أخرى عند الخوري جرجس في قرية دير جنين تقدم القهوة في العزاء الكبير الذي أقيم له في باحة القرية، لم أجد يومئذ طريقة لأبعدها عن نيران الخدمة التي لا تليق بامرأة مثلها لديها ابنتان. إلا شراء الفرن لتكون هي مسؤولة عنه، ومذ ذاك تشعر بأني أخوها الذي يخاف عليها، ولأنني لا أقف مطولاً في محطات نسائية طلبت منها صنع فراش من صوف أبيض يشعرني بليونة الحياة التي تبسط كفيها لي دون أن أعرف أسباب كل هذا.

في داخلي الكثير من الكلام عن هذه السيدة التي استحضرتها لحظة أستعد لممارسة التانترا مع سيدة تضاجع الرجل الذي تحتاج إليه، وهي مكرهة ربما من أجل المحافظة على بقائها في أمن وبعيدة من أيدي المدسوسين في وطن توافد إليه الغرباء الذين يحشون فيه سمومهم كما كان يحشو جهاد الأصلع الجبن بحبوب الهلوسة التي تجعل من المقاتلين مجانين الدم.

وزعت الشموع وسكبت زيت الغاردينيا في كؤوس نحاسية، ووضعت شراب الزنجبيل بماء الورد في كؤوس كريستال، وتركت

لجسدي عري ليل يجعلني أمارس الطقوس التي أحبها. أتعجب أحياناً من لحظات حياتي والأحرى حيواتي. فعبدو الذي عاش مع فريدة لا يشبه عبدو الذي مع البرنسيسة، ولم يشبه يوماً عبدو الذي علمته سحر فنون الجسد والجمال ولا عبدو في الياخور مع فرسه زرقا التي يشتاق إليها.

أتذكر التفاحة في يدي وصوت أخي في البئر رغم كل الحزن الذي ينتابني حين أتذكر صوته. إلا أني أشعر أني لم أولد سفاحاً ولا من زنى وجود أخ لي يعني أن لي أماً وأباً يلوح لي طيفه مثل الحلم العابر، ولكن لم أتذكر أين تقع هذه البئر التي وقع فيها أخي ولا من أي قرية خرجت إلا أني أذكر البحر والصياد وصاحب القبعة.

كل ما أذكره هو الرجل صاحب القبعة البيضاء الذي أعطانا التفاحة وتشاجرنا من أجلها، وتسببت بتشردي أو منحي هذه الحيوات التي أعيشها بغرابة مطلقة. كاد الفجر يشقشق، والبرنسيسة لم تصل ولا أعرف إذا كانت الشموع ستصمد، إلا أن صوت الموسيقى جعلني أستحضر سحر، ولم أشعر إلا بحرارة تحت أصابعي وليونة جسد يتلوى كالثلج الأبيض الذي يذوب بين أناملي. تأوهات البرنسيسة التي دخلت عارية إلى غرفة التانترا الخاصة بنا وضعتني أمام مشهد ولادة زرقا وأنا أطير فرحاً في ياخور جمعني بسهام التي علمتني كيف أساعد الفرس الحرة على الوضع. لم تتكلم البرنسيسة ولم أحاول استنطاقها غفونا على الفراش بعد رحلة مع جسدها إلى الأثير حيث لا عالم مسكوناً إلا

بنا حيث آدم وحواء وجمال لحظات تعالج الأجساد المتوترة والأرواح الحزينة.

استيقظت عصراً والبرنسيسة على صدري ولم أسمح لنفسي بإيقاظها بقيت ساعة أداعب ظهرها وأنا أفكر في حياة هذه المرأة التي دخلت حياتي. أعرف ماذا يعني أن تكون مع امرأة وأنت تحافظ على مسافة معها كي لا تنجب الأطفال منها، وكيف تكون امرأة في أحضان رجال كل همهم التلذذ بأميرتي التي وضعها القدر أمامي. لا أعرف لماذا النساء دائماً هن النجمات في سماء ننتظر فيها ظهورهن. كل همي الآن الحصول على صفقة الكسارات وتوزيعها قبل أن يغير إيلي رأيه.

إن القلب يتجدد مع هذه المرأة وأشعر بدماء حارة في عروقي طوال مكوثي معها. إلا أني أشعر بنزف داخلي حزناً عليها ويجب أن تجمع رصيداً يساعدها على البقاء بخير بعد أن تزول همروجة الإعجاب بها من إيلي وسواه.

- – عليك أن توقظني لماذا تركتني أغفو حتى الآن؟
- كي تستريح ملكتي قبل ذهابها الليلة.
- هل تحبني يا عبدو؟
- أخاف عليك برنسيسة ليلى وأحب توفير الراحة لك.
- هذا يعني أنك لا تحبني.

انتفضت البرنسيسة وانتفضت معها حواسي كلها يبدو أن أصابعي الليلة زادت جسدها بياضاً وليونة..

- أنت محتال يا عبدو تبقى معي فقط لتوقيع صفقة الكسارات.
- يا برنسيسة أنا أخاف عليك وأحبك محبة رجل مترف من النساء.
- أنت مثل إيلي وأبي المبيض وأبي الدباغ لا تختلف عنهم.
- لا تقارنيني بأحد ستدركين يوماً أن خوفي عليك أكبر من خوفك على نفسك بلا كلام فاضي سأهيئ لك الحمّام نشرب القهوة وأذهب إلى أبي الزيك.
- ما في كونتاك اليوم؟
- شهواني أنا؟
- لا أعرف لم أفهمك قط تلامسني ولا تضاجعني كصائم لا يفطر.
- عندما تفتقدين الأحبة يضيق العالم كخرم الإبرة في عينيك ولطالما ذكرتك أنك بين الممكن والمستحيل تفقدين أيامك معي ويوماً ما ستغادرين كما الأخريات.
- أنت أحجية.
- أفهمك بعمق لكنك غير فاهمة نفسك بل متعالية على ذاتك.
- أريد بلوغ الهدف دون تعب واختيارات.
- أنا أفترض أشياء غير مقتنع بها مطلقاً منها أنك حالياً غير جنسية بشكل بركان خامد يمور ستبلغين هدفك أما الخسارات فكلها انتصارات لأن مكسب تجربة الفشل خبرة

عظيمة تقرئين عنها ولم تجربيها. لا خسارات في الحياة الفشل طريق النجاح. ماذا تتوقعين أن يأخذ شخص مثلي منك. من الجنون تصور أنني ممكن أن أفعل معك كما فعل المنحوس جهاد. لست صغيراً كي أتصرف بغباوة مع امرأة عاشقة مثلك تمنحين الجسد وفي روحك يسكن أحمق ما أجهله. أو لا أجهله لأنه أبو الخل طبعاً. لست مطالباً بشيء لا تضحية ولا عشقاً ولا خسارات وجودي في حياتك ربح لا خسارة أو تعتقدين أنني أربح شيئاً؟

- فقدت بصمة حبي لأبي الخل معك.
- من أنا كي تفقديها معي. قلتها لنساء أخريات لكنني تعبت من جهلكن وحماقتكن، هناك فارق بالعقليات. فقدت بصمتي فضعت فيك اندمجت فتمازجت تفقد الأنثى بصمتها حين تمنح جسدها لحيوان يلحسها، لحبيب عاشق وأبدي احفظيها جيداً يا برنسيسة. لأن من تذوبين فيه ليكون بصمتك وتكوني بصمته هو الإحساس الذي لا يلمس ولا يرى كالكهرباء، لكنه بغير وجود كلمة تأتيك عبر التخاطر تجعلك تنفجرين وأخرى تذوبين كالثلج. في البدء كانت الكلمة ثم الجسد وحين يلتقيان يتوج المعنى إحساس مادي. إحساسك. هو أبو الخل لست أحمق يا برنسيسة ولست نفسك لتكذبي عليها.

تجمدت فأحسست أنها ستبكي تركتها وتوجهت إلى التبانة. المنطقة المحيطة بجبل محسن والقبة وحارة البرانية وصلت إلى شارع سوريا، الهادىء الخالي من الضجيج والذي يعكس السكون فيه وقع دعساتي.تغلغل الخوف بي وزادت مخاوفي من رصاصة قناص لفدائي ما يراقب الطريق، فتخترق رصاصة رأسي فأموت ميتة لا تليق بي ألا يقول المثل الفرنسي إن الحكمة تبدأ بالخوف من الشرطي؟

كان لا بد من تسليم البضاعة لأبي الخل، الذي ينتظر الضوء الأخضر لأسلمه البارود وحبوب الجبن الجديدة دون أن يسجل فشله في ذلك..

أبو الخل من الهمشريين الذين يحافظون على السلم الأهلي في طرابلس لم أفهم معادلاتهم. إلا أني كنت المستفيد من ذلك في تسليحهم المستمر لأنهي كمية البارود الأخيرة التي وصلت قبل موت الأصلع وفريدة وبقيت في بيت البرنسيسة. وصلت إلى بيت أبي الخل وصوت ضحكاته جعلني أضحك قبل أن أنهي الخطوات الأخيرة لأصل إلى الباب المفتوح تقدمت معترضاً شاشة التلفزيون وفهمان يحاول سلب أبي سليم الطبل نقوده.

رمقني أبو الخل وقال:

- يا جايب البلاء خير متل طير الوروار بتحط وبتغط وما بتنط.
- نسيت موعدنا يا أبا الخل.
- مين خبرك نسيت ما انتهى مسلسل أبو سليم عادة نلتقي بعد أن ينتهي.

- مسلسل أبو سليم ساعة مواعيد؟ يبدو صار ساعتك يا أبا الخل.
- ابتعد عن الشاشة بيخلص أبو سليم ومنحكي.
- أخاف غضب أبي الخل، لأنه إن غضب هجر كل شيء وذهب لصيد السمك أو لرأس الصخر في الميناء. أحياناً أظنه يريد اللحاق بالسبع أو التجسس عليه عندما يكون في فيلا قابعة في رأس الصخر تلك المنطقة الهادئة التي لا تخلو من هدير البحر، وربما اختارها السبع ليكون قريباً من أي زورق عند اشتداد الخطر.

دخلت المطبخ لصنع كوب شاي راضخاً لطلب أبي الخل. عاد للضحك مجدداً وأنا متوتر أريد إنهاء الاتفاق معه وقبض المبلغ. مر أمامي كلمح البصر هر أسود على مقربة من دكان أبي شحادة الذي اكتشفته في المرة السابقة وتحدثت معه كثيراً عن بقائه في هذه المنطقة التي تشتعل بضجيج الباعة بسرعة وتهدأ بسرعة، تركت إبريق الشاي على النار وتبعته حيث وقف أمام الدكان يترقبني دون أن يبتعد أمسكته وعدت به إلى بيت أبي الخل.

- يبدو أنك تجن اليوم مرة ثانية لا تأت إلي وأنا أشاهد مسلسل أبي سليم...

أدخلت الهر إلى الحمّام ونظفته جيداً ونشفته وأسميته بو جعفر

سحرني لونه الفاحم. ليبقى معي ويؤنس وحدتي في مدينة طرابلس التي بدأت تتغير ملامحها بعد كل تظاهرة تتكسر فيها كراسي المقاهي أو واجهات المحال، وتصبح كمدينة تنحدر نحو نهر أبي علي لتتمسك به ولا تنجرف مع سيول المقاتلين الذين التهموها وتركوها ممزقة وسط مستنقعات من الدماء وبعض المطلوبين للدولة الذين ابتعدت عنهم قدر الإمكان لأجنب نفسي مسألة التحقيقات الخنفشارية التي كانت تحدث من حين لآخر مع أبي الخل.

كان صلة الوصل بيننا أبو الخل، لم أترك أحداً يعرف من أكون بعد أن ارتديت ثياب واعظ ومبشر وأتقنت ذلك من خلال أبونا جرجس طبعاً الذي كنت أبقى عنده أياماً في دير جنين لأحضر الزيت والتبغ المطحون أو العطوس.

ابتسم أبو الخل عندما اقترب منه بو جعفر وتذكر أن عليه تسليمي مبلغ البضاعة ليتسلمها غداً من أبي الزيك. ففي مكان كهذا تكثر فيه البسطات والمحال التجارية لا أحد سينتبه أنه لتسليم بضاعة كهذه. فجأة لا بد أن تكون منتبهاً أين تضع مالك فتح رغيف الخبز وأخرج منه حزمة الدولارات وناولني هي قائلاً لا بد أنها هذه المرة قوية المفعول أريد من المقاتلين أن لا يشعروا بالموت وهم يسقطون أو بوخز الضمير عندما يقتلون فلا يقتلون. عملتها ليلى وخطفت الطائرة. امرأة بألف رجل.

لا تخف حبوب الجبن هالمرة عكيفك.

عملتها ليلى عملتها سميرة المهم استلمت وبكرا إنت بتستلم من أبي الزيك.

تركته وخرجنا أنا وبو جعفر مخترقين كآبة البيوت العتيقة التي مررنا بها في التبانة وبعض المسلحين ينظرون إلينا من الشبابيك وكأننا أشباح شارع سوريا. انحدرت من شارع سوريا باتجاه سوق الخضار الخالي من الخضار كان يجب أن يصبح اسمه سوق السلاح الذي يدفن مثل الأموات في مقبرة الزعبية.

ووقفت عند براد البيسار ذلك العملاق الأبيض الكبير الذي كان يزخر بالتفاح وينتظر أفواه المترفين لتأكله بعد أن يرحل إلى الخارج مثل حبوب الجبن التي تأتي وتذهب أيضاً. كل شيء ساعدني في تلك المرحلة السوداء من تاريخ حياتي إلا بعض المنغصات مع إيلي والبرنسيسة. خصوصاً بعد ١٢ أيلول ١٩٧٠.

الحقيقة أن الشعور بالنقص عند الدميمين، يجعلهم يرفعون قداسة الربوبية تعويضاً عن دونيتهم وإيلي دميم الخلقة لأنه يشبه أحراش وادي قنوبين مكسو بالشعر كغوريلا صغيرة.

قبع بو جعفر في حضني بعد أن صعدنا سيارة أجرة نقلتنا إلى المرفأ. اصطفت البضائع في مستودعات المرفأ كمسرح فرقة البيتلز أو الخنافس وعلى جوانبها وقفت الآليات التي تنقل البضائع من البواخر إلى المستودعات. الآليات اشتراها إيلي ولا أعرف ابن العاهرة هذه كيف جمع كل هذا المال وهو في الثلاثينات من عمره.

نزعت ثيابي السود عني وتركتها على صندوق صغير يضعه أبو الزيك قرب سريره وعلقت منشفتي خارج باب الحمّام ودخلت لأستحم تاركاً بو جعفر يستكشف المكان ذاك الهر يبدو أنه أحبني كما أحببته عرف أبو الزيك أنني بحاجة إلى فنجان شاي بالليمون وضع الإبريق على البابور سمعت هديره القوي وأنا تحت دوش الماء الساخن.

أحسست بالاختناق فجأة عندما تذكرت ماء البئر حيث وقع أخي فيه، ولم أعرف كيف لففت المنشفة على خصري وخرجت من حمّام بحجم تابوت خشبي كبير. مواء بو جعفر بدا غريباً وإبريق الشاي يرتفع بخاره ورائحته بدت شهية. أحياناً ينسى أبو الزيك إبريق الشاي ويخرج مسرعاً لأمر ما يخص نقل البضائع من باخرة إلى زورق صغير كنت أظنه يكبرني بسنوات كثيرة لأن تجاعيد وجهه بدت في جعودتها الخفيفة أشبه بورقة مرمية منذ زمن.

لكنني لاحظت حركته وحيويته وقوته البدنية. إلا أنه سري للغاية لا يكلمني عن عائلته ولا عن أي شيء غير المرفأ والعمل. شارفت الأربعين من عمري أو ربما أقل، وحادثة البئر وقعت منذ أكثر منذ أربعين سنة تنقص قليلاً أو تزيد قليلاً لا أعرف حقيقة. الحادثة وقعت وانتهى الأمر وما يسعدني أن الحاج فؤاد لاقى مصير أخي ومعه سهام، ولكن مع سبق الإصرار لأنه يستحق الموت هذا الذي يسبّح الله ليله ونهاره أخذ بضاعتي التي وهبتها لي هي صاحبة المنديل ولا يريد دفع ثمنها.

هددني هذا الجاحد بفضح أمري لجهاد الأصلع وقبضة يدي كانت كافية ليغمى عليه ويكمل ذنب مصونتي زرقا خنقه قبل أن أرميه في البئر، ولا أعرف ما الذي جاء بسهام إلى الياخور لحظتئذ وكان لا بد من ذنب زرقا تولي مهمة شنقها أيضاً. أذكر قرية خربة داوود مثل حلم بات في ماضٍ مختلف وغريب، كأنه حياة أخرى مت فيها وانتقلت إلى حياة أخرى وأتمنى أن يكون أخي في حياته الأخرى سعيداً.

هاجمني أبو الزيك على غفلة كعادته ورماني أرضاً وانبطح علي وكدت أجن منه لأنه يذكرني بذاك الذي وقع في البئر. لا أحب أن يفعل هذا أبو الزيك معي. لأني أخاف قتله لقد تكورت قبضة يدي وهو تحديداً لا أحب خسارته.

- فيني أعرف ليش بس ابطحك تصبح كالمعتوه أحب العراك معك يا رجل.
- لا أحب العراك يا أبا الزيك فأنا رجل مسالم.

أصاب بقشعريرة كلما حاول العراك معي أبو الزيك. ليس ثمة ما يوجع أكثر من وجعك عند فقدان أخ لك من أمك وأبيك. فالألم يصاحبك مدى العمر، فالأخوة للرجل كالسلاح في يد مقاتل يشن حرباً ضروساً.

كنا أنا وأبو الزيك نغطس ساعات عندما تزداد كآبتي، وما عشته مع أبي الزيك لا يتكرر. إذ علمني صمته المهيب معنى السرية الخاصة. لم أعرف شيئاً عن حياته العائلية كان يقول لي: إن الإنسان يهينه لسانه

إن تكلم عن خصوصياته، لهذا حافظ على سرية بيته بقوة، وهذا فرق بين القرية والمدينة. ما دخلت بيتاً في القرية إلا عرفت معاناتهم وما دخلت بيتاً في طرابلس إلا بقي في ذهني ألف سؤال.

الشيء الوحيد الذي عرفته عن أبي الزيك ابنته مارلين التي ولدت أثناء معرفتي به في الثالث والعشرين من أيلول عام ١٩٧٠. وكنت أزوره لأراها فقط وأستمتع بحركتها وبراءتها كانت تذكرني بأمي إذ تشبهها قليلاً وإن كانت طفلة لها العينان والجبين نفساهما. حمراء الشعر بيضاء كالحليب وثغرها كلون حبة التفاح الذي لم آكله يوماً. كانت تحب الدمى وكل زيارة لي مع بو جعفر لا بد من دمية. كانت مارلين تنتظر بو جعفر أكثر مما تنتظر مجيئي. كان عمرها سنتين وتحب القطة جداً.

كان المرفأ يصدح بأصواتنا ليلاً إن وصلت شحنة إليه. كنا نخاف من تفتيش مباغت للمرفأ. غالباً ما يتم تفريغ البضائع ليلاً نتولاها أنا وأبو الزيك فقط عندما تكون شحنة الأبقار أو الكسارات، وعندما تصل باخرة الكبريت يقوم أبو الزيك بتفريغها وحده. كنت أخاف عليه عندما يبلل قطعة قماش بالخل ويربطها على أنفه كي يحمي رئته من العطب. إلا أنني فشلت في مساعدته في هذه المهمة غالباً لكن لم أفشل في توزيعها.

التمعت عينا البرنسيسة عندما أحضرت لها ألبوم «أرجوك ارضِ بي» لفرقة البيتلز، فسخرت مني ضاحكة.

- لماذا لم تحضر اليوم أهو يوم من العمل الشاق؟
- أتسخرين مني لأني أعمل ليل نهار أحياناً؟
- كل يوم في روتين ممل.
- هل أنا زوجك يا ليلى حتى تحاسبيني كزوج انتبهي.
- هل كرهتني ما الحكاية؟
- هل طالبتك بشيء مما يطلبه الأزواج من زوجاتهن؟
- خلص أنهِ حديثك هذا أزعجني.
- عيشي حياتك كما ترغبين وارحلي حيث تشائين بلا توتر ولا تودد عيشي مشاغباتك فقد تعبت يا ليلى أنت ولدت بلا رضاع أو وحام عيشي هذيان روحك وأغلقي هذا الملف المسمى عبدو.
- تائهة وخائفة.
- هناك شخصيتان تمشيان معاً لماذا لديك تناقض كبير في شخصيتك فحين تقولين نعم ظلها لا وحين تقولين صحيح ظلها في داخل الذات خطأ ليس لك موقف مبدئي بالمرة لك زمن لا تؤمنين به بالمرة صنعه الخنفوس إيلي والشخصية المشطورة في حياتك أبو الخل الذي تعشقين أنا لا أكاد آخذ منك حقاً ولا باطلاً أريد جرفاً أرمي مرساتي عليه فأجده عمقاً مرعباً إن كنت قلت يوماً إنني فهمتك فلأنني كنت ساعتئذ حماراً أنت لا تؤمنين بحب أو عاطفة

أنت تؤمنين بالأدوات التي توفر لك بضع ليرات للعيش عداها لن أكمل.

- لماذا تقسو علي بهذا الكلام؟
- أنت عزيزة علي لكن هذه حالتك أمامي عاشقة ولكن آسفة قد فطمت!!! ما هذا الهراء أرنو وأشتاق لكني بلغت مرحلة الفطام كل رجل في حياتك لا ينسيك ما قبله ولست السرداب الذي تختبئين فيه يا برنسيسة، فالمفطوم لا يحن إلى الرضاعة مطلقاً لأن له أسناناً لبنية للمضغ.
- صاير فيلسوف والله.
- من يقرأ يتعلم ومن يعش حياة عشتها يصبح فيلسوفاً.
- أجمل ما فعله جهاد الأصلع أنه اشترى هذا المنزل مفروشاً وفيه هذه المكتبة التي تأكل كتبها ولا تأكلني.
- لست الزاوية التي تهربين إليها من عشقك لأبي الخل الذي ترفضينه ولست الجسر الذي تمرين عليه لتروي عطشك. – ألا يشبع جوعك الخنفوس أفندي.
- سأستحم لنستعد للسهرة مع خنفوسي الحكي معك خسارة.

في ذلك المساء ذهبنا إلى شاليه الخنفوس إيلي أنا والبرنسيسة بعد أن أحضرت لها فستاناً لازورديا تزينه حبات الشوارفسكي كانت أكثر من فاتنة. لم تتمكن يوماً من إغرائي رغم جمالها. لكنها لم تعرف

يوماً مدى حبي وخوفي عليها. كانت تشكو عدم ثقة بالآخرين.فكان يجب أن أضع لها في حسابها مبلغاً من مال بعد توزيع البضائع على العملاء معنا. لكن لم أجد الوسيلة الآمنة لذلك. أحياناً كنت أسمع صوت تفكيرها عند صمتها وفرقة البيتلز تغني...

ليلى البرنسيسة امرأة ذكية جداً رغم وقوعها في حضن جهاد الأصلع وحضن إيلي ومعرفتها بي، ما قامت به من تأمين ضمانات تحميها لم تفعله سحر التي كانت تحتاج إلى مصاريف كبيرة كي تبقى في قصر كبير ورثته من زوج تركه لها ربما إرضاء لذمته. لم توجه البرنسيسة أي اعتراض إلى إيلي وهو يقبلها أمامي في تلك الليلة. فيما مضى كانت تعترض احتراماً لي، يبدو أنها تريد إغاظتي ولم أكن لأتركها تشعر أني سأتزوجها يوماً ما. ولدت غير مؤهل للزواج.

عشت مع البرنسيسة سنوات لست أحسبها إلا سنوات من عمر جديد كانت ملأى بلحظات جميلة، وأخرى باغتنا فيها الحزن والفراق، ولكنه الفراق المعاتب لتتعلم أن الحياة لا تغمرها السعادة دائماً. كنت أرى وجودنا معاً وجود طبال مع راقصة أو وجود مرافق لأميرة من عصر آخر وجود قواد مع امرأة هي صفقة رابحة في الحياة.

في ليالي التعاسة كنت أمضي وقتي بالقراءة فمكتبة البرنسيسة تعج بالكتب وأصبحت زاويتي في بيتها هي كهفي الذي يجعلني في زاوية أخرى من العالم أول كتاب قرأته في بيت البرنسيسة هو الإنسان ذلك المجهول لألكسيس كاريل صعقني هذا الرجل....

صممت على بيع شحنة الجبن الآتية من هولندا كما شحنة الأبقار وأنهي بعدها هذا العمل الذي أتعبني لكن خوفي كان على الأموال في بيت البرنسيسة ولا بد من مساعدتي لوضعها في بنك يحميني. لم أكن أعي أن أبا الزيك يختلس من البضائع ويأخذ حصة أخرى غير تلك التي أعطيه إياها. إلا عندما اشترى بيتاً في شارع عزمي قرب قهوة التوب، ما أنساني اختلاسه لبعض كميات الجبن هو مارلين ورؤيتها تلعب في الصالون الكبير فرحة بمساحة غرفة أكبر من تلك الموجودة في بيت حارة الرملة. ركضها نحوي عند زيارتي أبا الزيك كان ينسيني تجهم أبي الزيك. فهو لا يحب زيارة أي رجل لبيته مازحته غير مرة نحن أخوة يا رجل. فيقول: الأخ لا يتكرر وقبضة يد موجعة من أخيك تعلمك أن الحياة غدارة فلا تأمن على أخيك فيها.

حرت كيف أتصرف مع أبي الزيك أحبه ولا أحبه تعلقت بمارلين تعلقي بملاكي خديجة. فأصبحت أنتظر مرض أبي الزيك انتظار السمكة للعودة إلى الماء. لا أؤمن أن البنات همّ رغم أنني لم أنجب. لكن مارلين قطعة من قلبي بها أتحدى العالم. عندما قرأت رواية البؤساء لفيكتور هوغو أول مرة أحسست أنني جان فالجان وهي كوزيت. إلا أن والدها أبا الزيك هو البحار الأكثر شجاعة من عبدو الذي رمى أخاه في البئر وهرب.

إنها الرابعة بعد الظهر، إبريق الشاي يغلي والبخار يتصاعد بقوة من فتحة صغيرة هي الثقب الذي يتنفس منه الإبريق وهو على نار هادئة

تأملته وشعرت أنني مثقل بنار قوية ستحرق الأخضر واليابس قريباً. لقد ذهب أبو الزيك إلى بيته الليلة وتركني في غرفته وحدي. تناولت الراديو وصوبت الإبرة نحو تردد إذاعة مونتي كارلو، ربما صوت أم كلثوم يبعث الدفء في القلب المتجمد. إذ لم يكن مفترضاً أن أكون في هذا المكان بعد أن ولدت في بيت فريدة الزنبق.

أشتاق إليها تلك المرأة التي لم أجد مثلها حتى الآن. وخربة داوود مثل الكثير من القرى في عكار خارج المنظومة الضيقة التي أعيشها هنا في هذه المدينة التي يتناحر أهلها فيها بصمت مع الفدائيين المتكاثرين. ربما! جهاد الأصلع كان سريع البطش بمن يهين وجوده أو يهدد مصالحه، لكنه كان صاحب الأراضي شئنا أو أبينا. أما هنا فلم أعد أفهم حتى صديقي أبا الزيك الذي يشتت ذهني أحياناً وهو يحاول سلب بعض النتف.

كان الطلب على السلاح يشتد في باب التبانة كلما اشتد تدفق الفدائيين سراً إلى المخيمات. ازداد الطلب على الأسلحة التي أشحنها بسرية تامة مع الشاي في صناديق يوضبها أصحابها بورق الألمنيوم أسفل الصناديق، وكنا نمر ليلاً بسلام بعد الكثير من ظروف المحبة التي نضعها في جيوب القبضايات. إلا أن ما يؤرّقني هو كيف أضع كمية الأموال في البنك دون أن أثير انتباهاً لا بد من استثمار مشروع ما رغم تجارة الشاي التي بدأت بقوة مع كل شحنة أبيعها بالقليل. إلا أنها تغطي ما أريد تغطيته بشكل مرضٍ.

لم أستطع مقاومة النوم وأم كلثوم تغني يا مسهرني ورائحة الشاي والكاز تعم الغرفة وبو جعفر يحرك أذنيه وقد أصابه الطرب معي. إلا أنه فيما أصابه القلق وبدأ يتمسح بباب الغرفة. لم أعد أتحكم في جفوني التي تراخت وأطبقت بعضها على بعض قاومت النعاس وزحفت نحو بابور الكاز وأطفأته بارتخاء كأني شربت ظرف مهدىء عن البرنسيسة. غفوت بعمق ورائحة الكاز تلوث أنفي الذي بدأ يتفلفل مثل الأنف الذي اشتم العطوس لم أفهم يوماً تلك المادة التي كان الرجال يضعونها في أنوفهم في المنزول ويبدأون بالعطاس. خبيثة هي تلك الأفكار التي كانت تراودني آنذاك كم تمنيت لو أطحن القريص الجاف وأخلطه مع مطحون التبغ. إلا أني لم أفعل ذلك يوماً.

راح بو جعفر يمسح خدي بوجهه لأستيقظ على دخان ملأ الغرفة ظننت للوهلة الأولى أنني لم أطفىء البابور والحريق بدأ. إلا أن المعركة الحامية بين الفدائيين والجيش لم تترك المرفأ بخير بل أصابته القذائف بحريق في المستودعات أتى على البضائع التي كانت فيه. إلا أن روزالينا لم تصل الحمدلله ويبدو أن تأخرها كان قدرياً كي لا تحترق بضاعتي. وقفت أشاهد عمال الإطفائيات وأبو الزيك معهم متجاوزاً كل المخاطر متوهجاً في ضباب أسود يغمره أحياناً وأحياناً أخرى يخرج منه متشحاً ببقع سوداء إلى أن تم إطفاء الحريق.

- ما أبرد دمك يا عبدو كيف تقف دون مساعدتي؟!.
- وبماذا أساعدك الحمدلله روزالينا تأخرت في الوصول.

- يخرب بيتك ما بتخجل إنت ما البضاعة لتجار آخرين يا أخي اشعر بغيرك.
- تركت لك الإحساس بالآخرين.
- أناني أنت يا رجل.
- لا مصدوم من هالأوضاع النحس إيد وحدة ما بتصفق.
- شو هالمثل الخنفشاري لروح أغطس كم غطسة بالبحر وأعمل دوش وروح لبيتي.
- أشتاق لمارلين سأحضر أبو جعفر معنا.
- شو هاللزقة يا ربي.
- الله يسامحك يا أبو الزيك أنا لزقة؟
- شعرت بمواء بو جعفر خلفي حملته في حضني وذيله يلتف على رقبتي، فذكرني بسهام وهي تلفظ أنفاسها وذيل زرقا على رقبتها قبل أن أرميها في البئر. رميت بو جعفر على الأرض واتجهت نحو السيارة في انتظار أبي الزيك فتبعني بو جعفر وذيله يتدلى كأنه أدرك فعلته فتحت له الباب، فصعد دون مواء وجلس في الخلف صامتاً لحظة أحسست بقبضة يدي تتكور وفكي الأسفل يشتد، فتحت النافذة ولففت سيجارة عربية أشعلتها ومججتها وتلذذت بطعم التبغ فيها راح دخانها يتباعد مؤلفاً حلقات دائرية تتلاشى. شعرت بالبرد قليلاً عاودت الدخول إلى السيارة وبو جعفر جالس في هدوء تام مدركاً أنه أغضبني.

فتحت راديو السيارة وبحثت عن شيء يلتقطه سمعي تركته على أغنية جبلية النسمة جبلية «جبليّة النسمة جبليّة والملقى الطيب طايب، ردّي الجدايل يا صبيّة وصلوا وصلوا الحبايب، جبليّة النسمة ومرتاحة وفتحت بالحب جناحها والصبيّة عند الميّة ترقص وتطير السّاحة، سألوا سألوا.. طلّوا سألوا، أهلك عنّا.. طلّوا وسألوا، والصبيّة اللي ملهيّة أخدتها النّسمة الجبليّة».

جلس أبو الزيك على المقعد قربي وهو يرمقني بنظرة غضب حيرتني لم أكلمه ولم أترك له المجال ليتكلم ضغطت على دواسة البنزين بقوة وخرجت من المرفأ مسرعاً. إلا أني توقفت في مدينة الميناء عند محل الألعاب لأشتري دمية لمارلين تركت أبا الزيك وبو جعفر في حيرة هذه المرة دون سحب مفتاح السيارة تركتها على استعداد لانطلاقة أخرى. استوقفتني دمية تشبه طاهية مطبخ على شكل فأرة وهيئة إنسان ترتدي فستاناً رمادياً مع مريول مطبخ لونه أحمر وملعقة خشبية وعند ضغط الزر تتحرك بكل الاتجاهات رافعة ملعقتها مستعدة للضرب بها. طلبت من صاحبة المحل وضعها في علبة هدية خاصة. دفعت ثمنها واتجهت نحو السيارة بعد أن وضعت الهدية قرب بو جعفر الذي التزم بالسكون ولم يتحرك.

لم أشك قط في أن أبا الزيك أدرك أن محرك ذكرياتي يشتغل رغم أنه لا يعلم تفاصيلها إلا بعض أشياء صغيرة جداً. لكنه يدرك أن ثورة

الحزن داخلي تفور بقي صامتاً وصمته هذا استفزني حقيقة. كان النور خافتاً في باحة بناية أبي الزيك سبقنا بو جعفر إلى الطابق الأول بينما أبو الزيك يصعد الدرج بهدوء وأنا خلفه خلع حذاءه ووضعه في زاوية قرب الباب في الخارج طرق الباب ففتحت مارلين وهي ابنة السنوات القليلة التي جعلتها تمشي آنذاك.

رمت مارلين نفسها في حضني رغم أني خلف والدها وأدركت أن الهدية في انتظارها مثل عادتي كل مرة لزيارتها.

عمو عبدو ها !!!!!

- ما شاء الله يا أبو الزيك شو هالبنت.
- انبسط واعظنا البنت صارت بتركض عليك ونسيت اللي خلفها.
- هههههه هي بتفهم مش متل والدها مكشر كل الطريق.
- سألتك بالله أنا مكشر أو إنت اللي كنت من نكزة دبوس بتنفجر يا رجل بو جعفر ما استرجى يقول مياو.
- ضحكت من قلبي، لا أدري ما تفعله بي مارلين. هي ابنتي التي ما أنجبتها، ربما فريدة أحبتني كما أحب مارلين رغم أن الفرق كبير بيننا، ولكن لمارلين ملائكية لا تتشابه مع شياطيني.

فتحت مارلين الهدية وأخرجت لعبتها فضغطت على زرها الخلفي وبدأت تمشي وراء بو جعفر رافعة ملعقتها خلفه ومارلين تضحك شعرت أن في الدنيا مارلين وأنا فقط.

- خواجة عبدو ما خلصنا لعب مع مارلين ميت من الجوع أنا أدخل الحمام اغسل يديك كي أحضر صينية الأكل بعرفك بتحب قعدة الأرض.

دخلت الحمام وبكيت غسلت وجهي وحاولت الهدوء قدر المستطاع وخرجت مستعداً لإكمال جولة المرح مع مارلين التي جلست في حضني لتأكل معي كعادتها عندما أزور أبا الزيك.

- كوسى ببرغل وبندورة غير شكل وفحل بصل من إيد أخوك أبو الزيك.

ضحكت تذكرت فحل البصل والبرنسيسة عندما التقيتها أول مرة، فقلت لأبو الزيك شو قصة فحل البصل والنسوان.

دق فحل البصل بينقصوا معلمية البكوات يا خي بقشروا بالسكينة نحن مندقوا دمنا حامي مش بارد.

تناولت الطعام ومارلين في حضني تأكل الكوسى معي وتضم دميتها ومن ثم تناولت الشاي وتركت أبا الزيك ينام قليلاً. ودعتني مارلين بقبلاتها وصوتها الأميري وكلامها المتلعثم باي عمو عبدو يسكن قلبي لو كنت أستطيع ما تركتها لأخذتها معي. لكن أخاك مجبر لا بطل.

كانت عادة البرنسيسة في المساء هي الاستعداد لسهرة مع إيلي هاربة من صقيع فراش غالباً لا تجدني فيه. أدرك أنها تحب ذاك المتعجرف أبا الخل، ولكن أنا أيضاً لا أحبها. إنما أمنحها عاطفة

تحتاج إليها لتبقى على وعي مع مصالحنا التي تهتم بها بمعرفتها الخاصة. كنت مدركاً أنها لن تفر مع أبي الخل قبل أن تنتهي قصته مع الفدائيين رغم تباعدهما. إلا أنها كانت تعرف أخباره مني وكنت على استعداد أن تلتقيه لكنها كانت ترفض مخافة أن تضعف وتبقى معه في غرفته التي يجتمع فيها مع الفدائيين سراً في باب التبانة. أقله لن تشك في وفائي لها رغم أني على استعداد أن أنهي حياتها إن حاولت خداعي بوسائل شتى.

نقرت على الباب لأني لم أشأ إزعاجها اليوم بمفتاحي ودخولي بمفردي. أحببت أن أستكمل طقوس مارلين معها رغم الفارق بينهما إلا أن البرنسيسة صغيرتي أيضاً. تنهدت طويلاً وأنا أنتظرها أمام الباب لتفتح متفحصاً لماذا لم أفعل هذا ولا أفتح بمفتاحي وأدخل. فتحت لي الباب عارية فخيمت الدهشة على ملامحي.

عذرًا يبدو أني أخطأت البيت، عذراً سيدتي أنت جميلة ولكني ولكني لا أحب النساء العاريات.

استدرت محاولاً نزول الدرج فالتقطتني وسحبتني إلى الداخل ضاحكة ساخرة مني.

- ما بك يا عبدو هل ترى جسدي للمرة الأولى؟
- كل مرة أرى جسدك للمرة الأولى أنت إلهة فرعونية يا ليلى.

لا أعرف كيف تعشق إلهة حيواناً مثل أبي الخل؟

تكدرت البرنسيسة وهبطت معالم الحزن عليها. جلست على

الكنبة متكورة ونهداها يلامسان ركبتيها مما ترك شعاع ما تبقى ينبلج بجمال أنثوي غطى على حزنها. مسحت بيدي على ظهرها واعتذرت منها. فمالت مع لمسات كفي متوثبة متشوقة لليلة تانتراوية توحدنا لا نستفيق منها إلا عصراً.

تركتها على الكنبة لأحضر زيوتي التي أخلطها خصوصاً على كيفي أشعلت شموعي السوداء هذه الليلة وهي تراقبني مثل بو جعفر وضعت شرشفاً سميكاً على الأرض ونثرت عليه الصابون المبروش بعطر الزنبق وبلون زهري ناعم حملتها بين يدي ووضعتها برقة على الشرشف فنامت على بطنها تاركة لي ظهرها العاجي لأستفيد من جمع حواسها في قبضة يدي التي بدأت تتحسس كل نقطة من جسدها الحزين والمشتاق إلى ذاك الأحمق، ربما أنا الأحمق ولست أدري كل هذا الجمال بين يدي وأتركها لأبي الخل ولخنفوس همه شهوة تزول وأنا همي أنفاسها..

وضعت في فمي بذور الشمّر وتركت لصوتي العزف على أوتارها بحيوية امرأة التقطت ذبذبات حزني حزنها فاشتعل الأسود من شموع مع لهب أحمر ما انطفأ إلا مع غليون خرجت أحرق التبغ فيه على نافذة مفتوحة، أمامها بحر نام أيضاً مثل البرنسيسة بعد موج تكسر على جسوري الصامدة في وجه الريح العاتية.

الجنس يشبه ثمرة قد تأكلها ناضجة وقد تأكلها بالعسل والعبثي

من يبحث فلا يجد وأنا وجدت الحقيقة لا الجسد العاطفي. تمنيت لو أدركت قيمة وجودي معها وعمق تأثيرها فيّ مذ عرفتها. انعكس ظلام البحر على ظلمة أيامي الهادرة وبدا لي البحر توأمي تساءلت في نفسي ماذا لو لعب القدر بمارلين ووضعها مكان البرنسيسة؟

ماذا لو وقعت فريسة حب يجعلها قطة تموء أمام أحمق ما في الحياة. شعرت أني بحاجة إلى فنجان قهوة مر. إلا أن بو جعفر لم ينم يبدو أن ليلتي التانتراوية جعلته يتحفز لقطة يشتاق إليها. التقطته وضممته إلى صدري بدا لي حزيناً وهو يتمسح بي تاركاً ذيله يتدلى مخافة أن يغضبني كما فعل في المرة السابقة دخلنا المطبخ معاً. أحضرت له صحن الحليب ووضعته أمامه. وبدأت بإعداد القهوة ببطء على نار هادئة لأستمتع برائحتها قبل أن أشربها. أفكار ضبابية مرت بي وبخار القهوة يتصاعد. دفع بو جعفر صحن الحليب بينما يمر بجانبه بعدما أنهى أكله، فأيقظني من تفكيري أبو الزيك الذي ما جعلني أرى زوجته ولا مرة ولا يخبرني عن تفاصيل حياته إلا ما أعرفه مصادفة.

ارتشفت قهوتي وأنا أتامل البرنسيسة عارية كموجة هادئة تتنفس عطر ليلة حافلة بالشعور الروحي الذي أمدني بقوة داخلية تبقيني على استعداد للقيام بأي شيء من أجل مارلين التي بدأت أحبها حباً لا يوصف. حب لا أفهمه هل يعقل لرجل مثلي أن يحب طفلة بريئة مثلها؟ من يصدق أن حبي لها هو حب أبوي محض لا علاقة له بشهوة أو رغبة. لا أحب الزواج ولا الإنجاب ولست على استعداد للقيام بذلك.

استندت إلى وسادة قرب بو جعفر وضعت يدي على ظهره فراحت عيناه اللامعتان تبحثان عن ملامح قطة أو ربما تهيأ لي ذلك لا أعرف. إلا أني غفوت بعمق شديد استيقظت بعده على عطر البرنسيسة وهي تمسح بشفتيها جبيني

- ما هذه قبلات أخوية يا ليلى؟
- أخوية بعد ليلة تانتراوية أشعلتني فيها وما أطفأتني؟
- من يسمعك يصدق أنت ثورجية مثل أبي الخل حبيبك.
- عبكرة الصبح لماذا تذكر أبو الخل دائماً وأنا أحاول أن أنساه؟
- أحاول تشخيص معالم قوتك لأستكشف نقاط ضعفك نحوه، لا أعرفه جيداً ولا يهمني أن أعرفه لأنه محض اهتمامك به وجوده حياً فقط، وربما هذا سبب ضياعك أنت أشبه بقاطرة يا برنسيسة تجرين خلفك الرجال ويجرك أبوالخل بلحظة خلفه.
- هو الأرض الرخوة التي أخشى منها على نفسي، بل أخشى أن أخرج من أرضه مثقلة بالجروح.
- متيقن بذلك رغم أني أحاول تأمين الأرض الآمنة لك لتكوني مع هذا الغبي بأمان.

استدارت تاركة مؤخرتها تهتز تعبيراً عن رفض ما أقوله تبعتها لأعتذر منها. أحسست أنها ستبكي إلا أنها أغلقت باب غرفتها بشدة قلت لها بصوت عال:

أعتذر برنسيسة لكني أخاف عليك جداً وأنت تدركين أن محبتي لك أقوى من أي حب وصل إلى أعماق قلبك. كان بو جعفر بين قدمي حملته فأرخى ذيله محاولاً تهدئتي وقبضة يدي تتكور فضربتها بجدار غرفة البرنسيسة وصرخت. فتحت الباب وركضت نحوي لتمسك بقبضة يدي التي بدأت تنزف إلا أني استرخيت ورميت بو جعفر عن يدي الأخرى. مستسلماً للبرنسيسة التي بدأت تعالجها دون إحساس مني. كنت أشعر بقلب فريدة وسحر وهي تلف يدي بقطعة من شاش بعد مسحها وتطهيرها دون إحساس مني بأي وجع فيها.

لماذا تستفزينني يا ليلى؟

- هههههه ما زلت الصديق القريب الذي أتمنى أن يتعلم منه أبو الخل.
- لا يمكنك الاحتفاظ برجلين تحبين واحداً وتلمسين آخر. الحب كائن حي يحيا ويموت كسائر الحيوات الأخرى يحتاج إلى أوكسجين، بروتين، أسمدة كيمياوية وعضوية يحتاج إلى نوركي يحيا وبخلافهما يموت أو يبقى حفرة في القلب لا يملأها الآخرون. الحب كالجدري مرض يعدي الآخر ويترك بثوراً على وجهه مدى الحياة وربما العمى.
- ربما أنا عمياء بحبي لأبي الخل وربما الوعي معك يجعلني أحتاج إلى اللجوء إليك يا عبدو. أبو الخل مخلوق عبثي مع الفدائيين ولا أعرف متى يموت.

الحب لا يرتبط بنوعية المخلوق أو سلوكه أو جنسه بل بتلك السلسلة من تناسق جينات الرغبة. إنه انسجام خارق مع حاجات الذات هو ذا الحب. أما العشق فهو تمازج جيني ينتج مخلوقاً ثالثاً بعوامل مشتركة في الشخصين لا يترك آثاراً لأنه أثر لا يزول.

- من أين تعلمت هذا يا عبدو؟
- تجربة تطبيقية في حياة درجت فيها وعشتها حتى الآن. الحب والعشق لا يعنيان أحياناً أما الجنس فهو إفراز طبيعي لتزاوجهما. إنما يعني حاجات جينية في كروموسومات الآخر. إنه التناظر الضوئي بين النبات والنور إن غاب النور مات الزرع وإن غاب الزرع تيتم النور.
- أنت لا تحسن الاحتفاظ بالنساء رغم أنك مختلف.
- نعم لأني أشعر بالوحدة القاتلة.
- وأنا معك؟
- أنت روحك لأبي الخل هل تظنين أني لا أعرف أو لا أشعر أن كل خلية بك تصرخ أبو الخل. إلا أنك الجسد الذي تنبع الأحاسيس الطيبة منه تجاهي فتغمرني بشهده. الجسد العاطفي يمنح جنساً يشبه الشمبانيا أو السجائر الفاخرة.

وضعت رأسها على ركبتي وبدأت بالبكاء، تركتها تبكي وأنا أمسح رأسها بيدي الأخرى تاركاً لانفعالاتها ترجمة حبها لأبي الخل الذي بدأ يغيظني ويجعلني أفكر فعلاً في إرسال روحه إلى بارئها.

استحمي سأدخل المكتبة لأقرأ قليلاً وأريح أعصابي.

- لن تذهب إلى أبي الخل؟
- لا لن أذهب إلى أبي الخل اليوم ليكسر رأسه، ستكون ليلتي في مكتبتي اليوم مع بو جعفر وسأدخن غليون النتن أبي ملحم، مع كتابي المفضل الإنسان ذلك المجهول.
- تقرأه كثيراً لماذا؟
- لأنه يتفلسف لكن طبعاً ليس مثل الدلوع إيلي. يقول أليكسس كاريل: «لست فيلسوفاً، ولكنني رجل علم فقط، قضيت القسم الأكبر من حياتي في المعمل أدرس الكائنات الحية، والقسم الباقي في العالم الفسيح أراقب بني الإنسان، وأحاول أن أفهمهم» وأنا أقول كما يقول: لست واعظاً ولكنني التقطت تفاحة وقضيت القسم الأكبر من حياتي في بئر الحياة أراقب الأبقار والحيوانات والقسم الباقي ألعب مع البشر وأحاول البحث عن الإنسان الموجود بي ولم أجده يا برنسيسة.
- تلألأت عينا ليلى وألقت شعرها الأسود الطويل على ظهرها بشموخ فرس ثم تنهدت وقالت: سأجلب لك قهوة أو شو رأيك بليلة تانتراوية؟ لم تنتظر جوابي ووضعت يدها على صدرها وباطن يدها الأخرى في كفي وعضت شفتها السفلى مستفزة رجولتي. إلا أني كنت أشعر بطعنة في عمري كله.

- السكوت علامة الرضى.
- لا ليلى أنا بحاجة إلى الراحة وإلى المكتبة ارتاحي اليوم ولا تخرجي ربما أحتاج إليك فعلاً.
- فيلم جيتار الحب وصل إلى سينما المتروبولي. حضرناه أنا وإيلي ما رأيك بهالعروس تأخدك بدون ما تبوس لتشوف حبيبة إيلي الجاموس هههههه.
- أبو الذهب وعقلوا تنك هههههه.
- رحت شفتو يا عبدو من دوني؟

كنت خلفك وهل أترك عروس متل الدرة مع إيلي المنحوس بدون حراسة، كنت جالساً آخر صف من المقاعد، تعرفين معي كاسيت موسيقى عمر خورشيد ربما يريحني هذا الغيتاراتي.

- هذا يعني أنك سمعت أغنية لالا ولالا.
- غير حبيبي لا ولا وألف لا لالا لا.. يا بلد الحبايب يا لا.. لالاولالا.. يا روح للغايب يا لا.
- فيلم موتني الضحك تعجبني صباح هي وبتغني شحرورة لبنان.
- فيلم جميل جداً.

مرت الليلة على خير. استجمعت أفكاري وخرجت من واقع إلى عالم آخر مكتبة شاء القدر أن تكون لي في زاوية أخرج منها إلى عالم لا أنتمي إليه لكني أدخله خلسة عن زمن رمى بي في بيت التبان. أصبحت

أنا والبرنسيسة جزءاً لا يتجزأ بعضه عن بعض. كانت تخطط لتستقر مع أبي الخل وأخطط لأكمل مشوار الألف ميل الذي بدأته مع فريدة في بيت الزنبق ولا أعرف إلى أين سأصل كلما خرجت من دائرة أدخل في دائرة أخرى. كانت تلك الليلة من الليالي التي لا تنسى. بو جعفر يغفو أمامي على الكنبة البنية اللون ودموع الشموع تنحت لي أشكالاً تجعل عتمتي حافلة بالذكريات، والمكتبة تبعث على الفضول لمعرفة محتويات الكتب الموجودة فيها. وكلما دخلت إليها أتمنى أن لا أخرج إلا لأعود إلى شيخ التبان بعتمته العابقة بولادتي.

وجدت كتاب أصول الدافع الجنسي لكولن ولسون.

ذبذبات من العالم المنسي التقطتها مداراتي من زمن فريدة وسحر وخديجة وسهام والبرنسيسة ومارلين طفلتي التي أعرف ما الذي سيرسمه القدر لها في هذه الحياة. أحسست بصوت داخلي يقول لي حذار يا عبدو لا تقترب من مارلين إلا أن إحساساً داخلياً يصيبني بالجنون كلما فكرت فيه. وفي قصة جان فالجان أشعر أني عراب هذه البنت التي تهاجمني نوبات اشتياق إليها.

خرجت صباحاً تاركاً البرنسيسة نائمة. كتبت لها على ورقة صغيرة «أنا ذاهب إلى أبي الخل نلتقي عند الخنفوس إيلي مساء» ووضعتها قرب زهرتها إيريكا المتشحة بلون زهري ينضح بالحياة لطالما مضيت حيث أريد دون أن أشعر بضرورة معرفتهم أني أذهب إلى هذه القطة الشرسة أحياناً.

في طريقي إلى أبي الخل متجهاً من ميناء طرابلس إلى شارع عزمي التقيت الكثير من المسلحين وأحسست أن الأوضاع الأمنية تتأزم وتجارة الأسلحة تنبىء بالكثير من الربح هذه الفترة يجب تكثيف الاهتمام بطلب الأسلحة بشكل جدي تابعت مسيري مشياً على الأقدام وصولاً إلى الزاهرية قبل مقبرة الغرباء تماماً. حيث يسكن أبوالخل خلف منشرة للأخشاب. رائحة الخشب تثير شجوني تمنيت لو أستطيع الحصول على عطر من رائحة الخشب. كانت عيون أتباعه تراقبني بوحشية قبل دخولي بيته بخطوات أحدهم حاول تفتيشي فقلت له الواعظ قبل أن يلمسني ذاك المقزز. فتركني أدخل مصحوباً بنظرة شرسة منه كاد يفترسني ابن الحرام.

فتح الباب أبو الخل وشعره يتدلى على كتفيه وشفتاه مصبوغتان بلون بني من تبغ أدمنه وضع في يدي مجسم آر بي جي قائلاً: أريد ألف قطعة منه.

- مجنون أبو الخل.
- طبيعي مجنون الرجل الذي يترك حبيبته بين يدي واعظ مثلك مجنون أكيد.
- كانت مع الأصلع ما خفت عليها خايف عليها مني؟
- الأصلع تزوجها زواج آدم وحواء زواجاً غير رسمي لكنه أحضر الشيخ وقرأ الفاتحة.
- عذر أقبح من ذنب عن أي شيخ تتكلم الرجل مات وتركها

بدون ورقة حتى تثبت أنها زوجته وإن فتحت فمها أنت وأنا نعرف ما الذي سيحدث لها.

- لا أريد الكلام بهذا الموضوع الآن هل تستطيع تأمين الألف قطعة؟
- أفكر في الأمر لكن تسعين بالمئة طلبك موجود لكن الشحن عليك ألعب دور الوسيط بينكما ولي خمسة بالمئة.
- ليش بقى أعلنت التوبة واعظنا؟
- بلا تمسخر أبو الخل الموضوع بخلاصة شديدة ليش المخاطرة وأوضاع الفدائيين ما باين لها مستقر ضبابهم بيعمي.
- تفضل ترويقة همشرية بيض مسلوق ولبنة وخيار أو ما بيعجبك ترويقتنا يا بن عكار؟
- ليش عالمسخرة عبكرة الصبح يبدو أنك مشتاق للبرنسيسة جوز تيوس الله بلاني بكما الهبلة بتحبك على شو ما فاهم لو أمير على ولاية عثمانية أو شي رئيس جمهورية كنا ما استغربنا.
- إذا بتمد يدك عليها بقتلك عبدو.
- اسمع أبو الخل البنت بتعشقك بجنون فكر تزوجها عيب عليك كن شهماً.
- لا يا عيني أنا قابع مع الفدائيين هي تركتني وراحت للأصلع تتحمل نتيجة قرارها.

- لا تعليق على الموضوع. ما بدي اتسمم معك بيض مسلوق.

تركته وخرجت من القبو الذي يركن فيه متوجساً من فكرة طلبه ألف قطعة آر بي جي ما الذي يريده بألف قطعة؟

ركبت سيارة أجرة التقطتني من مفرق مستشفى شاهين في حي الزاهرية حيث تقف سيارتي قرب مقهى التوب في شارع عزمي دخلتها وأحسست أن روحي عادت إلي وأن عبدو في هذه الساعة على البغل الأرقش متوجه إلى أبي الزيك لأطمئن إلى شحنة الشاي التي وصلت ويتم تفريغها ووضعها في المستودعات. تركت بغلي الأرقش متوقفاً دون عشب يرعاه بعد أن وصلت إلى المرفأ، وباشرت إنهاء عملية إخراج شحنة الشاي من المستودعات وكان من الضروري التوجه فوراً إلى القلمون حيث مستودعات الخنفوس إيلي لأضع الشاي في أمان بين يديه.

توجهت إلى الرصيف رقم ٢ حيث أبو الزيك يقوم بما يلزم لشحنة الشاي. كان متأنقاً اليوم على غير عادته. قبلت كتفه وهو يعطي الأوامر لنقل البضائع إلى المستودعات متسائلاً متى ستنتهي؟

- نصف ساعة بالكتير بتكون الصناديق بالشحن ما عليك إلا تسحب وتمشي يا عبدو.
- أعتقد أنك متأهب للتخلص مني اليوم؟
- هكذا أنت دائماً، تفكر في السوء بأخيك أبي الزيك أم

مارلين مريضة وصحتها سيئة جداً. لا تتحسن أبداً وصفوا لي طبيب عربي بمخيم نهار البارد ضروري اخذها لعنده.

- مجنون أنت مؤكد تفضل باخدك أنا بسيارتي.
- لا أبداً شاحنتك جاهزة لازم تخرج اليوم من البور شحنة الشاي.
- خذ سيارتي بغلي الأرقش ما عاجبك؟ سرعتها حلوة بألف بغل لا تخف وأنا أتنقل بتاكسيات بعد أن أنتهي من تفريغ الشحنة بالقلمون، لكن أين ستبقى مارلين؟

سنأخذها معنا.

أعطيت أبا الزيك مفاتيح السيارة ومئة ليرة ورافقته حيث بغلي الأرقش، ونصحته بأخذها إلى مستشفى بدل طبيب عربي تركته وعدت إلى البور لأكمل سحب الشحنة وتفريغها في القلمون. في العادة خلال نصف ساعة أصل إلى مستودع القلمون فأجد إيلي الخنفوس في انتظاري بكثير من اللطف ولا أخرج من المستودعات إلا وبصيص السعادة بادٍ على وجهه.

أدركت أن البرنسيسة وصلت عند إيلي واستطاعت وضعه في قفصها يا لها من قنفذ أحمر جميل. لا بد أنها تشعر بقوة سحرها بين يدي هذا المتغطرس.

لم يظهر العمال أي تأفف من تفريغ الشحنة، والأسلحة داخل الجيوب السرية لصناديق الشاي يخرجونها ليلاً ليعاد تحميل صناديق

الشاي الأحمر لتوزيعها على التجار. ووميض المساء يحيي بريق الحياة في نفسي التي عادت إلى أوج مجدها مع هذه الشحنة.

أحببت هذه البلدة ذات البحر الهادر وقد كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة بقليل. كلاب الطريق بدأت تنبح والسير حتى شاليه الخنفوس إيلي لا يخلو من المخاطر، عبرت ساحة البلدة وأكملت سيراً على الأقدام متوغلاً في شارع يمتد دون إنارة وخيالات الأموات تلاحقني الأصلع خلفي والحاج فؤاد عن يميني وسهام تضحك وحجلها يتدلى كمن تغريني بالتوقف معها هنا لحظات. لم أفهم دوافع رغبتها في الرجال ولا تتبعها أمري الغبية أوصلت نفسها إلى البئر.

لاح لي ياسين حارس إيلي الخنفوس الأسود أو الأحرى كلب الحراسة بشعره الأشعث القاتم وجثته الضخمة. أحياناً يخيل إلي أنه حارس باب جهنم. فتح لي الباب عند رؤيتي وقال لي: البيك بانتظارك. لم أفهم ما قصة حرفي الباء والكاف عند الفقراء ما بها كلمة الأستاذ أو الخواجة مثلاً. اقتربت من البرنسيسة لأقبلها قبلة لقاء ودودة صرخت بي قبل أن يصل ثغري إلى خدها. ابتعد أيها الغجري أنت تفسد عطري. أضحك كلامها الخنفوس إيلي ولم أظهر أي ردة فعل على ذلك تركتهما يجلسان إلى الطاولة وتوجهت نحو البار لأسكب القليل من الشمبانيا. قال:

- غداً توزع شحنة الشاي على التجار، لا تهتم والأسلحة أيضاً

وثمن الشحنة سأضعه لك في بنك جمال بيروت باسمك. فضلاً عن ذلك لا بد أن تتعلم لعب الكاراتيه. قريباً سيصل شاب ألماني غير شكل إلى لبنان. سيعلمك الكاراتيه مع مجموعة من الشبان في المستودعات عندي ما رأيك؟

- موافق طبعاً لكن سآتي مع أبي الزيك أريده أن يتعلم معي أحياناً تهاجمه كلاب البحر.
- يعني خلصتوا مشاريعكم وأنا أين من كل هذا؟
- نسبتك محفوظة أيضاً في البنك وباسمك وفوقها حبة مسك وقبلاتي.
- أنا متعب قليلاً يومي كان حافلاً اليوم.
- يعطيك العافية عبدو والكسارات اعتبرتهم وصلوا ما فيني على زعل البرنسيسة أبداً.

تكورت قبضة كفي وتوتر فكي الأسفل وحاولت ضبط نفسي مظهراً ابتسامة كرتونية مصطنعة، طبعاً هي تشعر بلعناتي عليها وعليه وقد أظهرت البرنسيسة وقاحة أمامي بما يكفي عندما تركت يده تداعب ظهرها العاري. أنهت قبلتها بريجيت باردو وأنا أتأملهما محافظاً على هدوئي كي لا أعكر صفو نجاح وصول الشحنة وتوزيعها.

بالإضافة إلى ذلك، قد حل مشكلة وضع المال باسمي في بنك جمال بيروت. هكذا أستطيع التفرد نوعاً ما والإحساس بالأمان.

كان إيلي الخنفوس يمتلك موقعاً اجتماعياً مهماً كرجل أعمال

كثير السفر أحياناً، واهتمامه بالبرنسيسة محض تغيير للإبقاء على علاقته بي لأني خريطته الشمالية في عكار وطرابلس معاً رغم أني توقفت عن إرسال الجبن إلى خربة التين في سوريا، وحده النهر الكبير يشهد على رحلتي الأولى في الألف حصان التي لا أنساها أبداً وغابات كرمسباط وفنيدق ووادي جهنم، وكيف أنسى السير بمحاذاة وادي شدرا على ظهر الجمال والبارود ينقصه شعلة نار فقط لتنفجر الجرار الملفوفة بسجاد عكاري وحصر قش لا بد من توزيع الشاي مرة أخرى في عكار.

أنا متعب جداً اليوم وسيارتي مع أبي الزيك، ما رأيك أن توصلنا أنت اليوم؟

- نعم، لأني سأنطلق فجراً إلى بيروت وستنطلق معي أنت والبرنسيسة لفتح حساب لكما في البنك.

قالت البرنسيسة وهي تضحك، ننام هنا ولماذا التعب، فرمقتها غاضباً وقلت لها يجب أن تستحمي وترتاحي وتنطلقي إلى بيروت مرتاحة لا عليك أمر إلى بيت أبي الزيك صباحاً وأحضر السيارة ونلتقي في بنك جمال بيروت مع إيلي.

- كما تشاء عبدو.
- تركنا الشاليه الذي يتألف من غرفتين وبار وزجاج شفاف يفصله عن البحر نحو بارجة إيلي ذات الدواليب العريضة أو الأحرى الشاليه الآخر المتنقل هذه سيارة تتسع لبقرات

فريدة لا محالة. كانت العتمة شديدة ليلتئذ والهواء القادم من نافذة سيارة إيلي يشتد كلما سار متجهاً إلى طرابلس كدت أغمض عيني. إلا أني تحديت سرعته ويده التي تلعب بظهر البرنسيسة المتكئة على كتفه في دلع ستعاقب عليه لا محالة. عليها لعناتي هذه الشقية.

- ما الأمر عبدو أنت صامت منذ انطلقنا.
- وماذا أقول وأنا العذول بينكما؟

قهقهت البرنسيسة نازعة مني استقراري النفسي بينما تابع إيلي القيادة بيد واحدة وأحسست أن شعري سيطير حتماً. ستقتلعه عواصف سرعته الغبية. يجب التفكير بعقلانية بعيداً من الغضب حتى أنهي المعاملات البنكية وأصبح قادراً على تحويل المبلغ إلى بنك آخر فيما بعد. كنت أشعر بقشعريرة وقبضة يدي تتكور وفكي ما عاد يتحرك بليونة. أرض عكار وأنا على ظهر البغل لا تشبه أرض القلمون وهذا البغل يثير عاصفة في مركبه البري هذا. وصلنا بسلام إلى شارع عزمي قرب قهوة التوب وتركت إيلي مع البرنسيسة وتوجهت إلى بيت أبي الزيك لأحضر مفتاح عربتي. وقفت قرب الباب ورائحة مارلين تسربت إلى روحي. لم أشعر بأصابعي تضغط الجرس إلا ومارلين تضمني وتصرخ عمو عبدو حملتها وشممتها وقبلتها وأبو الزيك يبتسم يا خي قول في أبي الزيك بغار البنت صارت بتحبك أكثر مني.

- هي ابنة لي أبا الزيك هذه البنت ذات سحر غريب ربما لأني أحب أباها فأحبها لمحبته.

- حتى الآن عند الخنفوس يا عبدو.
- بكرا أنا ببيروت مع البرنسيسة، بعد غد نتغدى معاً سمك مشوي عندك بالبيت ما تتعب حالك بشوي السمكات عند أم الزلوف مشتاق لمارلين. نشرب الشاي بعدها وأخبرك بكل ما حدث.
- كما تشاء خواجة عبدو المهم ما سألتني شو صار مع أختك أم مارلين.

منتغدا سوا وبتخبرني الخنفوس تحت مع البرنسيسة أراك بخير.

تعانقنا وقبلتني مارلين ونزلت من بيت أبي الزيك وشارع عزمي بمحاله المغلقة يحفظ خطواتي التي أسمعها لزمن ربما لن أعود إليه.

وصلت السيارة والخنفوس ما زال يداعب ظهر البرنسيسة. دخلت السيارة فملأت رائحة التبغ أنفي. سألني الخنفوس:

- هل من بيوت للإيجار هنا؟
- نعم، هل تحتاج إلى بيت هنا؟
- لا البيت لمدرب الكاراتيه الألماني الذي سيدربك ويدرب الشباب.
- بعد عودتي من بيروت نسأل أبا الزيك.

انطلق بسيارته إلى ميناء طرابلس ودخلنا شارع بورسعيد. وتوقفنا أمام البناية والعتمة غارقة في اسوداد لا ضوء فيه، ربما ليلتقط ذبذبات

أنثوية من ظهر البرنسيسة العاري. بلحظة يتسرب الماضي إلى النفس الأصلع عشق أصابع قدمي فريدة، وأصابع يدي خديجة والخنفوس أحب ظهر ليلى وسحر أحببت جسدها الذي يمور بالحزن وهو يتلوى تحت أصابعي. إلا سهام لم تترك للحجل استكشاف جسدها كانت تنهشه نهشاً، غريب أمر المرأة.

تركنا إيلي بعد قبلات طويلة منحها للبرنسيسة ودخلنا البيت ودمي يغلي ويدي ما زالت متكورة ضربت الجدار بقبضة يدي حتى فج الدم منها. تيبست البرنسيسة وكعادتها أحضرت المطهرات والضمادات وبو جعفر يلتف ويدور من حولنا قلقاً متوجساً دون أن يرفع ذنبه أو يلعب به. لم نتكلم قط وهي تنهي لف الضمادات، لكنها نزعت ثوبها أمامي تاركة لجسدها المرمري التخفيف عني. جلست أمامي عارية ورائحة التبغ الذي تنفثه بدأت تخدرني وتشعرني بالهدوء. صعد بو جعفر إلى حضنها وزاد من حركته على بطنها وفخذيها. حملته ووضعته على الكنبة واتجهت إلى الحمّام لتستحم بصمت. شعرت بالوجع في يدي بحثت عن محفظة المسكنات وتناولت حبة ساريدون وهو المسكن الأقوى في هذه الحالات التي باتت تتكرر معي. دخلت المكتبة وبحثت عن الغليون ذي تجويف الورد البري، حشوته بالتبغ وبدأ يتنفس همومي تناولت كتاب «قصة الإنسان» لجورج حنا، وبوجعفر على الكنبة كعادته عندما أقرأ غرقت في القراءة واسترخيت مليون سنة «فلا تلبث الذرات الحياتية أن تموت» جملة وضعتني أمام

حفنة من أموات إن كانت الذرات الحياتية التي يرمي بها البحر صنعت اليابسة والبر فمن خلق الإنسان؟ وهل ناموس التكييف الذي يحكي عنه جورج حنا هو ما جعلني أتكيف مع كل أزمنتي؟

البرنسيسة لم تعد كما كانت أيام أبي الخل ولا هي نفسها معي ولا هي نفسها مع الخنفوس معضلة هو الإنسان الذي يتغير باستمرار ما الحل لتجميد الزمن والعودة إلى أحضان فريدة؟

صرخت البرنسيسة صرخة أوصلتني بسرعة البرق إليها. إلا أني انفجرت ضاحكاً بعد أن أرعبتني. تقف على كرسي الحمام الخشبي في المطبخ مغمضة العينين عارية. والصرصور يتحرك على المغسلة أمامها. أمسكته من شاربيه وأنا أحاول تهدئتها. إلا أنها لم تفتح عينيها. بقي الصرصور يحاول الوصول إلى أصابعي لكنه كبير الحجم ومن المستحيل له النجاة مني. فتحت عينيها وعاودت الصراخ بنوبات عالية.

- اقتله عبدو اقتله.
- حاضر ست ليلى بس شوفي بيشبه الخنفوس تبعك كتير.
- انت قهرتك الخنفوس وأنا قهرتي أبو الخل.

أخذت تبكي كعادتها. لففتها بمنشفة زرقاء وحملتها إلى سريرها وضعتها كما هي تحت الغطاء الأزرق الرقيق. أوقظك فجراً لننطلق إلى بيروت أغلقت الباب عليها وعدت إلى قصة الإنسان. إلا أني ما إن بدأت أقرأ حتى استيقظت والضوء يعكس وهجه من النافذة وبو جعفر يتمسح بوجهي. الضوء يبشر بالساعة السابعة، فما من عجلة لأنظر

إلى الساعة توجهت إلى غرفة البرنسيسة أيقظتها فأخذت تتمطى مثل بوجعفر في شهر شباط انتظرتها إلى أن استيقظت تماماً.

- أنت أنثى بشرية عاشقة ومعشوقة وعذريتك في صفاء غشاء عقلك ونصاعته.
- متيقن واعظنا؟
- طبعاً عذراء اللورين، التي قادت جيوش فرنسا وهي راعية للنصر على الإنكليز كانت لا تقرأ ولا تكتب. اكتسبت عذريتها من أميتها وبراءتها لا من غشاء رقيق قرب فتحة تخرج منها الفضلات السامة تعلميها. يجب أن تطلقي العنان لمخيلتك لتلتقي أبا الخل مجدداً ولو أني أجد أن أبا الخل ليس أبا الخل الذي تعرفينه.
- رهيب أنت عبدو.
- هذه قواعد صنعت مني الإنسان الذي يقف أمامك الآن.
- معك وبك أرتاح جداً. بك أمخر عباب البحر كغواصة بحجم القارات.
- أين سمعت هذا الكلام؟
- هذا كلامي طبعاً من صاحب الواعظ أصبح فيلسوفاً.
- غير صحيح طبعاً عاجنك وخابزك يا بنت.
- من إيلي سمعته.
- اغتسلي والبسي نتكلم في الطريق.
- حاضر خواجة عبدو.

- لا خواجة ولا بك ولا بلوط عبدو فقط.
- وهكذا انطلقنا إلى بيروت والبرنسيسة قربي تتأفف من بغلي الأرقش ما عاد يعجبها وأنا أستمتع بالطريق البحري متجهاً نحو بيروت. ثمة الكثير من المسافات علينا أن نقطعها بهدوء وحذر ما دامت الحياة لا تستبدلنا بأشخاص آخرين وأن كلاً منا يلعب دوره الخاص فيها.

مدت البرنسيسة يدها إلى رقبتي وأخذت تداعبها مثلما أداعب بو جعفر. وباليد الأخرى تفتش في الراديو عن أغنية على مزاجها الصباحي. سحبت يدها عن رقبتي وجلست بشكل مستقيم مشدودة بعضها إلى بعض عندما سمعت صوت عبدالحليم يغني بأمر الحب.. افتح للهوا وسلم، بأمر الحب افتح قلبك.. أتكلم. بلاش نهرب بلاش نتعب تعالي نحب ونسلم بأمر الحب. اقتربنا من القلمون والبحر يزداد جمالاً مع الصمت وصوت عبدالحليم والبحر والبرنسيسة تزداد انكماشاً على نفسها إلى أن بدأت بالبكاء. توقفت إلى جانب الطريق قرب كشك سجائر طلبت منه أن يناولنا القهوة ومحارم وبعض العصائر التي تحبها البرنسيسة. لم تتكلم ناولتها القهوة وانتظرت إلى أن تهدأ وعاودت المسير. عند وصولي إلى جونيه توقفت أمام صالون للتجميل وطلبت منها النزول لتضع القليل من المساحيق بعد نوبة بكاء أتلفت الكحل في عينيها.

انتظرتها ساعةً وكدت أنام مرات إلا أني كنت أتمشى قليلاً وأعود إلى السيارة. أدهشتني إطلالتها يا لجمال هذه البنت فرعونية السمات لا أعرف كيف تنازل عنها أبو الخل، يقاتل على جبهات من أجل القضية الفلسطينية، ويترك الجبهة الأهم في حياته بين يدي الأصلع وإيلي ويدي أنا أيضاً. في حين راحت البرنسيسة تتمايل وعيناي تلاحقانها دخلت السيارة وجلسنا وهي تنظر إلى أصابعها وطلاء الأظفار بدا لامعاً وزاد من وهج يديها. لو رأى الأصلع طلاء الأظفار على أصابع البرنسيسة لأكلها طبعاً. سخرية الحياة تعطي بعضهم وتأخذ من بعضهم. قطعت البرنسيسة حديث نفسي.

أنت مصدر راحتي النفسية يا عبدو.

- أحقيقة أم تهزئين؟
- ولماذا أهزأ يا عبدو كلما تناوب الآخرون هياجهم. أجدك بارداً فأدخل مسبحك وأغوص فيه. مشاكلنا أنا وأنت مع إيلي هامشية لكن أشكر القدر لأنه أعطاني رجلاً بارداً جداً متسامحاً جداً منفتحاً جداً يمتص غلياني.
- هل أنت حمقاء ليلى؟
- لماذا عبدو؟
- ما أفعله احتراماً لمشاعرك ولحبك لأبي الخل ولكن ما من رجل يشعر ببرود عواطفه وأنت أمامه برنسيسة حقاً

أنت فاتنة وجمالك لا يقاوم فعلاً. واهتمامي بك لأننا معاً في مواضيع مهمة لنستمر في الحياة دون خسائر وسأسعى لأجمعك بالمجنون أبي الخل تيقني برنسيسة.

كان العثور على موقف للسيارات صعباً جداً برمت المكان مرات عديدة حتى استطعت الوقوف قرب البنك. أمسكت يد البرنسيسة ودخلنا البنك سألنا عن مكتب أبي جمال فقال الموظف تفضلا الطابق الثاني أول غرفة عن يدك اليمنى.

دخلنا معاً وكان الخنفوس بانتظارنا مع سيدة ذات شعر قصير جداً وصدر عارم وعينين زرقاوين مهيبتين مد يده الخنفوس للبرنسيسة ومددت يدي لأصافح مدير المكتب معرّفاً عن نفسي فنظر إلى الخنفوس قائلاً أعرفك إلى الفنانة التشكيلية الألمانية ماتيلدا وأكمل تعريف البرنسيسة لأبي جمال مدير المكتب مستكملاً رسميات التعارف ببسمة وحديث عن أهمية الفن التشكيلي وتجارته التي تمثل نوعاً من الترف الذوقي المهم في الحياة.

بدأ الخنفوس بإجراء المعاملات وفتح الحسابات باسمي وباسم البرنسيسة وعينا ماتيلدا لا تغادران وجهي، وكأنها تتفحص سماتي ذكرتني ببو جعفر عندما التقيته أول مرة عند أبي الخل. إلا أنها صعقتني عندما تحدثت بالعربية.

- ستشتري مني اللوحات التشكيلية بسعر عالٍ أستاذ أبدو.

أضحكتني عندما قالت أبدو رن قلبي وحواسي اهتزت فقلت يبدو أن السيدة الألمانية تتحدث العربية، فقال أبوجمال:

- كيف اشتريت اللوحات منها ولا تعرف أنها تتحدث العربية؟

قاطعنا الخنفوس قائلاً أنا الوسيط بينهما. والأستاذ عبدو تاجر لوحات ومعرضه الحر لا يحتاج إلى مكان هو يشتري ويبيع بشكل حر. لهذا ضع في اسم ماتيلدا أرلوش ثمن لوحات وأخرج ١٥٠ ألف ليرة لبنانية لتتم المعاملة ومن ثم أكمل بوضع مبلغ ١٥٠ ألف ليرة باسم البرنسيسة أيضاً ثمن لوحات اشترتها هي من ماتيلدا ومن ثم ضع مبلغاً وقدره ٥٠٠ ألف ليرة لبنانية باسمي، لم أفهم هذه الثلاثية التي قام بها الخنفوس.

شربنا القهوة ونحن نتكلم عن أوضاع لبنان والفدائيين وقدرة لبنان على احتواء أعدادهم التي جاءت من الأردن والتي باتت تزاحم اللبناني. أنهينا الجلسة بموعد آخر عند الخنفوس يوم السبت عندما وقفنا أمسكت يدي ماتيلدا وقالت: يجب أن أراك مرة أخرى أبدو فضحكت وقلت لها نلتقي عند الأستاذ إيلي إن شاء الله.

أمسكت يد البرنسيسة بعد أن وضعت دفاتر البنك في حقيبتها واتجهنا صوب السيارة. أغمضت البرنسيسة عينيها وقالت: لا أريد رؤية طريق العودة سأبقى مغمضة العينين حتى أصل أشعر أني أحلم أبدو وضحكت ضحكة شعرت أنها تسخر من حرف العين الذي استبدلته ماتيلدا بحرف الألف. تلذذت بسخريتها حقيقة لأني شعرت

أن هذه السيدة تشبه إلى حد بعيد فريدة بجسدها وحجمه المتناسق والطويل ولمسة كفها الناعمة. إضافة إلى أنها دون مساحيق تجميلية بنطلون قطني أسود وقميص لونه زهري يشف عنه حجم صدرها المكتنز. تنهدت وقلت للبرنسيسة:

- سنلتقي معها يوم السبت.
- هل ستأخذني إلى صالون تجميل أيضاً. أشعر أني مختلفة اليوم حتى إيلي لم يترك يدي ألم تلاحظ؟
- بنت لا تنسي أنه يريد تدميري.
- لكنه وضع لك مبلغاً وقدره يا عبدو.
- بنت هل نسيت أنه ثمن ربع شحنة لشوف وين الباقي عندما ألتقيه لا بد من جواب. لهذا لا تتوهمي أنه يريد الخير لنا هناك حلقة فارغة يجب أن أعرف أين هي.
- نعم عبدو.
- كان طريق العودة أقصر من طريق الذهاب وهي مغمضة العينين ولم تفتحهما إلا بعض الأحيان ولم أفتح الراديو تركت لصوت الطريق ألحان المسافات الغامضة، مما سمح لي بالتفكير في كيفية العمل على التعاون مع أبي الخل لأشتري عقارات بالمبالغ المتبقية ولا أريد معاملات بنكية بهذه الطريقة لكن لم أقل ذلك للبرنسيسة تركتها مغمضة العينين إلى أن وصلنا طلبت منها الصعود

إلى البيت لتستريح لأني محتاج إلى تفقد شحنة الكسارات إن جاءت واللقاء مع أبي الزيك سيريحني من هذا المشوار الذي سمح لي بلقاء سيدة تركت أثرها في نفسي.

حل الهدوء الشديد وأنا في البغل الأرقش أستمتع بلحظات من سكينة أحتاج إليها قبل أن ألتقي أبا الزيك، كأن الدنيا تعيد إحياء من يموتون في الليل، ليبزع فجر النهار بصخب مع شمس أنتظرها تساءلت في نفسي إلى أين أمضي في هذه الحياة وأنا أربعيني أو خمسيني لا أعرف جل ما أعرفه أن فريدة منحتني عمراً تقريبياً لا يعني لي شيئاً لأني ولدت على سرير هو مسرح لذة استمتعت به وإحساس بالولادة أستقر في المكان الذي فهمت فيه أسرار آدم وحواء.

تركت السيارة وتوجهت إلى غرفة أبي الزيك في المرفأ فلم أجده بحثت عنه في نواحي المرفأ فوجدته في المستودع يعيد ترتيبه ويتفقد الأمكنة الأخرى كمراقب لم يتوقع أن يحضر المفتش فجأة.

- ما بك أصابك الرعب عند رؤيتي؟
- لا أبداً لم أتوقع رؤيتك في هذه الساعة المتأخرة من الليل، كيف كان مشوارك إلى بيروت؟
- جيد تم كل شيء على خير ألن نشرب الشاي معاً؟
- لحظات ساعدني على رفع الصناديق من هنا إلى فوق المفروض أن تصل شحنة الكسارات غداً أو بعد غد يجب أن يكون المستودع جاهزاً لها.

- تحكي جد؟
- بمزح معك واعظنا؟ أكيد جد.
- شو السر هذه الشحنة وصلت بسرعة؟
- اسأل برنسيستك بتسأل أبو الزيك؟
- لا شك أن إيلي له نسبة كبيرة منها أو هو يستعد لنحت جبال لبنان بهذا العدد الكبير من الكسارات.
- فلتهتم فقط بما يخصك لتنهي صفقاتك على خير الكسارات ملغومة يا ترى؟
- طبعاً ملغومة فيا سؤال هيدي.
- كيف ملغومة؟
- سؤالك استفزازي هيدا الجواب عند الخنفوس هيبي هيبي هيبيين على كل العالم مش سائلين بيمشوا شمال منمشي يمين بيمشوا يمين منمشي شمال على كل العالم مش سائلين:
- شو يا صاير بتغني.
- منروح منحضر الفيلم سوا بالمتروبولي غوار ورويدا بنت صباح.
- إنت يبدو شارب شي اليوم.
- يا رجل بحكي جد فيلم جديد ضايع حقي وحقك يعني.
- أنت عازب يا أخي، أنا عندي بيت وأنت ما سألتني شو صار معي عند الطبيب.

- طمأنني وجودك هنا فما سألت.
- اطمئن يا سيدي المرا معها سرطان ووضعها صعب جداً ادعيلها واعظنا.
- أووف على هالخبرية، أنا معك أخي أبو الزيك تحت حسابك وبخدمتك من بكرا بتاخد سيارتي وبتخليها معك وبقول لأم الزلوف تساعدها وتبقى عندها إذا بدك.
- ما تشغل بالك بدبر الله.
- لا أبداً نحن لبعض يا رجل.

خرجنا من المستودعات وتوجهنا إلى غرفة أبي الزيك، لا شك أن مارلين ستتوجع لا سمح الله إن ماتت أمها، كم هي سيئة الحظ. شدّ انتباهي الونش القديم الموجود على سكة القطار المتوقف، فسألت أبا الزيك عنه وعرفت أنه معطل وفي حاجة إلى إصلاح.

- من حفر المرفأ هنا يا أبا الزيك.
- شركة إيطالية تعهدت تحسينه يا عبدو واستطاعت أن تؤمن رصيفاً يكفي لعمق مناسب للبواخر واللانش هذا على الفحم الحجري. لكن الآلات تتعب وتموت أيضاً.
- لا لا تموت الآلات يمكن إصلاحه، سأصلحه على نفقتي الخاصة وأعمل عليه معك، ننهي العمل بسرعة ما. يجب أن يوافق مدير المرفأ على ذلك.
- سيوافق لا تهتم الأمر يحتاج إلى فذلكة واعظ أنا أقنعه وحياتك.

أخذت رائحة الشاي تلامس حواسي. وعقلي بمرض أم مارلين يقلقني جداً.

- كيف كانت جلسة بيروت هل وضـع المال باسمك الخنفوس؟
- وضع ربع المبلغ المهم فتح حساباً لي وللبرنسيسة، هذا الأهم لكن عرفني إلى سيدة ألمانية يقول إنها فنانة تشكيلية سنلتقيه بعد غد وأعرف منه ما الذي يريده ومن هذه السيدة التي اشتريت منها لوحات.
- لوحات؟
- نعم، لوحات يبدو أن إيلي يعمل في تبييض الأموال لم أفهم تماماً ما الذي فعله ما يهمني من كل ما فعله، فتح حساب باسمي. المهم أنا لن أتأخر خذ سيارتي معك وسأنتقل بتاكسي غداً نتغدى معاً سمك مشوي ولكن سنلتقي عند أم الزلوف في الفرن اترك زوجتك ترتح وبعدها نذهب إلى كاتب العدل لتصبح السيارة باسمك.
- هذا كثير يا عبدو لا أستطيع رد ديونك هذه علي.
- اسكت أم مارلين مريضة وربما احتجت إلى نقلها إلى مستشفى ليلاً أنت تحتاج إليها أكثر مني. سأشتري سيارة لا تخف سأطلب بغلاً جديداً من الخنفوس ما زال لي معه مبلغ كبير.

- أبو الزيك أخ لم تلده أمي لكني أشعر نحوه شعوراً أخوياً خالصاً، لا ينتمي إلي أسعد وخلدون الفرق بينهم كبير هو يسعى بكل ما أوتي من قوة ليعمل لعائلته بشكل فعال وهما اكتفيا بفؤاد مدلل أمه وفتات ما يعطيهما. لا أعرف ما أخبارهما أيام مضت ما هذا الزمن.

تركت بغلي الأرقش لأبي الزيك وانطلقت سيراً على الأقدام حتى وصلت إلى دوار أبي علي ومن هناك نقلني تاكسي إلى فرن أم الزلوف على طريق الكواع القديم. رائحة خبز الحطب أمسكت بي فأمسكت رغيفاً ساخناً وبدأت الأكل قبل أن تراني أم الزلوف. استقبلتني بحفاوة كبيرة وهي تنظر إلي نظرة فرح كأنها ترى أخاً لها بعد غياب.

- ما هذه الغيبة كلها واعظنا؟
- أشغال يا أم الزلوف ما حبيت نوصل فجأة أنا وأبو الزيك لعندك رح أتغدى عندك اليوم سمك مشوي على الحطب.

من عيوني.

- يخليلي عيونك يا أم الزلوف في أكياس بدي أتركها عندك بمطرح أمان وين ممكن تتخبى والجن الأزرق ما يعرف وينها؟

تحت في المستودع مع أكياس الحطب لا يدخل أحد إلى المستودع أنا فقط. وممكن نحطها تحت الأرض إن أحببت.

- خبرية حلوة لأني أحتاج إليها في الأوقات العصيبة يا أم الزلوف وأيضاً أحتاج إلى امرأة تبقى عند أم مارلين هي مريضة جداً وأخاف على مارلين.
- أيضاً من عيوني واعظنا، أنت رجل طيب إلهي يرزقك بنت الحلال ويفرحني فيك. قول آمين.
- آمين يا أم الزلوف ولو أني لا أفكر في الزواج أستأذنك وأراك بعد الظهر سآتي أنا وأبو الزيك.
- الله معك.

تعيش أم الزلوف في منطقة التبانة أو الأحرى بين منطقتي جبل محسن والتبانة، وهي مستقرة بعد أن التقيتها في دير جنين بمعصرة الزيتون، مذ ذاك بدأنا نعمل معاً في تجارة الزيت امرأة بعشرة رجال. لو أن فريدة بقيت على قيد الحياة لتركتها مع أم الزلوف تهتم بها. لا شك أنني سأفعل هذا مع مارلين بعد موت أمها.

راحت الأفكار تطوف في رأسي عن الحياة الجديدة التي ستعيشها مارلين معي. قد يحزن أبو الزيك على فراق زوجته لكنه من المؤكد أنه سيتزوج مجدداً. وتبقى فراشتي مدللة كملكة. يبدو أن حياتي ستكون مثل جان فالجان وكوزيت وهذا يسعدني جداً. مشيت سيراً على الأقدام في شارع سوريا شدتني رائحة القهوة في محال القدور فدخلت واشتريت لبرنسيستي القهوة بالهال وأكملت طريقي سيراً على الأقدام وصولاً إلى مستشفى شاهين في الزاهرية، ومن ثم نقلني تاكسي الأجرة

فيما بعد إلى شارع عزمي عند مقهى التوب وهو الشارع الأكثر أناقة في طرابلس يبدو أن أبا الزيك أراد أن تكون مارلين في بيت مختلف، لكني لا أعرف لماذا توقفت هنا برهة وسألت عن بيت للإيجار فدلني بعضهم على سمسار يستطيع خدمتي في إيجاد البيت وانطلقت بعدها إلى شارع بورسعيد في الميناء حيث بيت البرنسيسة. يبدو أن الأصلع أراد أن تكون البرنسيسة واجهته في طرابلس.

دخلت البيت والباب يهتز من صوت أغاني فرقة البيتلز وهي تغني. اتجهت بسرعة إلى المسجلة وضغطت زر الإغلاق بينما البرنسيسة ترقص كأنها في ملهى ليلي مع شبان هيبيز.

- لماذا أغلقتها ألم تقل إنك تتغدى مع أبي الزيك؟
- نعم صحيح أتيت كي أستحم وأذهب بعدها، يجب تقديم طلب تلفون للبيت هنا. لو من تلفون هنا كنا طلبنا من الخنفوس تبعك شراء سيارة لنا.
- ماذا أين سيارتك؟
- أعطيتها لأبي الزيك.
- كيف تفعل هذا؟ نحن بحاجة إليها.

سنشتري شيفروليه لنا لا تخافي اتركيني أستحم وأنطلق.

قمت بدوش سريع بعد قبلات بو جعفر وضعت في جيبي ما يكفيني لتنقلاتي عبر سيارات الأجرة وبعض الاحتياطي. عطرتني برنسيستي بعطر جميل وطلبت مني أن أسمح لها بزيارة أبي الخل

فرفضت وقلت لها أحضره لك مهبولك إلى هنا. أخاف عليك من المسلحين الذين يحرسونه ولا أريد لأحد رؤيتك معه حالياً، لننه قصتنا مع خنفوسك.

تركتها واتجهت إلى المرفأ التقيت أبا الزيك الذي ينتظرني في السيارة أو بغلي الأرقش سابقاً، وتوجهنا إلى منطقة الكواع الأكثر شعبية في مدينة طرابلس مجدداً. كانت أم الزلوف بانتظارنا رحبت بأبي الزيك الذي ابتسم عند رؤيتها وكأنه يعرفها منذ سنوات. إلا أنه قال: أخت الواعظ أختنا ولم أستغرب حبه الأخوي لك يا أم الزلوف فقالت أم الزلوف نحن تاريخ منذ الصبا معاً عكار جمعتنا وطرابلس جمعتنا وها نحن معاً من جديد.

كان السمك بمتبلات أختي أم الزلوف جاهزاً للشي ورائحته تغري للبدء بالشي.

وضعت إبريق الشاي على الحطب الذي يتوهج وأكملت إعداده أم الزلوف ومن ثم بدأت بالسمك.

تركنا فرن أم الزلوف بعد أذان المغرب بقليل والظلام يمتد في منطقة الكواع ذات البيوت المنخفضة ما من بنايات عالية هنا مازالت هذه المنطقة توحي بالبساطة ليست كشارع عزمي حيث يسكن أبو الزيك. وعبقها الشعبي كنز جمالها الذي أحبه في حين تعبره السيارات على مهل يمشي أهاليه بلامبالاة وبلا خوف من سيارة قد

تصدمهم. فخطواتهم محفورة على طرقات تعج بالبيوت الفقيرة. ألم تقل فريدة يوماً إن بيوت الفقراء في عكار لا قرميد لها وبيوت الأغنياء تعتمر طرابيش حمراء؟

طلبت من أبي الزيك بيتاً للإيجار قرب مقهى التوب لمدرب الكاراتيه الألماني الذي سيحضره الخنفوس. ولم نتكلم كثيراً. إذ يبدو أن أبا الزيك ليس على ما يرام وصمته أجبرني على صمت آخر لأنه لا يحب أن أتدخل كثيراً في شؤون زوجته وأحترم فيه هذا. شعرت بقلقه الكبير حيال صحة زوجته عندما طلبت من أم الزلوف الاهتمام بها بشكل أسبوعي ووافق أبو الزيك على ذلك. سيحضرها بسيارته إلى أم مارلين لتتعرف إليه وبهذا أطمئن إلى فراشتي أكثر وأم الزلوف قربها وتهتم بها. كان يجب علي العودة إلى البيت بعد غداء أصابني بتخمة أم الزلوف المعتادة. تركني أمام البيت وانطلق بعد أن سألني كيف ستبقى دون سيارة فقلت له لا تخف على عبدو سأشتري سيارة تسد باب الحارة تبعي اهتم بأم مارلين فقط.

أعادت اللحظات بعد انطلاق أبي الزيك بسيارتي ذكرياتي مع بغلي الأرقش هذا والحكمة تقتضي الانتقال من مرحلة إلى مرحلة بعد الأكياس العامرة بالأموال في فرن أم الزلوف وفي البنك وفي بيت فريدة الزنبق الذي اشتقت إليه ولا بد من نقل ملكيته بالكامل مجدداً لي قبل أن تكبر الخسة في رأس البرنسيسة. كنت أشعر بصوت الرياح التي تحادثني بوشوشات النهر الكبير في عكار، لم أصعد إلى بيت

البرنسيسة أكملت السير نحو البحر والسير على الكورنيش البحري في مدينة الميناء يزيل الهموم.

أحسست للحظات أني كنت هنا يوماً ما. لا أدري لماذا أشعر أني عشت حيوات كثيرة. كان بائع عرانيس الذرة المشوي يحاول ضبط عربته كي لا تصيب الريح القوية عرانيسه.

عرنوس مشوي أستاذ؟

نظرت إليه وشعرت بسخرية كلمة أستاذ حركت عيني اليسرى موافقة مني على ما قاله. بدأ بشي العرنوس الكبير ربما لأني أستاذ وأراد منحي بعض الامتيازات فبدأ بشي عرنوس كبير. كان موج البحر يعلو موجة فوق موجة تذكرت الأصلع وهو يعلو فريدة ومن ثم تعلوه هي موجة فوق موجة إلا أن وجه أخي لاح لي من بعيد وعادت بي لحظة وقوعه في البئر بالكثير من الحزن وما أيقظني من ذكرياتي إلا العرنوس المشوي وحرارته في قبضة يدي التي تجمدت ومن ثم اشتعلت، فاضطررت لاستعمال اليد اليسرى لأدفع ربع ليرة ثمن العرنوس تاركاً ما تبقى له دون أي كلمة.

لحق بي بائع العرانيس بعد خطوات قليلة قائلاً: يا أستاذ خذ الباقي. لكني لم أشأ الكلام لوحت له بيدي اليسرى انصرف تركني وهو يدعو لي وأكملت السير إلى أن وصلت إلى عربة قديمة تجرها أحصنة. توقف عندما أعطيته إشارة وصعدت إليها طالباً إليه أن ينقلني إلى شارع بورسعيد. والبحر يودعني بأمواج تصفق لم أشأ ترك هذا المشهد الذي لا ينسى. لكن العمل لا بد منه وإكمال مشوار حياتي لا بد منه.

رفع بو جعفر وجهه نحوي وأرخى ذيله إلى أسفل عند دخولي إلى البيت، كانت البرنسيسة تستمع إلى الراديو وأم كلثوم تصدح بأغنية اسأل روحك والأجواء توحي بليلة تانتراوية لا مزاج لي بها لكنها ضرورية لتقاوم هذه القطة لمسات الخنفوس وتكون قوية بما يكفي كي لا تستسلم بسرعة فالجلسة معه غداً مهمة ولا بد من تقويتها. دخلت المطبخ لإعداد قهوة مرة مركزة كي أستطيع التوازن وإعادة نسيان ذكريات هاجمتني. وضعت ركوة القهوة على النار وتركت لعري جسدي حريته وبو جعفر يلعب بين قدمي كعادته وضعت ثيابي في الغسالة وقمت برش الماء على جسدي حتى أسترخي، ارتديت روب الحمّام وأكلت قطعة خبز مع لبنة وزيتون وأكملت إعداد القهوة على صوت أم كلثوم الذي منحني جواً عابقاً بالحياة.

أمسكت يد البرنسيسة بعد وضع القهوة والفناجين على الطاولة وربطت خصرها بمنديل فريدة ذات الكرات الصوفية الملونة الذي أعلقه في تعليقة خاصة له مذ جئت بيت البرنسيسة. كانت أم كلثوم تقول : واتغيرت شوية شوية. اتغيرت ومش بإيديه. وبديت أطوي حنيني إليك. وأكره ضعفي وصبري عليك. واخترت أبعد وعرفت أعند حتى الهجر قدرت عليه. وأنت يا عيني لو في مكان يا عيني كنت حتعمل غير كده إيه؟ إسأل روحك. ارتشفت القهوة ساخنة وجسد البرنسيسة يغلي شوقاً إلى أبي الخل فرقصها بدا ساخناً وبخار روحها نضح من ظهرها الذي بدأ يتصبب عرقاً. تنهيداتها كادت تتحول إلى

آهات رغبة محمومة. جلست أمامي وصدرها كاد يفر تجاهي. إلا أني لست بمزاج تانتراوي اليوم.

- ألا ترغبين قليلاً في التسجي تحت غطائك والتمرغ في حلمك. أنت أنوثة أروم اشتعالها وشباب أسعى لاستنهاضه في أخلاطها وجسد ها. أريد أن أدخل مفاصله أمرّغه بشهوة جسد يعشقه ويذوب فيه ولكن كيف ذلك وأنت تعشقين أبا الخل؟
- تدحرجت دموعها على نهدين كاللؤلؤ وهي تنظر إلي بحزن عصف بقلبي. وأكملت كلامي معها أنا عالمك الداخلي يا ليلى. أنت جزيرة من جزر الجنان يحيط بها بحر أجاج لا يقربها المستهترون جزيرة من لذة لا يؤمها إلا المؤمنون جزيرة تأخذ قوتها من حبها وشغفها لأبي الخل أما لذتي وشهوتي من رغبتي وعنفوانها من نشوتي فتكون لذة اللذات هي جعلك تقاومين عواصف اشتياقك إليه. أنت أصيلة الجذور كشجرة زان لا تنبت في المستنقعات بل في وديان الجبال الشاهقة. لذلك أقدم بعض الشروحات عنك أنا إن كنت أعرفك لا يعني أنني راضٍ عما أنا فيه من إحساسي بغموض موقفك تجاهي فأنا قطعة من سفينة غارقة تعوم في بحرك. أعرفك لذلك أنا حزين معك لو لم أعرفك لتركت

الأمور حتى خواتيمها أياً كانت ولتصرفت بلا مبالاة وعدم تركيز في الصلة والفروع ولما وصلت إلى العمق الذي أنا فيه معك وأدركت نفاقك المستمر تجاه نفسك. تجرئي وخذي قرارك لتكوني مع أبي الخل وأنا أساعدك. أنت تغفلين جانب الحياة بالوقوف ضد مشروعيتك الوجودية فيها. مشروعية وجودك أن تأخذيها دون إملاء للشروط. فالحياة ميدان تجربتك غير المشروط تتصرفين بواقعية أنا أكثر منك تحلياً وتبسطاً وتفهماً للواقع لا أحمّله مصابي وأعرف أني لن أتزوج وسأبقى كما أنا والمرأة لم أسكنها ما زلت بحّارها التائه.

- يا برنسيسة أنوثتك حقل لذة تحت ركام تاريخي هو أكبر من رصيد الخنفوس وما نمتلكه.
- هو القدر الظالم يا عبدو.
- القدر حالة استثنائية مثل حادث صعقة كهرباء أو سيارة نحن نعيش مع القاعدة لا الاستثناء اعمل لدنياك وكأنك تعيش أبداً لو لم نعمل وفق هذا واتبعنا احتمالات القدر لما بنينا جداراً ولا زرعنا حقلاً ولا أنجبنا أبناء اللحظات الجميلة على قلتها هي ما يحببك بالحياة أنت إنسانة خلقت لتنمو نحو الشباب وهذا ما أخذك إليه بينما هم في شيخوخة فكر وبدن مستمرة هل أبالغ إن قلت إني أحرك زورقك إلى أعالي البحار وأخرجه من السواقي التي تنتهي بسد دائماً.

- ما تشعرين به هو أنك تحتقرين نفسك معي ومع الخنفوس وقبل ذلك مع الأصلع الذي اشتراك لا أعرف من أي قوّاد إلا أنني ما أعرفه هو أنني سأفعل المستحيل لتكوني مع أبي الخل تيقني. فيك طهر خفي يلومك فتعودين إلى أبي الخل لأنك طيبة كعطر الياسمين شهية كورد الجلنار لذيذة برغم مرارتك.
- مكتبة الأصلع يبدو أنها جعلتك فيلسوفاً وشاعراً أيضاً.
- لا أنكر أن القراءة تجعلني أشعر بلذة معرفة أتحدث بها مع مؤلف ما. لكن هي الحياة والشكر طبعاً لفريدة هي التي أرادت أن أتعلم القراءة عند الشيخ مرزوق ولكن القدر رمى بي في أحضان الكتاب أتذكر أول كتاب في قبو درباس بك عندما كنا في طرابلس مع الأصلع ولم أكن أعرفك حينئذ، ولكن جيد أنك تحولت عن الموضوع نامي الآن غداً جلستنا مهمة مع إيلي ولا أظن أنه سيطلب منك شيئاً لتدميري الآن. هو مازال بحاجة إلي يجب أن نعرف وجهة أهدافه وماذا يريد. نظرت إلي البرنسيسة وعيناها تحتاجان إلى شحن روحي فطاقتها الشهوانية مشحونة برغبات مكبوتة إلا أني لست بمزاج جيد بعد عرنوس الذرة المشوي وموجات البحر التي تركب بعضها بعضاً. أطفأت نور غرفتها وتركتها عارية تحت الغطاء الوردي وقلت لها

لتختمر مسألة اقتحامك حياة أبي الخل عنوة رأسك الصغير وأنا معك حتى النهاية والأحرى حتى وصولك إلى جزر الأمان.

سبقني بو جعفر إلى المكتبة قبل أن أغلق الباب على البرنسيسة يبدوأن الحيوان لديه الحاسة السادسة. فقد دخل المكتبة وجلس على الكنبة خاصته بعد أن اختار لي الغليون المناسب من خشب الورد. أظن بو جعفر اعتاد رائحة التبغ الخاص بي أثناء القراءة. ما زلت في منتصف كتاب قصة الإنسان الذي وضعني أمام الكثير من الحقائق التي أحتاج إلى إعادة التفكير فيها، لكن كيف لم أفكر في جزر الأمان من قبل؟

بدا بو جعفر يتفحصني الغريب أنه لم ينم ورائحة التبغ في غليوني الوردي اليوم مميزة جداً. يا لها من ليلة هادئة حتى من ريح شتائية يبدو الأجواء الليلة تساعد على محو توتراتي. إلا أنه بقي محافظاً على مسافة بيننا رغم نظراته الموحية باشتياق إلى صاحبه. تأملته وأنا أفكر في الدهاء الواقعي الذي يقول عنه جورج حنا في كتابه «ما من دولة كان لديها من المهارة والحذاقة والدهاء الواقعي» تركت الكتاب وأخذت أفكر في معنى الدهاء الواقعي يا ترى دهاء ميكافيللي؟ أو دهاء الأصلع؟ أو دهاء الخنفوس؟ أو دهاء الرئيس عبدالناصر؟ أو دهاء خالد العظم؟ يبدوأن قوة الإنسان في الدهاء الذي يمتلكه ولا بد من رسم لطريق حياتي بدهاء أفرضه على حواسي قبل عقلي لأستطيع استخدام العقل بمعزل عن مؤثرات الحواس الغبية التي تجعلني متحفزاً أحياناً

فالأفعال وحدها هي التي تترجم فاعلية طريق حياتي الذي سأسلكه وأنا مؤمن بذلك.

رغبت في المزيد من التفكير إلا أني شعرت بالنعاس يغتالني كما اغتال بو جعفر الذي غفا وبدا لي أنه أصبح بحجم هرين معاً. دخلت فراشي الليلة على غير عادة وأنا أشعر براحة شديدة، كأني وجدت خريطة الكنز في جزيرة مهجورة ولا بد من السفر إليه للحصول عليه غداً. هذه اللحظات التي أحب فيها التوغل في ذاتي لأعجن خميرة نفسي بعجائن الماضي لأتـذوق لحظة الحاضر الذي أعيشه مع البرنسيسة. يا إلهي نسيت أن أشتري ثياباً جديدة لا بد لي غداً صباحاً من الاهتمام بذلك.

تساءلت كيف سيكون لقائي الثاني بالزرقاء ماتيلدا. وسنواتي الأربعينية تكاد تجعل مني كهلاً لا ترغب فيه النساء الجميلات الورديات في تطلعاتهن نحو الحياة. الإسهاب في التفكير سيؤرقني حاولت إسكات تمتمات نفسي لأنام وأصحو باكراً لم يبق للفجر إلا سويعات قليلة تسمح لي بقسط من راحة يكفي لأكون مستعداً للبقاء اليوم بأكمله مع الخنفوس.

كانت ليلة صعبة بالأمس لكنها مثمرة وفي رأسي تعج الكثير من الأفكار أهمها هل يجب أن أكون أباً وأنا من قتل أخاه ورماه في البئر كأخوة يوسف؟ نبي الله التقطه السيّارة لكن أخي لن يلتقطه السيارة لأني هربت وتركته يموت وحيداً في عتمة سوداء. تكورت قبضة

يدي واشتد فكي الأسفل دخلت الحمّام وتركت الماء الساخن على جسدي حتى استرخى عضلي كله بحثت عن كاسيت موسيقى كنت قد أحضرته من بسطة أشرطة كاسيت في ساحة النجمة ضمتني البرنسيسة من الخلف وحرارة أنفاسها أصابتني بقشعريرة جعلتها تثق بقدراتها المؤثرة فيّ إلا أني أبعدتها قليلاً عني وقلت لها : حواسي مستنفرة ما من قدرة لي على مقاومة رغباتك برنسيسة استحمي وجهّزي نفسك لنخرج يجب أن أرتدي شيئاً جديداً تختارينه لي أنت قبل أن نذهب إلى الخنفوس.

- كيف سنذهب دون سيارة؟
- سنأخذ سيارة أجرة من الموقف وعليك تذكيري بتقديم طلب تلفون للبيت كان سيختصر الوقت لنا لو طلبنا سيارة عبر الهاتف.
- نعم، لكن ما هذه الموسيقى؟ جميلة جداً.
- لا أعرف اسم صاحبها إلا أنها لعازف ألماني.
- هههههه يبدو أن تأثير ماتيلدا بدأ قبل لقائها الليلة.
- صه بلا كلام جهزي نفسك وأنا أنتظرك في المكتبة سأدخن قليلاً وأقرأ ريثما تنتهين من تجهيز نفسك.
- حاضر واعظنا.

متيقن أن هذا اليوم سيحمل الكثير من المفاجآت، على أمل أن تتوضح أمور بقية المبلغ مع الخنفوس.

كان موقف الباصات الخاص على مقربة من مقهى فهيم الواقع في منطقة التل، وقبل أن نصله دخلنا محال النابلسي للألبسة الرجالية وارتديت بنطلوناً أسود ذا ساقين واسعتين وقميصاً خمرياً ذا ياقة متسعة تشبه قمصان عمر خورشيد.

دفعت الحساب وانطلقنا إلى محال اكس مور قرب بركة الملاحة لأشتري الحذاء المناسب أيضاً. وضعت ما كنت أرتديه في كيس صغير وتركته إلى جانب الرصيف وأكملنا طريقنا إلى موقف السيارات. كان سائق سيارة الأجرة نحيلاً وصاحب لحية طويلة يطقطق بسبحة بين حين وآخر إن استوقفنا زحام السيارات.

ابتسم الخنفوس عند وصولنا فرؤيتي بالقميص الخمري توحي له باهتمامي بماتليدا. كانت ماتيلدا خلف البار على كرسي مرتفع، فطلبت مني الجلوس قربها بينما الخنفوس جلس في زاوية شوكولية مع البرنسيسة التي استطاعت اختيار ما يتناسب مع الألوان القاتمة في زاوية الخنفوس المفضلة الأصفر البنفسجي بلون الغروب، والصدر المفتوح على قلادة تتلاءم مع القبعة الأنيقة. شتان بين سيدتين في زمنين فكيف لي أن لا أقف احتراماً أمام سيدة ثالثة ترتدي لباساً بسيطاً مرة أخرى البنطلون القطني الأزرق مع القميص الرمادي والعينين الزرقاوين.

أحسست بأن قلبي يهوي في بئر ما وقعت فيها كما وقع فيها أخي حين قالت: «اخلا وسخلا آبدو» هل يمكن لي وضعها على كاسيت

تسجيل لأسمعها مرات ومرات. تذكرت الدهاء الواقعي وشغف عينيها الزرقاوين اللتين جعلتاني على غيمة تقف فوقها فلا تغادرها. بدأت حديثها معي عن الجمال دون أن تشيح بنظرها عن صدري. شعرت أن صدري يثيرها، فتمنيت لو أفتح زر القميص الثالث أو الرابع إلا أني منعت نفسي عن ذلك لياقة. همست في أذني وهي تقف قائلة : «لنمش قليلاً آبدو» نظرت إلى البرنسيسة الغارقة في نظرات الخنفوس وأخذت معطف ماتيلدا الثعلبي ووضعته على كتفيها وخرجنا وأنفاسنا تشعل غليون السعادة الدافىء في برد بدا لي ملطفاً لحرارة جسدي.

شيء جميل أن يكون لحياتنا معنى نجده في حياة شخص آخر يمر بنا. يمر كطيف لحلم جميل لا نشتهي أن نفيق منه.

- أتمنى أن أشتهي امرأة في حياتي ليصبح لحياتي المعنى الذي تقولين عنه.
- وزوجتك هذه الجالسة مع إيلي ألم تعطِ حياتك معنى؟
- البرنسيسة ليست زوجتي يمكنك القول إنها صاحبتي.
- صاخبتك؟
- نعم صاخبتي هههههه.
- أنتم في الشرق لا تؤمنون بصخبة النساء.
- يمكنك القول أنا وهي استثناء بالعامية عنا طنجرة ولقيت غطاها.
- تعجبني سجيتك وعفويتك آبدو.

- شكراً ماتيلدا.
- أتمنى أن نصبح صديقين آبدو فالصداقة أجمل من الحب. الحب شجرة تطرح ثمارها بعد حين أما الصداقة فشجرة ثمارها أوراقها وأغصانها وجذوعها وسمادها. إنها في ديمومة العطاء لأنها، أي الصداقة عطاء بالكامل بلا مقابل وأقرب الناس لخياتي أصدقائي.
- يسعدني طبعاً سيدة ماتليدا أن نصبح صديقين.
- قل لي ماتيلدا فقط.
- الأصدقاء لا تحركهم الغيرة وحب الاستملاك يمنحونك الحب كله ولا يقدمون إلا التضحيات غالباً يا ماتيلدا.
- عرفت من إيلي أنك تعمل في التجارة هل تحب الفن التشكيلي؟
- حقيقة لا أعرف ما هو إلا أني حاولت أن أستكشف ماهيته ففشلت. لكن أنت ترسمين ولم أر لوحاتك رغم أني كما يقول إيلي اشتريتها.
- أنا أرسم الأحصنة تشدني الخيول جداً لكني أميل إلى الواقع.

عندما قالت ماتيلدا الواقع تذكرت دهاء الواقع وأخذتني كلمتها للعودة إلى الداخل لأتفقد البرنسيسة ربما طلبت من ماتيلدا العودة إلى الداخل لأني بحاجة إلى فنجان قهوة ساخن بعد هذا المشي في حديقة الشاليه الخلفية.

دخلنا وإيلي يقبل يد البرنسيسة التي بدت لي تلمع بكف ألماسية مع خواتمها الخمسة يبدو أن هذه المحتالة استطاعت سلبه حواسه لتحصل على هذه الكف. سألت ماتيلدا إن كانت تريد القهوة لكنها قامت لتقف قربي وتمد يدها لتأخذ فنجاناً سكبته وجلست أمام إيلي بانتظاري. جلست قربها واضعاً فنجاني على الطاولة والبرنسيسة تنظر إلى ماتيلدا نظرة القط بو جعفر المتفحص لوجهي دائماً.

قال الخنفوس:

- «مدرب الكارتيه سيأتي الأسبوع المقبل لذا يجب تجهيز بيت له في شارع عزمي عند مقهى التوب».
- ولماذا عند مقهى التوب تحديداً؟
- لأنه يحتاج إليه هناك لقربه إلى جميع أمكنة طرابلس ولتميزه بسهولة الوصول إلى جميع الأمكنة. ماذا تريد يعني وضعه في مكان شعبي.؟
- لا أبداً نعطيه بيت أبي الزيك لن يرفض على أن يجلس أبو الزيك في بيت أم الزلوف ريثما ينهي التدريب الذي أحضرته من أجله.
- لكن هل يمكنه تدريب مجموعة أخرى من الرجال الذين بحاجة إلى التدريب؟
- من تقصد ألا يكفي أنت وأبو الزيك ورجالي؟
- رجال أبي الخل والفدائيين معه ما رأيك وأبو الخل يدفع له أجره طبعاً.

- انتظر إلى أن يأتي ونرى ماذا يفعل؟
- حسناً.
- تكلم غداً مع أبي الزيك ويا أخي قدم طلب تلفون أشعر أني مثل المقطوع الأطراف لا أصل إليك إلا إن التقيتك أو التقيتني.
- بعد غد الإثنين بإذن الله.
- كانت ماتيلدا تنظر إلينا وعيناها الزرقاوان تلمعان بطموح امرأة تريد معرفة المزيد عني. أحسست بتفاصيل وجهها تقول ذلك ربما هو غرور رجل لم يقع بغرام امرأة منذ وفاة سحر. حقيقة لم أغرم بها بمعنى الغرام وإنما شغفتني لرقتها وحنانها علي ولتضحياتها التي أودت بحياتها.
- أنا لا أفهم بالفن ولا بالرسم ولا باللوحات التي اشتريتها.
- ستجعلك ماتيلدا تفهم وتعلمك الألمانية إضافة إلى الرسم ومن ثم ستصبح تاجر لوحات فيما بعد.
- يا رجل من البقر والجلود وحبوب الجبن إلى لوحات فنية مجنون أنت يا رجل.
- لا أبداً أنت رجل ذكي وداهية يمكن الاعتماد عليك في أحلك الظروف.

عاد الدهاء الواقعي يتردد في ذهني ولا بد من خوض الواقع معه. الخنفوس يرسم شيئاً في رأسه ويجب حماية ظهري من طعنة غدر

أشعر بها منه. هذا الخنفوس يحتاج إلى الكثير من الدهاء الواقعي لصد هجماته التي أشعر بها آتية من ضربة معلم.

- عليك باستئجار بيت أيضاً لماتيلدا قريباً من المدرب الألماني. لأني أحتاج منها أن تنهي تعليمك الألمانية قبل أن تسافرا معاً لحضور معرض تشكيلي ضخم في أوفنمبورغ.
- طلباتك كثيرة يا إيلي وأنا بحاجة إلى معرفة مصير بقية المبلغ سيكون في حسابك في أوفنمبورغ عندما تذهب مع زوجتك الألمانية إلى ألمانيا.
- ماذا؟
- نعم ستتزوج ماتيلدا على الورق فقط لا تخف كي تستطيع حضور المعارض والخوض في مزادات فنية ترافقك فيها ماتيلدا.
- لا أحب أن يرسم لي أحد طريقي نحن التقينا وتعاملنا بتجارة الأبقار.
- صحح يا عبدو.
- بتجارة حبوب الجبن وقطع الغيارات والكسارات والشاي.
- نعم، إذاً لماذا تريد أن أدخل في تجارة اللوحات؟
- لأنها لتبييض الأمـوال ووضعها في البنك باسمك في أوفنمبورغ كزوج لماتيلدا.
- اتركني لأدرس الموضوع ونتكلم لاحقاً.

- لا طبعاً الموضوع مدروس والمدرب الألماني سيأتي وستتعلم الألمانية قبل وصوله ستتفرغ لتكون مع ماتيلدا في شقة تستأجرها لها..

كانت البرنسيسة تنظر إلى الخنفوس متعجبة بأسلوبه في الكلام معي. أسلوب الواثق بموافقتي. تركته يرسم ما يريد ويخطط ما يشاء في النهاية دهاء الواقع يحتاج إلى ردة فعل تحطم كل المتوقع وسأفعل ذلك.

امتدت السهرة إلى ما بعد منتصف الليل والجلسة مع ماتيلدا لا يستطيع المرء إلا استكمالها، لكن لا بد من العودة إلى المنزل ولا يمكن ترك النفس على هواها. طلبت من الخنفوس أن يوصلنا بعد أن علم أنني أعطيت السيارة لأبي الزيك. فأعطاني مفتاح سيارته وطلب مني أن نلتقي غداً عند الكاتب العدل الذي في ساحة النور لبيعها لي وأسجلها فيما بعد بمصلحة النافعة أو تسجيل السيارات. لم أعترض لأنني كنت رسمت لذلك. أخذت المفتاح منه وقبلت ماتيلدا قبلة يد مترفة شغوفة باستكشاف حواسي، ومثل ذلك فعل الخنفوس وانطلقنا إلى طرابلس في الساعة الرابعة فجراً وكل منا يشعر بجمال سهرة لا ينقصها إلا الحب الحقيقي.

نظرت إلى ليلى عند وصولنا بنصف عين مفتوحة وبابتسامة السكارى قالت: أخذت السيارة وماتيلدا فماذا تريد بعد؟

- أريد أن أفهم ما الذي يريده خنفوسك.
- أخرجت من جيبي مفتاح البيت ودخلت البرنسيسة متجهة إلى غرفتها وأنا اتجهت إلى المكتبة رغم النعاس الذي اشتد وخطواتي أكاد أسمعها فتبعني بو جعفر. ما تزال قصة الإنسان على مكتبي صفحة ١٤٩ فقرأت «إلا إذا تسامحوا بإعطاء البلدان، الطامعين باستثمارها، جرعات مقننة من حضارتهم، وفتاتاً من ثقافتهم وخبرتهم. فقد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى فتح المعاهد وتدريب السكان المحليين على أصول الزراعة والصناعة ووسائل الإنتاج، مما فتح أعين هؤلاء بعض الشيء، وأذهانهم بعض الشيء، وخلق فيهم وعياً اجتماعياً بعض الشيء».

أحسست أن القدر يضع أمامي الكثير من إشارات الغيب الذي أجهله. إلا أن حواسي تدرك بعض الأخطار التي ستواجهني مع الخنفوس هذا، ومن المتوقع تبعاً لنظرية دهاء الواقع أنه سيوقع بي والبرنسيسة معاً ويجب الاحتياط وحمايتها أيضاً.

أبعدت فكرة بيت أبي الزيك من رأسي، وقررت البحث عن شقق للإيجار في محيط منزل أبي الزيك. لفتني غليوني من خشب شجرة الكرز. حشوته بالتبغ الفاخر وبدأت بسحب نكهة التبغ البارد إلى فمي، فطعم هذا الغليون مختلف يشبه طعم ماتيلدا التي لم أتذوقها، لكني

أحسست أنها بطعم شجرة الكرز. كان بو جعفر يرتعش ولا أعرف ما سبب ارتعاشه ربما مريض وربما الليلة باردة جداً وحرارة الإعجاب بماتيلدا تأخذني إلى براكين عكار الخامدة الله وحده يعلم متى تثور من جديد.

بدا بو جعفر المرتعش أكثر هدوءًا بعد أن رميت عليه منشفة سميكة كانت قرب مكتبي. تركته على الكنبة، ودخلت غرفة نومي مستسلماً للنوم عند وضع رأسي على الوسادة ولولا بائع الكعك تحت نافذتي لما استيقظت. على غير عادته لم يأتِ بو جعفر إلى غرفتي ليوقظني. وإذ بي قد أغلقت باب المكتبة دون أن أنتبه ليلاً، وما إن فتحت الباب حتى وثب بو جعفر إلى حضني تاركاً ذيله إلى الأسفل. تركته في حضني ووضعت ركوة القهوة على النار ودخلت أستحم بعد أن نزل عن حضني. أنهيت الحمّام بسرعة وأكملت إعداد القهوة الساخنه وتركتها تغلي على نار خفيفة لتخمر وتمنحني نكهة القهوة المركزة.

تركت لبقايا القهوة في فنجاني رسم ما تشاء لتقرأه البرنسيسة الغارقة في النوم وخرجت متوجهاً إلى أبي الزيك في البيت. إلا أني لم أجده فتوجهت إلى المرفأ. كما لم أجد بغلي الأرقش في الخارج دخلت فلم أجد أحداً من العمال إلا الإدارة فقط فلم أدخل لتحية مدير المرفأ لم نتآلف لا أعرف لماذا. لا أعرف مدى صحة مقولة الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تنافر اختلف. لأننا تنافرنا وما اختلفنا.

تركت المرفأ واتجهت إلى مقهى فهيم عند ساحة التل لأشرب فنجاناً من القهوة في المقهى وأسأل السمسار عباس الذي يجلس هناك عن شقق للإيجار للمدرب وماتيلدا. لم أجده أيضاً بدا لي أن جميع البشر أموات اليوم. لكن نعيم الغارسون قالي لي: أن عباس لن يتأخر يأتي عند العاشرة تماماً. انتظرته دقائق وما إن دقت ساعة التل الأثرية العاشرة حتى وصل بسلامته وكرشه يتدلى أمامه حاملاً دفتراً كبيراً تصاحبه نظاراته المتهدلة إلى شاربيه. قال له نعيم بصوت عالٍ: الأستاذ ينتظرك. نظر إليّ نظرة فاحصة واقترب مني وجلس أمامي فتبعه نعيم بفنجان الشاي.

نعم أستاذ تفضل نعيم بشحمه ولحمه أمامك.

- أريد شقتين كبيرتين في محيط مقهى التوب وبأسرع وقت ولن نختلف على السعر لأشهر فقط سيسكنهما مدرب ألماني للكاراتيه آت لتدريب حراس ليليين لمستودع في القلمون لكنه يحتاج إلى سكن في طرابلس.

موضوع سهل الكثير من سكان منطقة عزمي يسافرون ويحاولون تأجير بيوتهم ريثما يأتي الأجانب من الخارج. بالأمس استأجر شقة مفروشة في شارع الثقافة فنانون تشكيليون.

سرني الخبر هل من فنانيين يأتون دائماً؟

نعم، معرضهم غداً ويستمر أسبوعاً.

جيد اتفقنا إذاً. وسأحضر معرضهم أي يوم وأي ساعة؟

- بعد غد في الرابطة الثقافية شارع الثقافة الساعة الخامسة عصراً.
- جيد إذاً بعد أسبوع مر من هنا تجدني بعد الساعة العاشرة دائماً في مقهى فهيم ما عدا يومي الأحد والجمعة.
- تركته وتوجهت إلى منطقة الكواع بين منطقتي القبة والتبانة لأسأل أم الزلوف عن أبي الزيك وإن كنت قد التقيت أم مارلين.

استوقفني بائع اللوزية والبندقية الذي لا يفارق هذه المنطقة قرب مستشفى شاهين اشتريت منه كيلو بندقية أكلت منه القليل قبل أن يضعه في علبة داخل كيس ورقي وأكملت طريقي نحو براد البسار فسوق الخضار الذي يعجّ بالبائعين فشعرت بالتعب قليلاً أعطيت إشارة لإحدى سيارات الأجرة فنقلتني إلى فرن أم الزلوف. ما إن توقفت السيارة أمام الفرن وأغلقت بابها حتى تعلقت مارلين برقبتي صارخة عمو عبدو. ضممتها وشعرت بسعادة عارمة لوجودها هنا عند أم الزلوف. لم أكد أجلس حتى قالت أم الزلوف أم مارلين متعبة جداً وهي في مستشفى المظلوم وأظن أن أبا الزيك يحتاج إلى مساعدة مالية اذهب إليه فوراً. شعرت بالحزن والفرح معاً. لعبت مع مارلين واصطحبتها إلى دكان شحادة واشتريت لها حبلاً من السكاكر ملوناً وبعض القضامي بسكر.

- انتبهي لها يا أم الزلوف هذه حشيشة قلبي.

- لا تخف مارلين في عيوني يا عبدو.

ما من سيارات للأجرة تمر من هنا بسرعة إلا كل ربع ساعة أو نصف ساعة ولا بد من السير على الأقدام حتى ألتقي سيارة أجرة. فأحسست أنني بحاجة إلى أن أصل إلى أبي الزيك لأطمئن إليه وأخبره بالمدرب الألماني عبرت سوق القمح متجهاً إلى حيث أبو الخل. كان بعض المسلحين يقفون أمام الباب وما إن رآني مرافقه حتى اصطحبني إلى الداخل دون أن أتكلم. عانقتني رائحة أبي الخل قبل أن يعانقني فكتمت أنفاسي كي لا تصيبني رائحته بدوار كالعادة دخان على عدم استحمام على روائح مختلطة مفيدة في إبعاد الذباب والبرغش وحتى النساء إلا إن كان أنف إحداهن مصاباً بفقد حاسة الشم.

- صرت أفندي يا أخونا؟
- لا تؤبرني صاير أفندي وبنطلون بإجرين واسعة وقمصان الخنافس شو القصة لتكون عشقت البرنسيسة.
- البرنسيسة مستحيل تعشق سواك.
- إنت بتصدق النسوان حتى دموعهن دموع العاهرات.
- حرام عليك أنا أعرف بصدق كم تحبك.
- وسهرتها مع خنفوسك من كم يوم شهادة وفاء لحبها لي؟
- هذا شغلها معي ما إنت تركتها مع الأصلع؟ أنت تنازلت عنها شو بدك هي تعمل؟ تركني منك ومنها زوج تيوس أنت وهي الخنفوس طلب مني أهتم بمدرب ألماني سيحضر

خصوصاً لتدريب حراسه الشخصيين وحراس مستودعاته وسأتدرب معه ما رأيك يدربك ومسلحينك معنا.

- إنت خبرت الخنفوس أن السبع بلبنان؟
- مؤكد لا لماذا خطر ببالك أنه من الممكن أن أخبره أن السبع بلبنان. وهو أصلاً لا يعرف من يكون السبع، الخنفوس تجارته حبوب الجبن وكل أنواع التجارات وشغلته تجارة الأسلحة أيضاً. لكن لم أسمع منه أي سؤال أو تفاصيل لا عن السبع ولا الضبع ولا الثعلب.
- الفكرة جيدة ممكن حتى تدريب الفدائيين بالمخيمات أحضر لي اسمه بالكامل نعمل له فيش وتشبيه هههه ونشوف شو القصة ومن بعدها نقرر إذا ممكن نستخدمه للتدريب أو لا.

أسبوع وبعطيك اسمه الكامل وتفاصيل عنه بكون وصل على لبنان. أتركك بعافية عندي بعض الأعمال يجب القيام بها سلام يا قبضاي.

عبرت الأسـواق وصولاً إلى حيث تركت سيارتي واتجهت نحو مستشفى المظلوم وجيبي عامر بمبلغ جيد لأعطيه لأبي الزيك. كان يتمشى خارج المستشفى وسيجارته تحترق بسرعة فبصيصها لا يخبو ركنت السيارة وتوجهت نحوه. جلس على رصيف صغير أمام المستشفى عندما رآني لم أشأ أن أسأله عن زوجته إلا أني أعطيته المبلغ

فامتنع عن أخذه لكني رجوته محذراً إياه من زعلي. طمأنته إلى مارلين فأدرك أني سألت عنه أم الزلوف.

- لو ما أختك أم الزلوف كان يا تعتيرنا والله.
- أختي أم الزلوف أخت الرجال وقت اللزوم فيك تعتمد عليها دائماً.
- يكتر خيرك يا عبدو السيارة ريحتني كتير نقلتها ليلاً إلى المستشفى بعد أن تركنا مارلين عند أم الزلوف.
- يا أبو الزيك أنت ما عندك أخوات ولا أم؟
- خليها على الله كان عندي.
- وحياة غلاوة مارلين إن احتجت شيء ما تقصرني من ليرة لعشرة آلاف تحت أمرك أطلب المهم صحة أم مارلين وتقوم بخير.

سرطان الرحم امتد وما الهيئة في أمل بقى لكن عسى معجزة إلهية بتصير، هي بالعمليات لن تخرج قبل ساعتين اذهب بعملك وما تهتم لكن ممكن توصل شحنة السيراميك بأي لحظة وإذا أنا ما موجود بخاف ينتبهوا للبطانة تبعتهم.

لا عليك سأكون مكانك وسأحاول شراء اللانش لأعمل عليه في المرفأ معك بهذا يبقى ما نقوم به بيننا فقط.

جيد الاتكال على الله اللانش صاحبه الدباغ وأظن أنه يريد بيعه ليرتاح منه.

نلتقيه معاً بعد خروج أم مارلين بخير.

تركته وشعرت ببعض التعب. دخلت شارع بورسعيد. كانت ليلى تبرد أظفارها وصوت أغاني فريد الأطرش تنبعث من آلة التسجيل. لم نتكلم تركتها ودخلت غرفتي لأستلقي، فلحق بي بو جعفر ونام قربي ولم أستيقظ إلا وأذان العشاء قد ارتفع ارتديت ثيابي بسرعة وخرجت مسرعاً استوقفتني ليلى عند الباب لتسألني متى سنلتقي الخنفوس فضحكت. أول مرة تقولين الخنفوس نظرت إليّ بغرابة وقالت: وعدتني برؤية أبي الخل وما وفيت بوعدك. رأيته اليوم حقيقة لديه عطر يمكن أن أستخدمه سماً لقتل الحشرات، فلكمتني دون أن تهتم استدارت واتجهت إلى الداخل فتركتها وخرجت من البيت متجهاً نحو المرفأ لأتفقد شحنة السيراميك لعلها قد وصلت. لم أشعر بالمسافة لسرعتي دخلت غرفة أبي الزيك في المرفأ وحاولت استخدام منظاره فيما هو يغلي الشاي.. يا إلهي كيف نسيت جزر الأمان وضعت إبريق الشاي في المغسلة خوفاً من حريق ما وأطفأت البابور وسكبت عليه قليلاً من الماء البارد، أخذت المنظار وتوجهت إلى بحر الميناء. سألت البحّارة هناك عن الجزر وعددها.

التقيت صياداً لديه مركب صغير أعطيته خمس ليرات وطلبت إليه القيام بجولة على الجزر، فوجدت الجزر التسع تحتاج واحدة منها إلى الاهتمام مني لأجعل منها جزيرة الزنبق ومستقراً لواعظ مثلي، فالجزر التسع جزيرة البقر وجزيرة الرميلة والعشاق والبلان والمقطوعة

وطورس والفنار والنخيل والأرانب لأن القنصل الفرنسي وضع فيها الأرانب وما زالت إلى الآن.

أرجعت رأسي إلى الخلف والمركب يعود من حيث انطلقنا وأبوعمر صاحب المركب يكمل لي حكاية بعض الجزر التي توجد فيها بقايا لكنيسة. إلا أني لم أكن أسمعه بقدر ما كنت أفكر في استثمار جزيرة من هذه الجزر الجميلة لأجعل من إحداها مستقري وصلنا فيما كان صيادو الأسماك ينتشلون السمك من الشباك. حاول أبو عمر أن يغريني بجولة أخرى في مرفأ البداوي، وفوجئت أنه يمكنني الوصول إلى شواطىء تلامس حتى القليعات لا أعرف إن كان القدر يرميني من كف إلى كف أو أنه شيطان يغريني بأفكار لا أعرف مدى الخطأ أو الصحيح فيها. وقفت في المركب بعد أن توقف برهة قبل أن أشكر أبا عمر وأنطلق نحو بورسعيد مجدداً لأني بحاجة إلى هدوء تام وإلى غليون أحشوه بتبغ يعيد إلى رأسي توازنه.

لم يكن مفترضاً وجودي في البيت في هذه الساعة إذ فاجأت عودتي البرنسيسة التي أصابها الذهول وهي تعتلي أبا الخل المتشنج تحتها. أصابتني نوبة ضحك طويلة فانتفض أبو الخل وهاجمني إلا أنني لكمته بقبضة يدي التي تكورت فوقع على السرير مجدداً مصطدماً بالبرنسيسة فوقعت على الأرض مغمياً عليها. ركضت نحوها وهي تحاول أن تستفيق حملتها ووضعتها على السرير وأبو الخل أصابه

الجمود. دخلت المطبخ لإحضار حامض الليمون فلم أجد فضربت بصلة بقبضة يدي وعدت إلى غرفة البرنسيسة. فركت أنفها بالبصل فاستفاقت وهي تلعن معرفتي بها.

وقحة يا ليلى تقولين هذا وأنا من يحاول جمعك بهذا الأخرق؟

تحرك الدم في عروق أبي الخل مجدداً وكأنه هو من أغمي عليه واستفاق فقال:

- أنا أخرق يا بغل.

نظرت إليه وأنا أتصنع الهدوء إلا أن دمي يغلي بعد غيبوبة البرنسيسة التي أرعبتني. فقلت:

- لك هي لك يا أخي تزوجها ولكن انتظرحتى ننهي التدريب مع الألماني وأكمل توفير الرصيد الكافي لكما ولي لنعيش في أمان.
- هذا يخصنا أنا والبرنسيسة يا عبدو.
- اسمع إياك والتحدي البرنسيسة منذ أيام الأصلع معي وأنا من يهتم بأمرها ليست بأختي ولكنها امرأة ضعيفة وهي بحاجة إليك وأنا الوحيد الذي أعرف كم تحبك.

تحليت بالهدوء وتركت البرنسيسة في نوبة بكاء شديدة. تركتهما ودخلت مكتبتي مع بو جعفر الذي رفع ذيله غاضباً ومن ثم تدلى إلى أسفل قبل أن يأخذ مكانه على الكنبة. أشعلت الغليون الزيتوني الذي شهد على أيام شديدة مع الأصلع خصوصاً أيام الخلاف مع العشائر

وموكب جرود عكار الذي أصابه بالتوتر لأن الطريق المزفتة لا تصل إلى هناك. إلا أن الريس رشيد كرامي أكمل على الحصان وعدنا إلى طرابلس ورائحة التبغ في الغليون الزيتوني استمرت حتى الفجر. لم يكن الأصلع يطيق ركوب الحصان مسافات طويلة. ولم يطق منح الفدائيين حرية العمل والتحرك في لبنان يبدو هذا الغليون هو للاستنكار، وأنا أستنكر كل تفاصيل حياة هذه المرأة المتعلق قلبها برجل لا يدرك قيمة ما أقوم به من أجلهما معاً.

كانت أفكاري تتشعب ولا أستطيع تشذيبها أو ترتيب الأولويات منها. المدرب الألماني أو جزيرة أجعل منها المخبأ الآمن للبارود والأسلحة والجبن كما الأموال التي يجب وضعها في البنك لتكون الأسهم الآمنة في أيام المحن وهذه المعتوهة في غرفة النوم والأهم من كل ذلك مارلين الصغيرة. إن ماتت أمها ما الذي سيحدث يجب الاهتمام ببنات أم الزلوف أيضاً كي لا تصاب إحداهن بالغيرة من فراشتي الصغيرة. دخل أبو الخل ليقطع أفكاري بهمجيته قائلاً: صدقني أتيت لأعيدها إلى البيت قبل أن يراها أحد معي. لم أشعر إلا وهي في بيتي أمام الحراس ضمتني وبدأت بتقبيلي المجنونة وأنا رجل أفرض احترامي على الآخرين. لم أجد مفراً من اصطحابها إلى هنا بعد أن أجبرتها على ارتداء النقاب كي لا يراها أحد معي مكشوفة.

– سيعرفون أن امرأة ما معك يا للذكاء الخارق الذي تتمتع به.

- لا لا غالباً أرافق أمي إلى الطبيب، سيظنون أنها أمي.
- هل أخبرتك بالمال الذي وضعه الخنفوس في حسابها؟
- نعم أخبرتني.
- اسمع ستعقد قرانك عليها وترحلان إلى قبرص ومن هناك إلى إيطاليا أو ألمانيا.

وماذا أفعل بقيادة التنظيم هنا؟

- نقتلك ببساطة وتأخذ باسبور باسم نحاول تأمينه لك وحتى ذلك سنجد ألف حل المهم بعد أن أحصل على كل أموالي وأموال البرنسيسة من الخنفوس. حتى حين تتبلور كل الأمور العالقة إياك والمجيء إلى هنا.
- حاضر سأوصي البرنسيسة أيضاً.
- اسمع غداً أو بعد غد سيأتي عمال من شركة الاتصالات لتركيب تلفون في البيت سيمكنك محادثتها عبر التلفون. أظن أن لديها تلفوناً.
- نعم، نعم.
- جيد أخبرها بذلك واتركني وحدي الآن لو سمحت.

كانت البرنسيسة تعتقد أني لن أتكلم معها بعد الذي فعلته، فجاءت لتعتذر بعد رحيل أبي الخل. إلا أني أجلستها على ركبتي ومسحت على شعرها الطويل محاولاً عدم الكلام عن الحادثة التي

كادت تصيبها بسوء. حاولت الكلام فوضعت كفي على فمها فأخذت تتنفس بشدة محاولاً إيقاظ رغباتي التي امتلكتها ماتيلدا على ما يبدو. بعض النساء بارعات في مشاكسات الرجل وإن احتوت قلوبهن على عشاق.

في عيني بوجعفر وميض المشاكس الذي يريد الانقضاض على البرنسيسة. إلا أني طلبت منها تركي وحدي فأنا أحتاج إلى الوحدة تركتني وأدركت من ليونة مؤخرتها أن توتراتها انخفضت، وهذا يسيء إلى خطتي مع الخنفوس. لأن تلك الليونة ستؤثر في انخفاض مستوى انفعالاتها التي تجذبه إليها، وتجعل منه خنفوساً لا يصعب استمالته من خلال البرنسيسة. ربما التلفون سيساعد على رفع منسوب الاشتياق من جديد.

كانت ماتيلدا امرأة في الثلاثين من عمرها ممتلئة الجسد دون سمنة وهي متوردة الخدين ولامعة العينين وفي ثغرها ألق اسمي الذي يخرج من فمها دون حرف العين. كنت أبحث عن سر انجذابي نحوها وأبسط الأمور لأنها تبدو على سجيتها دون مساحيق الزيف التي تستخدمها النساء عادة. ألم تكن فريدة وخديجة دون مساحيق؟ لم أر إحداهن متبرجة جل ما كن يفعلنه ليلة الجمعة هو وضع الورود تحت السرير ووضع زهرة الختمية أو الياسمين خلف الأذن وارتداء فستان طويل مع إعداد الكبة المشوية لتكون ضمن أطباق العشاء.

تهاوت الذكريات فجأة وبقيت الأمنيات بلقاء جديد مع ماتيلدا.

خرجت من البيت بهدوء وتوجهت نحو مقهى فهيم عند ساعة التل عرفته من نظارته المسترخية على أنفه. جلست أمامه فرفع نظارته ليراني جيداً. إلا أنه قال للغارسون: شاي للأستاذ يا بني. بقيت صامتاً إلى أن قال: وجدت طلبك نشرب الشاي ونذهب لرؤية الشقتين وجدت واحدة فوق مقهى التوب وأخرى أمامها شمالاً.

انطلقنا في سيارتي وأدركت أن الشقة التي يتحدث عنها فوق أبي الزيك تماماً. كانت رائحة فمه تنبعث في السيارة حاولت فتح النافذة إلا أن المطر كان يشتد في تلك اللحظات. لا أظن أن هذا الرجل قد استحم. حاولت الضغط على دواسة البنزين رغم المسافة القريبة جداً بين مقهى فهيم ومقهى التوب، وذلك لا بد من عجقة السير قرب كراجات الأحدب. أخيراً وصلنا ورأيت البيتين واتفقنا على إجراء المعاملات باسم إيلي فهمي الجلاد ولو أني كنت أتمنى أن يكون باسم إيلي الخنفوس أعطيته مسبقاً ألف ليرة على أن أكمل الباقي بعد وصول المدرب وماتيلدا. بدت أسنانه الصفراء متعرجة عند ملامسته الألف ليرة. فقلت له خذ ما تشاء نسبة لك واترك ما تبقى إيجاراً مسبقاً عن أشهر احسبها كما تشاء. جهز العقد سألتقيك بعد يومين.

ألن تعيدني إلى مقهى فهيم؟

لا خذ سيارة أجرة إني على عجلة من أمري.

تركته في البيت فوق بيت أبي الزيك تماماً وتوجهت إلى أم الزلوف كان لا بد من الاطمئنان إلى مارلين. منطقة الكواع تجعلك كالداخل

إلى متاهة في أعالي الجبال وهي عدة بيوت تقع على منعطفات تؤدي إلى منطقة القبة لا أعرف لماذا تسمى القبة وما من قبة فيها. رائحة الخبز وصلت إلى حواسي. حملت رغيف خبز ساخناً ودخلت الفرن لم أجد أم الزلوف. ناديتها فسمعت صوتها في المستودع توجهت نحوها كانت تستعد لحمل كيس من الحطب فحملته عنها ووضعته على كتفي وخرجت أمامها.

- يا عبدو هالأمانة ما بدك هي؟
- طبعاً أريدها لكن ليس الآن. أين مارلين؟
- مع البنات في البيت تلعب معهن كل ربع ساعه أو أكثر أذهب لأطمئن إليهن. شباك غرفتهن مفتوح اذهب وتفقدهن.

تركت أم الزلوف تطعم فرنها الحطب واستدرت إلى الخلف حيث بيت أم الزلوف ملاصق للفرن. كانت مارلين تلعب مع لميا وخالدية بدمى من قماش وحين رأتني من الشباك صرخت عبدو فاهتز قلبي. فتحت لي الباب وركضت لتعانقني. عندما أحملها وأرفعها إلى فوق أشعر أن الكرة الأرضية بين يدي. لعبت معها قليلاً وعدت إلى أم الزلوف.

- أما أم مارلين فيبدو أنها آخر أيامها لن تخرج معافاة من المستشفى يا عبدو.
- ماذا تقولين أنت؟
- للأسف يا عبدو المرض انتشر بسرعة في جسدها.

لم أستطع الكلام ما تمنيته في أعماقي يحدث حقيقة أمامي وشتان بين الأمنيات والأفعال. لم أقصد إيذاء هذه المرأة بأمنيتي لكن لم أفهم معنى حبي لهذه البنت. اقتربت مني أم الزلوف محاولة قطع صمتي. هل ستذهب لترى أبا الزيك؟

- أفكر في شراء منزل جديد لك وللبنات وتستطيعين تأجير البيت والفرن.
- ومن أين أعيش؟
- وماذا يفعل أخوك عبدو هنا؟
- ألن تتزوج ألن يصبح لديك عائلة لماذا تتحمل مسؤولية امرأة مع ثلاث بنات.
- لأنهن عائلتي يا أم الزلوف.
- فكر جيداً في كلامك يا عبدو.
- أنت من يجب أن يفكر في كلامي.
- أنت تعلم أني لن أقول لك لا.
- اتفقنا إذاً سأحاول شراء منزل لك وللبنات مع دكان لك أجهزه بكل محتوياته، ليكون لحمايتك من غدر الزمان.
- ا لله يرضى عليك يا عبدو. أخ لا يفعل ما تفعله معي لماذا كل هذا يا عبدو؟
- لأنك أم الزلوف وحبيبة قلب أخيك.

أخذت تبكي أم الزلوف، فحاولت تهدئتها بفنجان قهوة صنعته

بنفسي على الحطب أو الجمر الذي سحبته من الفرن ووضعته في موقدة صغيرة.

تركتها بعد جلسة أمتعتني والحزن في صدري على أم مارلين يزداد كثيراً فالخوف أن تموت أكبر من أن تعيش.

توجهت إلى مستشفى المظلوم بعد أن توقفت لشراء الموز والليمون والتفاح والمعمول لأبقي أبا الزيك قادراً على البقاء مع زوجته في المستشفى. دخلت المستشفى وسألت عن السيدة هيلين الأسطة فرج الله فقالت : في العناية الفائقة ممنوع الزيارات الآن. فعاودت سؤالها أريد رؤية من يبقى معها فقالت تجدهم في صالون الانتظار من المؤكد الطابق الأول.

صعدت الطابق الأول فركض نحوي أبو الزيك حالما أنهيت الدرجة الأخيرة وضعت الأكياس قرب المقعد وجلسنا وهو يبكي.

- ماذا بك يا رجل؟ الرجل لا يبكي.
- لا تصدق هذه الأزمات حين تشتد تبكي أعظم الرجال وأشدهم.
- ستشفى إن شاء الله.
- لن تشفى يا عبدو الطبيب قال لي صراحة فعلنا ما بوسعنا المرض انتشر وما من شيء يوقفه.
- لا تقلق أزمة وتمر لندع الله.

مررت على مارلين وقررت شراء بيت لأم الزلوف لتبقى مارلين مع بناتها مرتاحة بعيداً من هذا كله.

- ولماذا تتعب نفسك كل هذا يا عبدو؟
- لأنك أخي وحبيبي الذي لم تلده أمي.

اشتد بكاء أبي الزيك ولم أتركه إلى أن هدأ ونزلت للمحاسبة دفعت حسابه وتركت في الصندوق ألف ليرة أيضاً تحت الحساب ربما احتاجت إلى شيء ما وكنت بعيداً عن أبي الزيك.

بدأ الشتاء قاسياً هذه السنة وعراك العواصف يذكرني بالعراك المستمر في هذه الحياة مذ وقع أخي في البئر. لو بقي أخي على قيد الحياة لكنت أسعد الناس ولبقيت قرب أمي. ليتني أتذكر اسمه أو أتذكر اسم أبي. إلا أني أتذكر اسم أمي. كيف لم يخطر ببالي أن أسأل عن فتحية بنت زيكو الدرويش، ولكن من أسأل وأين المدينة كبيرة واسم النساء فيها لا يمكن معرفته قبل ثلاثين سنة تقريباً.

انهمر المطر قوياً وأخذت السيارة تهتز بقوة قبل وصولي إلى منطقة الهري إلا أني تابعت اختراق موجة العاصفة التي يصاحبها المطر إلى أن وصلت إلى شاليه إيلي الخنفوس. رحب بي الخنفوس أشد الترحيب وكان يرتدي سترة جلدية ويضع شالاً صوفياً حول رقبته نادى ماتيلدا فابتسمت وشعرت بالفرح يغمر قلبي جلسنا أمام البار فناولنا خادمه القهوة وبخارها يتصاعد متراقصاً فرحاً منتظراً ماتيلدا مثلي.

الشقتان أصبحتا جاهزتين واحدة فوق مقهى التوب والثانية أمامها.

- جيد جداً هذا المطلوب.
- هل أحضر السمسار إلى هنا لتوقع عقدي الإيجار؟
- لا يوقع عقدي الإيجار المدرب الألماني عند مجيئه ألم تدفع للسمسار؟
- نعم دفعت له وعقد إيجار ماتيلدا هي التي توقعه.

حسناً أخبر السمسار لاحقاً بهذا. قاطعتنا ماتيلدا.

- صباخ خير آبدو.

وقفت ومنحت يدها قبلة صباحية أشهى من قشطة الأصلع وعسل خديجة ومكمورة فريدة بالملفوف. استأذن الخنفوس في الصعود إلى غرفته، لأنه سيتوجه إلى المستودعات لتسليم صناديق الشاي إلى أصحابها وسألني عن صفقة الكسارات التي ما زلنا في انتظارها فقلت ربما تصل خلال أسبوع. أخذت فنجاني القهوة وفنجان ماتيلدا لنجلس في الزاوية الشوكولية التي أحببتها.

- أنت تخفي شهوتك ورجولتك وبوحك وتوقك فتكتم مشاعرك عن الآخرين.
- لأني أتعامل مع الكثيرين أو الأحرى الكثيرات فيجب علي ذلك.
- يخيل إليك أنك لم تعشق من قبل ربما أنت تنظر إلى مرآة معكوسة فترى صورة المرأة مقلوبة.
- أحياناً أتمنى أن تعكسي هذه المرآة.
- بالضبط.

- هل تحب الفن؟
- نعم أحب الأفلام والرقص والأغاني.
- والرسم؟
- لا أرسم ولا أعرف ما هو تماماً.
- الرسم والنحت من الفنون الجميلة التي تعطي أهمية لجمال وجود الإنسان.

كل ما يزين الجدران من لوحات وجداريات هو فن.

- شردت في صواني فريدة الزنبق وصواني القش التي تحمل الكثير من الأشكال الجميلة ألم يعلقها أهالي خربة داوود على جدرانهم؟
- بماذا تفكر آبدو؟
- لا شيء ماتيلدا أفكر في كلامك فقط.

الرموز الفنية التشكيلية الراقية تزين بوابات أهم المؤسسات في العالم ويجب دراسة أبعاد الفن التشكيلي في العالم.

- يبدوأنني لن أفهم معنى كلامك كما يجب.
- لا أبدو ستفهم صدقني، عندما أبدأ بتعليمك الرسم ونحضر معاً المعارض الفنية وندخل مزادات فيها ستتعلم. لدي مجموعة كبيرة من اللوحات في أوفنمبورغ وربما أحضرها إلى بيروت. متى نبدأ دروس الألمانية؟
- عندما تصبحين في طرابلس. التنقل أسهل بين بيتي والبيت الذي ستسكنينه لكن يجب أن تمضي عقد الإيجار.

- ولماذا الإيجار آبدو نسكن معاً؟
- هل يعقل؟
- لماذا لا نعم قال لي إيلي إنك غير متزوج بالبرنسيسة.
- نعم صحيح وهل قلت ذلك لإيلي نعم قلت ذلك ووافق على أن أخبرك أنا وإن وافقت وافق هو.
- أنا موافق طبعاً.
- جيد آبدو متى أنتقل إلى بيتك؟
- لأجهز لك غرفة فيه امنحيني أسبوعاً.

ظهر الفرح على وجه ماتيلدا، وهذا بشرني بجمال أخلاقها التي تسعى إلى اختصار المسافات ما بيننا، وربما جعلني في طمأنينة. لكن هل ستتقبل البرنسيسة وجودها؟ لا يهم قلت في نفسي يجب أخذ القرار وفرضه عليها لمصلحتينا حاولت الانسحاب مبكراً من جلسة مع امرأة أقل ما يقال فيها جمال في بساطة قروية افتقدتها مذ غادرت عكار.

لم أشك يوماً في ماتيلدا ولا في اختزال المسافة بيننا بسرعة كبيرة. وأسعدتني فكرة سكنها في بيت البرنسيسة. لأن هذا سيجعلني أكثر قرباً منها، ومن ثم أتعلم بسرعة اللغة الألمانية وكسر جليد الصقيع بيني وبينها. أكملت طريقي نحو البيت لأستحم وأشرب القهوة وأفكر قليلاً في ما هو آت وأخبر البرنسيسة بما حدث. كان عمال الهاتف في البيت فبقيت معهم حتى تم الانتهاء من التمديدات وتحققوا من الحرارة فيه.

طلبت رقم أبي الخل فجاء الجواب سريعاً ضحكت لهذا وبات يمكن للبرنسيسة الكلام مع أبي الخل ليشد أشواقها بشكل كبير ويريحني من ليالٍ تانتراوية أجمع طاقتها الحيوية فيها لأشحنها من جديد.

دخلت مكتبي بعد أن غادروا تاركاً البرنسيسة تحادث أبا الخل بحثت في المكتبة عن كتب فنية فلم أجد شيئاً. لكني وجدت كتاب الأحمر والأسود ربما لستندال، أجد في اللونين بعض ما أفهمه عن الفن. التصق بو جعفر بين ساقي محاولاً أن أعطف عليه وأحمله بين يدي. هل يشعر بحواسي فتحت قدمي أكثر فامتطى رقبتي من خلف محاولاً الإمساك بي بينما مددت ذراعي لأطوقه وأحتضنه تاركاً الكتاب يقع على الأرض. أنهى بو جعفر مشاكساته لي وعند التقاط الكتاب وجدت فيه عقد زواج عرفي بين جهاد الأصلع وفريدة، فضحكت حتى كادت مرارتي تنفجر وماذا يعني هذا الآن؟ فريدة ماتت وإن ما زالت تحيا ذكراها بي.

كاد الباب يتكسر قبل أن أصل لأفتحه ويرتمي في حضني أبو الزيك وهو يبكي بكاءً شديداً عرفت أن أم مارلين ماتت وشعرت بالأسى لذلك. لم أتكلم معه سوى بضع كلمات أيقنت فيها أنه يجب البدء بإجراءات الدفن التي لا مفر منها في هذه الحالة المأسوية التي أصابت أبا الزيك لم أشأ إخبار أم الزلوف فقد اعتادتها مارلين ولم أشأ لها أن تصاب بالحزن أيضاً. دخلت غرفة البرنسيسة وطلبت منها أن تأتي معنا للقيام بإجراءات الدفن وبعد نقل جثمان أم مارلين إلى البيت لإجراء ما يلزم.

بدا لي موت أم مارلين نعمة إلهية حققها الرب لي لتبقى مارلين تحت رعايتي ولن يفرّقني عنها الآن إلا الموت. بعد مرور أسابيع على موتها اشتريت بيتاً لأم الزلوف في القبة أمام ثكنة بهجت غانم ودكاناً صغيراً تحته لتبقى في مأمن من العوز، أما مارلين فوضعتها في مدرسة المطران المارونية مع بنات أم الزلوف وسلمت أمر الاهتمام بالبنات لشوفير خاص، فالمدرسة بعيدة من البيت لكنها بين أيدٍ أمينة. مرت الأيام بسرعة وجاءت ماتيلدا للسكن معنا. بعد عدة توصيات فرضت على البرنسيسة الالتزام بها. لأنها إن أخطأت فستأخذنا إلى حتفنا تماماً.

عندما دخلت ماتيلدا بيت البرنسيسة سألت عن التدفئة لأنها شعرت بالبرد ولم نفكر كلانا لا أنا ولا البرنسيسة في الأمر، فكان لا بد من شراء مدفأة على الغاز قبل أن يصل المدرب الألماني بعد غد إلى طرابلس والبدء بالتدريب في مستودعات القلمون. طلب الخنفوس أن نسهر معاً في بيتنا لتبقى ماتيلدا مرتاحة من التنقل كثيراً فوجدتها فرصة سانحة للقيام بجولة سياحية مع ماتيلدا في الأسواق والقلعة وشراء مدفأة حيث اشتريت أيضاً كاميرا بولارويد فورية لالتقاط الصور في المرة المقبلة عندما نكون مع إيلي والبرنسيسة والمدرب الألماني.

لزمت ماتيلدا الصمت ونحن نتحدث عن أزمة الفدائيين في المخيمات ولا أعرف كيف تطرق إليها الخنفوس وهو يجول بالكلمات في منطقة الشمال، كأنه يصفها زاوية زاوية وأنا ابن هذه المنطقة لا أعرف تفاصيلها كما استطاع تصويرها هو. إلا أنني عند لقائي المدرب

الألماني استطعت فهم بنيته الجسدية القوية وأردت أن أصبح بلياقته البدنية، فهذا يساعد فعلاً على شد بصر ماتيلدا نحوي أكثر. كانت ماتيلدا تترجم لنا ما يقوله المدرب وإن بدت لهجته بدوية قليلة وكأنه من سهل عكار، أو من منطقة وادي خالد التي تجمع لبنان مع سوريا عبر خط فاصل واحد هو خط عبور جامع كنت أتخطاه ببساطة عبر الجمال من الطريق البري. أو الأقرب للهجة الفلسطينية كالآتي من المخيمات فعلاً.

اتفقنا على الاجتماع بأبي الخل في منزلنا أيضاً. إلا أن الخنفوس قال إنه لم يره في بيته، فاتصلت به عبر التلفون وسألته إن كان بالإمكان الاجتماع به. وافق أبو الخل وانطلقنا إلى التبانة. تركنا السيارة أمام مسجد حربا ودخلنا سوق القمح حيث بيت أبي الخل. همست للحارس في أذنه الواعظ فرحب بنا ودخلنا إلى أبي الخل الذي سعى إلى مشاركتنا في التدريب هو دون حراسه بداية. فوافق الخنفوس وبهذا أصبح عددنا خمسين فرداً مع أبي الزيك. شربنا الشاي المعتق أو شاي حبر الزيتون كما يطلق عليه أبو الخل وانتقلنا إلى مطعم الدنون لنأكل الحمص والفول معاً.

المحال التجارية في سوق القمح تصطف مثل ثكنات عسكرية تلتصق بعضها ببعض في سلسلة تمتد حتى نهر أبي علي وصولاً إلى التكية التركية وفسحة فوقها هي القلعة التاريخية بعظمتها. أعجب المدرب الألماني جداً بهذا التراث وكان يحمل كاميرا فورية أيضاً

لكنها صغيرة وليست بحجم الكاميرا الخاصة بي. كنا نلتقط الصور معاً أمام كل معلم أثري أو جمالي في مدينة طرابلس. وخصوصاً جامع حربا ومن ثم جامع البرطاسي الذي دخله مصلياً حتى ظننت أنه مسلم فعلاً.

ثمة شيء عند الغربيين لا نفهمه هو إعجابهم بحضارتنا رغم أنهم ينتقدون العرب بشدة ولا أفهم هذه المعضلة في نفوسهم. لم تفارق الدهشة معالم وجهه حتى وصل إلى بيته فوق بيت أبي الزيك ومقهى التوب. تركناه في البيت بعد جولة كانت كافية لينام كل منا حتى الصباح.

وصلت إلى البيت بعد أن ذهب الخنفوس أيضاً وماتيلدا في مكتبتي وبيدها كتاب كفاحي لأدولف هتلر، فوجئت أنني لم أره في المكتبة من قبل؟ سألتها:

- من أين جاء هذا الكتاب؟
- من مكتبتك آبدو غريب كيف لا تنظم كتبك أنت تخلطها مثل البيض المخفوق.
- هههههه لم يخطر ببالي تنظيمها ولا أعرف كيفية تصنيفها.
- الأدب والسياسة والفكر والرواية وهكذا.
- هههه ماتيلدا لم أفهم الأولى لأفهم الثانية.
- ماذا تعني بهذا آبدو؟
- يعني لم أفهم ماذا تقصدين؟
- غداً أفهمك لكن هذا كتاب مهم يجب أن تقرأه. هذا النازي

هو من أحرق اليهود. رجل أحمق لم يتورع عن انتهاك حقوق الإنسان.

- ألم تنتهك إسرائيل حقوق الإنسان وطردت الفلسطينيين من أرضهم؟
- أنا لا أناقشك بالفلسطينيين أنا أناقشك بهذا الكتاب وصاحبه الذي ارتكب أكبر جريمة في العالم بحق اليهود.
- أنا سأستحم ونتكلم بعد ذلك.

استأذنتها وتركتها مع النازي هههههه لأبحث أيضاً عن بو جعفر إذ إنه على غير عادته لم يحتضني. كانت البرنسيسة مشغولة بنفسها لأن الخنفوس أخبرها عبر التلفون أنه آتٍ ليصطحبها إلى سينما الريفولي، هذا يعني أننا وماتيلدا سنكون وحدنا. سألتها عن بو جعفر فقالت إنه في غرفتك لأنه أزعج ماتيلدا فوضعته في غرفتك. ما إن فتحت باب غرفتي حتى قفز بو جعفر إلى حضني يقبلني كمجنون يرى عشيقته بعد غياب. أخذته إلى المطبخ ووضعت له الحليب والخبز ودخلت لأستحم وفي داخلي فرحة عارمة لأنني سأكون مع ماتيلدا وحدي في البيت.

كانت فريدة تقول: حين أموت أريدك حياً قوياً وقادراً على الزواج وتربية الأبناء لتكون لك عائلة، فأنا لا عائلة لي سواك بعد أن فقدت عائلتي مذ أحضرني أبو ملحم إلى هنا ولو عدت إلى أهلي بعد كل هذه السنوات سأشعر بغربة كبيرة. ما أعجب هذه الحياة حين نسعى إلى تغييرها تأبى إلا أن تحافظ على تطورها ضمن القصص المتشابهة. لقد

أخذتني الأقدار إلى فريدة ومارلين فقد جاءت بي الأقدار إليها. تبقى ماتيلدا إلى أن أعرف سر لقائي إياها. محال أن تكون بعكس ما أراها. حين أرى ابتسامتها أشعر أن نصف حياتي الثقيل قد ارتحل كسنونوة في سماء عينيها. ليس عليّ أن أكون نبياً ولا واعظاً كما أطلق علي أبونا جرجس. يكفي أن أحتفظ بشيء من الحكمة والسعادة لأكمل حياتي بعد موت أخي. كان أخي يتعارك معي ولم يفكر كلانا في الأذى الذي وقع لكنه حدث فرحل هو إلى قاع البئر وبقيت أنا أتعارك مع هذه الحياة.

استطاعت ماتيلدا أن تتخطى بداية مرحلة التآلف فكسرت صلابة اللغة بيننا حين بدأت بتعليمي اللغة الألمانية. إلا أنها لم تنس الكلام عن كتاب كفاحي لأدولف هتلر قالت: كفاخي يخلل الوضع الاجتماعي والتكوين العرقي لألمانيا والساكسون والعالم والقوميات، جعل العرب رقم ١٤ واعتبر اليهود العامل الحاسم في الحرب العالمية الأولى وانهزام ألمانيا ومعاهدة فرساي التي سلبت ألمانيا بعض أراضيها وفرضت التزامات وديوناً مالية قاتلة. كذلك حطمت جيشها الذي كان يعد مئة ألف، بل أخضعتها لعصبة الأمم لاحقاً. هتلر تمرد على الجميع وألغى المعاهدة وبنى الجيش وأباد اليهود واسترجع بولندا التي أنشئت أصلاً من أراض ألمانية محتلة. لكنه توسع كنابليون. وخالف الفاشي موسوليني وأمبراطور اليابان. كلام طويل يزهق النفس إن أكملت لك. لهذا يا آبدو يجب أن تقرأ هذا الكتاب.

كانت ماتيلدا عاصفة بكلامها فشعرت أن معالم وجهها احتقنت وتحول اللون الأبيض إلى لون سكري يميل إلى الأدكن الخفيف. بدا لي أن عينيها جحظتا أكثر. لم أعرف أن النساء عندما يتكلمن في السياسة يفقدن نصف جمالهن ويصبحن مثل ضابط في البحرية يحاول الإمساك بدفة السفينة أثناء عاصفة قوية.

لم يكن بقائي معها الليلة متحرراً من المكتبة وليتها لم تدخل. إذ بقينا كل الليل في تصنيف الكتب ما بين سياسية وتاريخية وروايات وعندما يستوقفها كتاب ما تبدأ الشرح عنه. وبو جعفر لم يهدأ، ظل يحاول استمالتي إليه وأنا في حيرة من أمري. يا لهذه السيدة التي لا تهدأ كيف سأجعلها تهتم بي.

كدت لا أعرف نفسي وأنا أتحدث الألمانية بطلاقة مع ماتيلدا التي لا تنبهر بسهولة بكل إنجاز أقوم به. كاد الغرور يقتلني وأحسست أني ألماني لولا سمرة بشرتي واللكنة المكسرة قليلاً في أحرفي الألمانية. لا أذكر مرة قالت لي ماتيلدا: اسكت يا غبي halt die klappe dumm لكنني كنت أقولها لبو جعفر : هالت دي كلابيدوم رغم أنه لا يغيظني. لكنها أعجبتني كان يقولها لي جهاد الأصلع وأعادتها إلى ذاكرتي ماتيلدا عندما سألتها كيف تقال بالألمانية فأكملت بقول تركتها لأحضر القهوة فلحقت بي قائلة لي: أين أنت مهزوم؟ فضحكت وقلت لها لم أنهزم سأحضر لك القهوة ماتيلدا. إلا أنها جلست على كرسي خلف طاولة في المطبخ وفيما أضع الركوة على النار قالت:

- في الصباح لا تشرب القهوة فهي مانعة للشهية. وتهد الحيل خذها ليلاً أو ظهراً أو عصراً.
- لو سمعتك فريدة لضحكت كانت تقول لي: الله يرضى عليك لا تشرب القهوة ليلاً.
- ني ني آبدو القهوة ليلاً تنشط المخ.
- أنت في داخلك شيطان يعبىء دماغك بشبكات مليارية غير متيقن من أرصدتها. لذلك يتجاذبك المد والجزر. فلا تعط ولا تستسلم برغم أن كل وجدانك يريد وكل جوانحك تصرخ وكل لواعجك تشتهي وكل خفاياك رغبة وكل وجودك جموح. أتظن أني لا أشعر بأنك في حالة غليان بين التمرد الوجداني على منطوياتك العاطفية وجبروت كبريائك الصاخبة. لذلك كلما طأطأت هامتك لتستسلم. يناديك هاجس الرفض، فالأشياء ما زالت أمامك أدنى من طموح وأصغر من حلم وأبخس من أن تعطيها جوانحك كلها، إنه التحدي والاستجابة.
- وكيف أفهم معنى التحدي والاستجابة يا ماتيلدا؟
- عندما تقرأ أرنولد توينبي.
- أتستفزينني؟
- لا آبدو، ألعب معك لعبة السباق إلى المعرفة وهذا مهم لرجل يحاول فهم الحياة.

شعرت أن الموج من حولي بدأ يتكسر مثل قطع جليدية تتحول إلى ماء، كان لا بد من تحويل المال المتبقي معي إلى عقارات ومشاريع علي القيام بها سريعاً، فهذه الألمانية وضعتني أمامها غير مدرك كيف سأمضي بعد ذلك. لأول مرة أشعر بأني امرأة أمام رجل. تركتها جالسة على طاولة المطبخ ودخلت غرفتي لأجهز نفسي للقيام ببعض ما يدور في رأسي.

تركت ماتيلدا مع البرنسيسة كانتا تتحدثان عندما مررت من أمام باب المطبخ مغادراً البيت ومتجهاً إلى المحامي طنوس في آخر شارع المصارف. ذلك اليوم استطعت توكيله لإجراء معاملات ضمن جزيرة النخيل لأجعل منها منتجعاً أو جنة صغيرة هي مستقري ومخزني. كانت الكثير من المشاعر تعيدني إلى فريدة والجزيرة هذه سأجعل منها جزيرة الزنبق وليس النخيل. الوقفات الأساسية التي علمني إياها المدرب الألماني أيضاً هي التي تمهد لضربات حياة تضعني أمام الكثير من الحواجز التي يمكنني القفز عنها دون أن أصاب بالوهن.

مرت الأشهر سريعة وكل يوم يزداد تعلقي بماتيلدا التي بدأت تلحظ تضخم صـدري وتكوين عضلاتي وقوتي البدنية ولغتي الألمانية. إضافة إلى إتقاني فنون القتال. إلا أن أبا الخل أخذ المدرب الألماني إلى مخيم نهر البارد والشيخ زناد لتدريب الفدائيين أيضاً. لأن مدة تدريبه لحراس الخنفوس انتهت وكان عليه تمديد إقامته، لينهي تدريب مقاتلي أبي الخل. امتنعت البرنسيسة في هذه الأثناء

عن الاتصال بأبي الخل. وأبو الزيك هجر بيته وأصبح يطيل مكوثه في غرفته ضمن المرفأ، وكلما وصلت شحنة ماعز أو غنم أو سيراميك أو كبريت وحتى كسارات يتولى هو الاهتمام بكل شيء فيها. أما مارلين فكانت تكبر وتصبح أجمل كلما زرتها عند أم الزلوف. لم أشأ تعكير مزاج أبي الزيك بمسألة مارلين وهو كان مطمئناً إلى أن أم الزلوف تعتبرها ابنتها خصوصاً وأن مارلين باتت تناديها ماما.

لم أهدأ في مسألة جزيرة الأرانب إلا بعد أن فرشتها بتراب جيد وزرعتها بنباتات جميلة وأشجار مثمرة وورود وحفرت فيها بئراً وبنيت المسابح والغرف الصغيرة لاستقبال الضيوف في مقاهٍ صغيرة. إضافة إلى مسكن لي كنت أتمشى مع ماتيلدي يومي السبت والأحد حيث نبقى معاً أنا وهي والخنفوس والبرنسيسة. أصبحت جزيرتي ملاذي الآمن وبقي المدرب الألماني في بيت أبي الزيك ومقهى التوب في شارع عزمي بعد أن انتهى عقد الإيجار.

في الواقع كنت قد بدأت أتعلق بها أكثر فأكثر وبدت لي في كل رحلة نقوم بها أني عبدالحليم حافظ في فيلم أبي فوق الشجرة والجزيرة هي المكان الذي جمعنا في جنة من ألوان وزعتها على لوحة يرسمنا القدر عليها. صعقتني عندما قالت لي: أتتزوجني يا عبدو؟ يومذاك تجمدت عروقي وأحسست للحظات بثقب جدار بيت التبان ينفتح على مسرح خيال الظل وأنا وماتيلدا نتعارك كما تعارك الأصلع وفريدة. لكن تراءى يومذاك لي وجه أخي في البئر وبكيت فاعتذرت

ماتيلدا عن خطأ ارتكبته لكني قلت لها إني أحبها وكنت خائفاً من بعدها عني. لكني لا أعرف ماهية قدراتي الجنسية لأكمل طموحها إلي. فضحكت وسخرت مني قائلة

- أنت قبضاي كما تقولون.

أنت تفترض أشياء غير مقتنع بها مطلقاً. منها أنك غير جنسي أشبه ببركان خامد يمور. ستبلغ هدفك أما الخسارات فكلها انتصارات لأن مكسب تجربة الفشل خبرة عظيمة وكأنك تقرأ عنها ولم تجربها.

- جربتها مع إحداهن لم تكن كما أريد رغم أني أسعدتها.
- لا خسارات في الحياة الفشل طريق الحياة.
- هي وجع وحزن وفقد وانهيارات.
- لماذا توحي لي أني أضغط عليك؟ متحجر أنت، عواطفي تجاهك حقيقية وليست مزورة عاطفية لن أتوسل إليك لنتزوج. لست ممن يتوسل إلى رجل من أجل حب. الحب يولد عفوياً هو تخت السعادة، الحب ينمو كالبرعم الذي يشق التربة يعانق الشمس ويشرب شعاعها وأنت لم تصب بهذا لأن الحب، بل العشق برغم أنفك أو أنفي إن أراد أن يشق رحم القلوب يشقها ويخرج.
- لا تقولي هذا ماتيلدا، سنتزوج لكن كنت أفترض أن ما بيننا صداقة.

- وما هو الحب ألا يبدأ بالصداقة؟ ساعدني على إنضاج شعور كهذا.

تركتها تتأمل انفعالاتي أو الأحرى ترصد مواقفي من خلال كلماتي ودخلت الغرفة حزيناً جداً. سبقني بو جعفر إلى السرير وملامسته لي خففت عني موجة الحزن التي أصابتني. أحسست بكل النساء اللواتي مررن في حياتي، شعرت بعشق فريدة للأصلع وبقوة حبها له ألا تشبه ماتيلدا؟ أصابتني الغفوة وتمكنت مني، بل دفعني الحلم إلى بئر أخي حيث انتشلته منها وتدافعنا وركضنا في الحقول وصحوت بحالة فرح شديدة، فتوجهت إلى البرنسيسة وطلبت منها أن ترتدي ثيابها لأننا سنذهب إلى أبي الخل ونعقد قرانها وقراني معاً وليبلط البحر إيلي الخنفوس. أصابتها الدهشة، لم تصدق أكملت نومها فأمسكت يدها وسحبتها من فراشها مطالباً إياها بالالتزام بما قلته، توجهت إلى غرفة ماتيلدا وأيقظتها بقبلة دافئة على خدها فشدتني إليها وافترشتني بسرعة البرق وضحكت قائلة:

- سنتزوج صحيح؟
- نعم سنتزوج اليوم.
- ماذا مجنون أنت؟ يجب أن نتزوج في السفارة الألمانية.
- ولماذا السفارة؟
- للأوراق الرسمية أفضل ولتسهيل المعاملات لاحقاً عند سفرك إلى ألمانيا معي.

- نتزوج الليلة عرفياً عند الشيخ ومن ثم نتزوج لاحقاً كما تشائين؟

لم أتصور موافقتها على جنوني، خرجنا فوراً واتجهت إلى المرفأ لأحضر معي أبا الزيك وهو كعادته يمسك المنظار منتظراً سفينة الشحن القادمة من رومانيا والتي تحمل السيراميك. لم يصدق بداية وظن أني أمازحه إلا أنه ارتدى سترته الرمادية وتوجه معي إلى السيارة وحين رأى البرنسيسة وماتيلدا شهق بصوت عال وضحك.

- ستتزوج المرأتين يا عبدو؟
- هههههه لا طبعاً سأزوج البرنسيسة لأبي الخل.
- سيغضب الخنفوس.
- يبلط البحر إذا فيه.

كان يوماً حافلاً بالمفاجآت لأني لم أجد أبا الخل. قال لي الحراس إنه في المخيم مع المدرب الألماني. اتجهنا إلى مخيم نهر البارد وماتيلدا تكاد تتجمد من إصراري على إتمام الزواج اليوم. وصلنا إلى المخيم فرحب بنا أبو الخل متمنياً أن نتغدى معه. ونحن نتناول شيخ المحشي بالبندورة والصنوبر سألني:

- ما الذي جعلني أحضر معي البرنسيسة وماتيلدا.
- جئنا لنتزوج.
- مجنون أنت من المؤكد.

- لا لست مجنوناً أحضرت لك البرنسيسة وهي لك وموافقة وأنا سأتزوج ماتيلدا.

نظر إلينا بجمود كالذي أصابه المس أو أصابته صدمة ما لكنه بعد دقائق حين ابتسمت البرنسيسة نادى من حوله من رجاله وطلب منه إحضار الشيخ أبي البراء.

انتظرنا جميعنا أبا البراء ليتمم عقد قراننا وأتى حاملاً دفتره متمتماً بكلمات لم أفهمها. نسيت أم الزلوف ولم تخطر ببالي إلا بعد أن أنهى أبو البراء عقد القران. غرست ماتيلدا شفتيها في شفتي فارتجفت وتسربت القشعريرة إلى جسدي. بت أحتاج إلى ليلة تانتراوية لا تنتهي. مرت ثمانية أشهر على وجود ماتيلدا في لبنان والمدرب استطاع تدريب الكثيرين من الفدائيين. لكنه غالباً يمضي أوقات فراغه في مقهى التوب.

وصل المدرب الألماني وأبو البراء يستعد للذهاب، فاستغرب وجودنا قائلاً الأحبة تجمعهم دائماً المصادفات. فضحكت ماتيلدا وأخبرته بزواجنا ولم أشعر أنه فوجيء بذلك. أكملنا شرب الشاي فيما دخلت البرنسيسة إلى غرفة أخذتها إليها المرأة التي قدمت الشاي وبعد قليل جاءت مرتدية العباءة الفلسطينية وهي تضحك.

اتركها هنا من فضلك يا عبدو واذهب الله معك.

نظرت إلي البرنسيسة مبتسمة، وقالت:

- لم أتوقع أن يحدث هذا في يوم من الأيام. أنا أتزوج أبا الخل أخيراً.

- هذا هو إحساسي أيضاً يا ليلى الشكر كل الشكر لعبدو.

- لا بل الشكر لماتيلدا التي استطاعت إشعال فتيل ما حدث.

ودعناهما وتوجهنا إلى جزيرتنا في مركبنا الصغير الذي تركناه عند السنسول. وما إن وصلنا إلى الجزيرة حتى أصبحت ماتيلدا كحورية البحر. وقصدت بركة السباحة الخلفية لغرفتنا التي سننام فيها. في السابق كانت تنام فيها وأنام خارجاً أما اليوم فسيجمعنا السرير الواحد الذي كنت أراه كمسرح يجمع الهيبة والشيطنة معاً.

حرصت ماتيلدا على البساطة في لقائنا كزوجين في ليلة ربيعية تهب نسائمها على سرير ملأته بالحركة، شعرت للحظات أن السرير سيصاب بدمار شامل وربما أنا معه أيضاً. بقيت خائفاً من قبضة يدي التي تتكور كلما اعتلتني. إلا أنها سرعان ما تهدأ عند ارتخاء فكي. لكن لم أستطع منع نفسي من البكاء فهدأت وحاولت مسح وجهي بالماء. لم تسألني لماذا البكاء لكن أخبرتها بحادثة أخي وشعرت أني رميت أحمال سفينة كادت تغرق من ثقل حمولتها.

- كيف لم تعرف من تكون كل هذه السنين آبدو.

لم أتكلم شعرت أني أختنق. أحضرت غليوني الكرزي من حقيبتي الخاصة وحشوته بالتبغ وخرجت أتمشى في الجزيرة والبط من حولي في البرك الصغيرة يشتهي بعض فتات الخبز التي أرميها له عادة. وها هي الأرانب تحاول الخروج من خلف السور، لولا وجود ماتيلدا في حياتي لكنت الأقوى ربما الحب يصيبنا بالضعف أكثر

فيصبح الوقوع في فخ الحياة أمراً يسيراً حتى لمن يسور حياته بالأسرار فلا يبوح بما في بئره.

هكذا أنا غريب حتى يوم زواجي بامرأة جعلتني سعيداً وقادراً على الإحساس برجولتي. لحقت بي ماتيلدا. بإشارة من يدها فهمت أنها تناديني لألحق بها إلى البار الإفريقي الذي صممه لي المهندس عبدالستار وهو ركني الأحب إلى قلبي. عرفت عبدالستار منذ زمن طويل عندما قرر الأصلع إعادة ترميم المنزول في قرية خربة داوود وطلب مني يومذاك إحضاره من قرية عمار البيكات حيث يسكن. كان مستعداً لتلبية طلبات أبي ملحم كلها، فهو مولع بالأنتيكات الدمشقية. إذ كان يرسله الأصلع ليحضر الأنتيكات من الشام خصوصاً ليكون منزوله الآخر جاهزاً لاستضافة الصيادين من طرابلس. فصيد السمن والفري والمواسم الأخرى لم أرافقه بها قط كانت من مهام عبدالستار حتى غدا مستشاره في الصيد والتنقل في الكروم مع ضيوفه في المواسم ولم أهتم بهذا يوماً. لكن بقيت لمسات عبدالستار توحي بجمال قروي أفتقده في هذه المدينة التي تغلبني دائماً.

تبعت ماتيلدا وهي تسكب الجعة في كؤوس كبيرة وأخذت ترقص على وقع موسيقى عمر خورشيد. لا أعرف كيف وجدت هذا الكاسيت تحديداً الذي أحبه جداً رغم أننا لم نسمعه معاً مذ عرفتها. بقينا معنا أسبوعين ومن ثم قررت المغادرة إلى ألمانيا على أن أتبعها بعد أن تجهز أوراقي كاملة.

لم أعارض فكرتها وهي تغادر جزيرة النخيل التي قررنا تركها لتبقى مفتوحة للزوار أو لتبقى لأبي الزيك إن شاء. كان الحنطور الذي ركبت فيه بعد خروجها من المركب الصغير هو من سيوصلها إلى كراجات الأحدب لتنطلق إلى السفارة الألمانية لتنهي بعض المعاملات قبل مغادرتها بعد غد.

لم يكن قد تبقى لضمان الجزيرة من الدولة سوى سنتين وينتهي ضمانها، الطريق إليها ممتع وجميل ولا بد من نقل كل حاجاتي من هناك ولتبق الحيوانات ربما تتكاثر وتصبح أكثر جمالاً بعد مغادرتي المكان. الأرض الممتدة في الجزيرة بعضها في جوفه أسلحة يجب نقلها وإدخالها إلى المخيمات قبل عودة ماتيلدا ليلاً توجهت إلى أبي الزيك وجلسنا ساعات معاً نتحدث عن الأسلحة سيتم توزيعها في غيابي ويجب أن لا تعرف ما تيلدا شيئاً عن هذا.

لم تكن هذه الليلة تشبه سواها. إذ انتظرنا عتمة الليل ونبشنا الأرض تحت شجرات النخيل واستخرجنا صناديق الجبن والأسلحة وتسللنا في المركب دون أن نترك أي ضوء يصدر عن المركب إلى أن وصلنا إلى مرفأ البداوي. كان في انتظارنا بعض الرجال غطس أبو الزيك وسبح باتجاههم بينما كنت أجلس على الصناديق. توجهوا مع أبي الزيك إلى المركب وأخذوا الصناديق. هذه سبحة من أبي الخل على أن يلتقيك في زقاق الزعبية.

تحولت الجزيرة إلى محمية فقد أخليتها من الأسلحة والجبن ونقلت أغراضي بمركبي الصغير وانتقلت إلى شقة الأصلع أو

البرنسيسة لا أعرف أو ربما شقتي لكني لم أشأ قول أي شيء عن ذلك للبرنسيسة. كان بالإمكان نسيان مارلين كل هذه الفترة لأني انشغلت بماتيلدا التي بدأت تأخذ من تفاصيل حياتي الكثير. أما بالنسبة إلى الأموال التي سيدفعها أبو الخل فقررت تحويلها إلى بنك جمال لتبقى ضمن الاحتياطي الخاص بي.

اكتشفت أني خلال كل تلك الفترة التي عرفت فيها ماتيلدا لم أكن أفكر كما ينبغي أو الأحرى كالسابق يبدو أن «الحب بينسي الدب عن عليقوا » تجاوزت فكرة السفر إلى ألمانيا بزيارة مارلين التي كانت تكبر بسرعة مع أنها لم تتجاوزالسنوات الخمس. حاولت استرضاء أم الزلوف لأني أهملتها في فترة وجود ماتيلدا في طرابلس، صحيح أنها لم تغادر بعد لكنها ستسافر إلى ألمانيا بعد غد. ثمة الكثير من الكلام في عيني أم الزلوف لكنها تدرك مدى اهتمامي بها بعد كل هذه السنوات التي مرت علينا. بمجرد أن تترك لعينيها السباحة في معالمي أدرك أنها ستسألني عن مارلين إلى متى ستبقى معها لأنها تعلقت بها ولن تستطيع تركها أبداً فأصمت. نظرت إلى الساعة وجدتها الخامسة وكان موعدي مع ماتيلدا في الخامسة والنصف في كراج الأحدب عند ساعة التل. وصلت إلى هناك في الخامسة والنصف تماماً لم تكن قد وصلت بعد. طلبت فنجاناً من القهوة ووقفت أشربه ريثما تصل.

أثار تأخرها مخاوفي وغضبي ولم أعد أستطيع الانتظار. عدت إلى البيت في الساعة الثامنة ودمي يغلي. كان بو جعفر في انتظاري مسترخياً على السجادة في حجرة الاستقبال. حاولت الاتصال بأبي الزيك لعله

يستطيع معرفة أحد في السفارة الألمانية لأسأل عنها. لكن لما كان الرقم مشغولاً تكورت يدي فما عدت أشعر بها. دخلت المطبخ لأشرب كوب ماء. رن الهاتف فعدت سريعاً رفعت السماعة وإذ بماتيلدا تعتذر عن تأخيرها بتمتمات زادت من تدفق الدم في عروقي حتى كدت أكسر سمّاعة الهاتف.

- خبيبي روق اضطررت إلى البقاء في بيروت، يجب أن أجهز لوحات للشحن إلى ألمانيا قبل سفري غداً.
- لماذا لم تخبريني بذلك؟
- لأني ظننت أن الوسيط هو المسؤول عن ذلك؟
- ومن يكون هذا البغل؟
- عيب آبدو تهذب أسافر غداً وأهاتفك عند وصولي إلى ألمانيا انتبه لنفسك.

تركت البيت غضباً ولم أتذكر بو جعفر إلا بعد أن وصلت إلى المرفأ حيث أبو الزيك منشغل بتفريغ حمولة السيراميك لتاجر بتروني. طلبت منه مرافقتي إلى مقهى النغرسكو لنشرب قهوة معاً لم أشعر بقوة قدمي على دواسة البنزين إلا عندما اصطدمنا بسيارة شيفروليه خرج صاحبها منها غاضباً مقاتلاً، فلكمته بقبضة يدي التي تكورت وما شعرت إلا ويدي تلتف على عنقه. أبعدني أبو الزيك بقوة عنه معتذراً منه ومحاولاً تسوية الوضع معه وخصوصاً أن الحق علي فسرعتي كانت كبيرة. انتهت المعركة بعد مغادرة صاحب الشيفروليه وعيناه

تقدحان شرراً متوعداً بقتلي أو رميي للأسماك في البحر. تمنيت لو أستطيع وضعه في البئر.

- ماذا حدث لك؟
- ماتيلدا لم تأت ستسافر غداً إلى ألمانيا.

هذا من يتزوج بأجنبية يصب بخيبة رجولة.

كدت أصيبه بلكمة على وجهه لكني ضربت الطاولة إلى أن سال الدم من قبضة يدي. أمسك أبو الزيك يدي وطلب لي فنجاناً من اليانسون لأهدأ محاولاً مسح يدي بقميصه.

- ما كل هذا الجنون اهدأ يجب أن تفكر، ما تعلمنا الكاراتيه لنضرب العالم.
- نسينا المدرب الألماني يجب أن نمر عليه اليوم للقيام بجولة في طرابلس.
- قم أنت بالجولة يا حبيبي أنا عندي شغل بالمرفأ بدك يطردوني؟
- أنت غريب الأطوار فعلاً. يجب أن تكون معنا.
- اهدأ أولاً ويا أخي الأجانب هيك مش متلنا لازم تستأذن زوجها.
- لا أعرف ما أفعله وقد أغلقت الخط ولا أعرف كيفية الوصول إليها.
- انتظر اتصالاً منها بعد وصولها إلى ألمانيا.

- حاضر أبو الزيك.

كان أبو الزيك يريد العودة إلى المرفأ نظراً إلى وصول باخرة الكبريت التي يريد تفريغها مع عماله ولم يفكر في الزواج بعد أم مارلين.

اشتقت إلى مارلين.

سار أبو الزيك متجهاً نحو غرفته في المرفأ وأنا أنتظر إيلي ليخرج من مبنى الجمارك بعد تخليص الأوراق ليتم توزيع البضاعة كالعادة وبيده سيجار بحجم أصبع ديناميت، وضعت حبات من العلكة في فمي وهو ينفخ دخان سيجاره فيصطدم بزجاج السيارة مرتداً إليه متلاشياً كغيمات غضبي. هناك امرأة تدعى ناديا أريدها بدل البرنسيسة التي خطفتها مني.

- لم أخطفها منك هي تزوجت حبيبها الأول، المرأة لا تنسى الحب الأول بسهولة.
- يا أخي أنا شبعت منها أصلاً عندما ترى ناديا ستعرف كم هي مختلفة.
- احصل على تفاصيل عنها لأستطيع إحضار عروس البحر لك.
- مد يده إلى جيبه وأخرج منها ورقة مكتوب عليها تفاصيل ناديا مع صورتها وقال: هذه هي البطة التي أريدها في بركتي.

نزلت مهرولاً من منزل المدرب الألماني الذي بدا غامضاً بعد وصولنا إلى التبانة الأكثر صخباً من بقية المناطق في طرابلس. عدسة التصوير في يده كمراسلي الحروب ومشهد الباعة يمتد من البحصة بعد النزول من التكية التركية حتى زقاق الزعبية حيث أبو الزيك في تكيته الفدائية الأخرى وعلى طول نهر أبي علي. لم يتكلم قط تاركاً عدسته تلتقط كل ما وقع بصره عليه. حاول أحد الحراس أن يأخذ العدسة منه لولا أني استطعت منعه لكسرها له. دخلنا بيت أبي الخل ولم أسأله عن البرنسيسة لمعرفتي أنه يمنع منعاً باتاً في هذه الأماكن السؤال عن زوجة أحد.

غير أني أشتاق إلى تلك الفأرة التي اختبأت في أحضان أبي الخل وما عدت أراها. عرفنا منه أنه قرر البدء بتدريب الفدائيين الآخرين في الشيخ زناد الواقعة على أطراف السهل في عكار وغداً يريد مني أبو الخل اصطحاب المدرب الألماني إلى الشيخ زناد. لعب بسبحته قليلاً فذكرني بسبحات احتفظت بها ما زالت في بيت فريدة الزنبق. لعب المدرب الألماني بخصلات شعره وهو يتناول فنجان قهوته المرة محاولاً تصوير جلسة أبي الخل بعد أن سمح له بذلك ليبقيها للذكرى.

خرجنا من زقاق الزعبية باتجاه بولفار فؤاد شهاب ومن ثم إلى شارع عزمي. قضى جلوسه معي في السيارة صامتاً حتى صرخ فجأة جميل هذا المبنى. أدهشني وفي الحال امتدت يده إلى العدسة وعاد إلى تصوير الكثير من المباني التي مررنا بها.

مر اليوم كله مع المدرب الألماني المنشغل بعدسته والذي وترني إلى درجة أنه طلب تصويري مع رجل التقيناه في مقهى التوب الذي يملأه ضباب التبغ والنراجيل وأصوات الفناجين المختلط مع صوت صباح.

تركنا المقهى ولم يترك عدسته أقله لثوانٍ كي لا تتعرق من أصابعه. لكنه دفعني إلى الكلام على ماتيلدا، فشعرت بالحرج للكلام على زوجتي مع هذا الألماني المزدوج الشخصية، لا أعرف أهو مخنث أم مدرب كاراتيه، شعرت بأبي الزيك لحظات يبدو أننا نحن الشرقيين نخاف على المرأة أكثر من خوفنا على أنفسنا، والمرأة التي نتزوجها تصبح قديسة لا نحب الكلام عليها، بل الصمت في حضرتها هو خشوع للأنوثة الطافحة منها. كدت ألكمه وهو يحكي عن معرفته بها عند الخنفوس وهي إنسان تميل إلى الشرق ومعظم رسومها عن الخيول العربية. ألقى بهالة من الاحترام على ماتيلدا. لكني تركته أمام بناية الحلوة فوق سندويش أبي خضر وتركت السيارة أمام محال نوفوتيه معاليقي. لكن دخلت غاليري سمعان في بناية البابا لأشتري مكتبة كبيرة أضع فيها كتب الأصلع قبل أن أنتقل من بيت البرنسيسة، فأعطاني بعض الصور لأختار ما أشاء ووفق المقاييس التي أريد. اخترت ثلاث مكتبات لونها كرزي غامق.

كانت مارلين طفلة في الثالثة من العمر وليتها تصبح كبيرة بما يكفي

لأطمئن إليها وأجعلها ملكة. الآن أدرك كم أحبتني فريدة ومنحتني قوة في الحياة حين وضعتني تحت رعاية الشيخ مرزوق لأتعلم الكتابة، أحسست بقوة وأنا أتأمل مشهد شارع عزمي من نافذة بيت أبي الزيك. خلوالشارع من المارة قبل أذان الفجر يوحي بالخشوع. كان المدرب الألماني يقف تحت شجرة على رصيف يوحي شكله بالكآبه إلا أن زرقة عينيه تجعل من النهار يطل على خوف جعلني أبحث عن سر السيارة التي مرت وحملته إلى مكان ما. لم أبح لأحد بما رأيته كان لا بد من مراقبته. قضيت النهار بين منطقة التبانة ومنطقة الكواع حيث فرن أم الزلوف سابقاً. قررت فتحه بعد أن أغلقته قبل رحيلها. في المخزن تحت الأرض كل شيء ساكن أخذت الأكياس من بين أكياس الحطب ووضعتها في مؤخرة السيارة وانطلقت إلى سوق القمح لأشتري أكياساً من البرغل والقمح واستمتعت بالمحال الحجرية العتيقة.

نصف وقتي من النهار حتى أذان الظهر وأنا مشغول بوضع الأموال في أكياس لأضع فوقها البرغل والقمح وأتركها في المطبخ في بيت البرنسيسة. كان يجب أن أترك بيت البرنسيسة وأسلم المفتاح إلى أبي الخل ففي النهاية هذا بيتها.

عندما التقيت أبا الزيك من بعد الظهر طلبت منه مفتاح بيته بشكل دائم لأسكن فيه موقتاً قبل مجيء ماتيلدا. وافق على الفور إلا أنه مازحني قائلاً :

- بدك تورثني قبل ما موت؟
- أنا ومالي تحت أمرك يا أبا الزيك أنت أخ ما أنجبته أمي.

صمت فوراً وأشاح بوجهه إلى إبريق الشاي على البابور الذي يهدر مذ دخلت من ثم أخرج سيجارة من جيب سترته وبدأ يمتصها بقوة ويخرج دخانه من بين شفتين غليظتين تشتدان عند الغيظ والقيظ.

- شو يا ما عاجبك كون أخوك الهيأة؟
- لا أبداً أنا متوتر وخائف على مارلين كيف ستكبر دون أم؟
- اشتقت إلى أم الزلوف؟
- أبداً إلى متى ستبقى مع أم الزلوف؟
- أم الزلوف لن تجد أفضل منك ويا أخي المرأة تعبت وحدها هي أختي ولن ترفض لي طلبي.
- تحكي جد؟
- كل شيء يمكنني أن أمازحك به إلا أم الزلوف هذه امرأة عظيمة جداً.
- لماذا لم تتزوجها أنت؟
- هل تجدني مؤهلاً للزواج بها؟
- حقيقة لا لكن تزوجت ماتيلدا فماذا تسمي هذا؟

ماتيلدا في النهاية ليست ابنة بلدي إن تركتني ورحلت فلن أحزن وإن أحببتها. أضف أني عرفتها في بيت الخنفوس وهذا يعني القدر وحده يعرف سر لقائي إياها تريدني أن أدمر أم الزلوف وأنا ما معروف قرعتي وين بتصير؟

- فاتحها بالأمر إن وافقت فأنا موافق.
- سأفعل عندما أزورها من أجل رؤية مارلين.
- نزورها معاً يوم الجمعة صباحاً.
- إن شاء الله.
- تهاوت أوجاعي وخوفي على مارلين عندما أنهيت حديثي مع أبي الزيك وأدركت أن مارلين ستكون بمأمن أكثر بعد زواج أبيها بأم الزلوف، فأنا لا أعرف ماذا يخبئ المستقبل لي لكني مطمئن إلى مارلين أكثر ستكبر بين أم وأب وتكون امرأة مختلفة.

في بناية الحلوة فوق سندويش أبي خضر يقع بيت أبي الزيك وفوقه بيت المدرب الألماني الذي استأجرته له من اليخني. لا بد من مراقبته هذا.

ربما! أكون قاتلاً لكني لست بخائن
لوطن ولدت فيه.
هذا أنا ربما غريب في عدة أمكنة لكني
لست سجين الخيانة.

وصلت البرنسيسة مع أبي الزيك إلى البيت الساعة التاسعة صباحاً وتأخرت أم الزلوف مع أبي الزيك ساعة أخرى. كنت قلقاً مع بو جعفر، فالباخرة أنطوانيت تنتظرنا ولا بد من المغادرة إلى قبرص قبل أن يكتشف أحد شخصية المدرب الألماني. ارتعبت البرنسيسة أثناء انتظارها أم الزلوف ولم تستطع الجلوس على الكنبة، كانت تتنقل من شباك إلى شباك إلى أن وصلت أم الزلوف ومعها البنات. أرادت أم الزلوف أن أبقى في بيتها قرب ثكنة بهجت غانم في القبة، لكني رفضت سأبقى إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً. أنا المسؤول فقط عن هذا المدرب وأنا أتحمّل المسؤولية وحدي اهتموا بأنفسكم وبالبنات والمال معكم يكفي أعواماً.

عانيت حزناً عميقاً ولم أترك شعوري يصل إليهم. انطلقنا إلى الميناء وبدا اليخني مستعداً ليأخذنا إلى آخر العالم. إذ زدت على ما طلبه ألف ليرة شرط تأمينهم تأميناً كاملاً إلى أن يصلوا إلى قبرص. بعد ساعات أربع من الانتظار، انطلقت الباخرة ترفرف بدخان عانق الموج وهو يتلاشى وعدت أدراجي وحيداً كما كنت يوم أتيت طرابلس من عكار واتجهت إلى قوى الأمن وبلغت عن هذا الجاسوس الإسرائيلي. شعرت براحة كبرى لم أشعر بها من قبل وطلبوا مني أن أحافظ على مواقفي معه تماماً وأنسى ما قلته لهم هنا. هم سيتصرفون عدت من مركز الدرك في الميناء منهكاً فكرياً أحتاج إلى ليلة تانتراوية ما قامت بها امرأة من قبل. كانت أصابعي هي التي تعزف على أجسادهن. أما هن فلم يتقن فن التدليك التانتراوي.

وقفت أمام بناية البابا عند غاليري سمعان أتأمل المبنى المؤلف من عدة طوابق فرأيت سيدة تنظر إلي من الطابق الثالث. أحسست بالتوجس من نظراتها فتوجهت إلى بيت أبي الزيك. ثمة أماكن نشعر أننا ولدنا فيها. رائحة مارلين ما زالت عابقة في كل زاوية فيه رغم رطوبة المكان ورائحة العطن التي تفوح منه. فتحت الأبواب والشبابيك لتدخل الشمس قليلاً وأستطيع البقاء فيه ليلاً سأحضر بو جعفر صديقي الحنون وأعود إلى البيت غداً فالاتصال الهاتفي من قبرص ومن ألمانيا ربما يصل فجأة. أنهيت فتح الأبواب والنوافذ وخرجت من منزل أبي الزيك متوجهاً إلى بيتي في شارع بورسعيد بعد أن أقفلت باب

الشقة جيداً. في أي حال لقد نسيت بو جعفر ولا بد من إبقائه معي في جميع تنقلاتي لن أتركه وحيداً أبداً فيما بعد.

أتذكر أنني في بيت فريدة لم أشعر بالوحدة قط ولم أشعر يوماً أني دون أم. ربما أكون قاتلاً لكني لست بخائن لوطن ولدت فيه، هذا أنا ربما غريب في عدة أمكنة لكني لست سجين الخيانة.

هاجمني بو جعفر عند دخولي وعانقني بشدة إلا أنه لم يرفع ذيله وهو أقل استعداداً لاستفزازي أو إثارة غضبي. كان يشير إلى التلفون وهذا يعني أنه رن. ربما هي ماتيلدا أو أبو الزيك ليطمئنني إلى أنهم وصلوا. ثمة كتاب على مكتبي مازال ينتظر قراءتي له. لا بد من الاستحمام وتجهيز الغليون لسهرة أشحن فيها همّتي لأكون مع دحام على أكمل وجه لا تسأليني لماذا اخترت له اسم دحام؟ ربما! لأنه الاسم الأكثر تداولاً في قرية الشيخ زنّاد الواقعة قرب البحر وشخصيته الثعلبية توحي بهذا الاسم. إلا أنه الثعلب الغبي، بل الأكثر غباوة على وجه الكرة الأرضية تتكور قبضة يدي التي أصبحت بقوة ضربة ألف رجل معاً.

اتحدت الأفكار في رأسي وأصبحت قابلة للانفجار في أي لحظة لا بد من وضع الأموال في بنك لبنان وسوريا باسمي غداً صباحاً قبل لقائي ظهراً دحام أفندي لأعرف «قرعة أبوه من وين» يبدو أن الخنفوس على معرفة بهم وهذه السيدة في الطابق الثالث يجب أن أقصدها وأتعلل بسؤالها عن أي شيء أفكر فيه لاحقاً. أخرجت الأموال من

أكياس البرغل والقمح وبقيت الأموال على السقيفة في بيت البرنسيسة حملت الأكياس وأومأت برأسي لبو جعفر ليلحق بي أغلقت الباب جيداً ونزلت على الدرج بهدوء لعل السيدة في الطابق الثالث تتبعني. إلا أنني أخطأت ذلك. توجهت بالسيارة إلى بيت البرنسيسة، وتركت بو جعفر بالسيارة لأحضر بقية الأموال من السقيفة.

أحضرتها بسرعة ورائحة العطن أيضاً تفوح منها وضعتها في أكياس من ورق واتجهت إلى بنك لبنان وسوريا في ساحة النور. أنهيت المعاملات وكان لا بد من العودة إلى دحام لأكمل صباحي بهدوء معه ولأبقى قربه إلى أن أعرف هويته الأساسية.

كانت نادية في العشرين من العمر وهي امرأة على جمال عربي باهر سمراء بطعم الشوكولا المر كلما تذوقت منه شعرت بلذته في حواسي كلها. تقضي وقتها في اللعب بأظفارها القصيرة وإن شردت قضمت من ظفر الإبهام ما يتركه كالأصلع تماماً. هي مع الخنفوس مذ غادرته البرنسيسة، لكنها امرأة ذكية لم يطأها الأصلع. هذا أسعدني ولم أشعر مع ماتيلدا بهذا من قبل. كأن ماتيلدا ولدت لي رغم أنها عرفت الكثير من الرجال قبلي. لكني أثق أني أفضلهم ولن تستطيع البقاء دوني ستأتي لا محالة. عندما أتحدث مع الخنفوس تدور حولنا مثل بوجعفر تماماً قضيت نصف حياتي إلا قليلاً في هدر زمني ما بين البارود والجبن وجمع الأموال ولم أكن عاطفياً إلا مع مارلين وأم الزلوف، ربما! أعطيت البرنسيسة بعض شحنات من عاطفة، لكني كنت بحاجة

إليها لأكمل مسيرة تركني فيها الأصلع كالابن الضال، ولا بد لي من شراء بعض أرضه في القرى لأبرهن لهم أن الفقراء يمتلكون الأراضي فعلاً والزمن الغدار الذي مر لن يعود أبداً.

في المرفأ شعرت بالفراغ الكبير بعد أبي الزيك ولم يكن الزنجي يكفي ليفهمني، فالشحنة هذه المرة مهمة ولا بد من الانتباه عند وصولها ليتم تفريغها دون متاعب تذكر مع مدير المرفأ. إذ يجب تفريغ حبوب الجبن في مركب صغير قبل أن تصل البضائع إلى أرض المرفأ بهذا نبقى في السليم. قررت تأليف مجموعة من الغطاسين الماهرين ليكونوا على أهبة الاستعداد للغطس في حال حدوث أي متاعب، ولا بد من وصول البضائع إلى المخيم ليكون السبع والفدائيون مستعدين لأي مواجهة تحدث بسرعة مع إسرائيل. شعرت أن الأصلع كان وطنياً وما فعله هو للإبقاء على هويته العربية نظيفة صافية من أي احتلال. لكنه لم يخبرني بشيء طوال وجوده معه. شعرت بالقوة التي وضعها بي هذا الأصلع الذي بات يشعرني أنني كنت ابنه وخليفته ولكني لست من ملاك الأراضي.

هبت موجة من القيظ على طرابلس في شهر آب من سنة ١٩٧٣ ولم أحتمل وجودي على المرفأ دون أن أمرح بجولة غطس افتقدت فيها أبا الزيك. عانيت الهموم في سفرهم لم يتصلوا ولم تتصل ماتيلدا والغطس جنح بي إلى سباحة بعيدة وصلت فيها إلى أطراف ساحل قرية المنية وخرجت من هناك بثياب الغطس جلست على الشاطئ قبل

الفجر أتأمل الأضواء وسكون الليل المهيب قبل أن أعود أدراجي إلى المرفأ وخرجت من هناك إلى بيت دحام. كنا على موعد هناك لنكون في سهرة عند الخنفوس كان يرتدي بنطلوناً من القماش لونه أسود وقميصاً رمادياً صعد إلى السيارة واضعاً حقيبته السوداء في الخلف. سيطرت على قبضة يدي قدر الإمكان إلا أنها تشجنت قليلاً.

كانت ناديا بانتظارنا وقد ملأتني راحة لي بصمتها ولقضمها أظفارها. غالباً ما تصمت عندما أنظر إليها بعيني نمر شرس. اعتذر الخنفوس وضربني بخبر سفره غداً تاركاً ناديا مكانه لتصريف أعماله في لبنان معتمداً عليها في كل شيء.

- ما الأمر لم تخبرني بذلك من قبل؟
- لم تعد تحلو الحياة هنا دون البرنسيسة.
- أتريد مني أن أصدق هذا الكلام؟
- نعم إن أردت.
- وتسافر تاركاً تصريف الأعمال لناديا؟
- هي امرأة ذكية تستطيع تصريف أعمالي وقد منحتها وكالة عامة عن كل شركاتي هنا. أما المدرب فالحساب وصله والعقد معه انتهى بعد تدريبه حراسي.

لم يتكلم دحام، بل اكتفى بالنظر إلى الخنفوس برهة قصيرة قال بعدها: سأبقى هنا أسبوعاً وأغادر إلى بلدي، يجب أن أنهي بعض التدريبات في الشيخ زنّاد وأحصل على أجرتي ثم أغادر إلى ألمانيا.

فوافق الخنفوس وأنهينا السهرة متمنياً للخنفوس السفر الممتع. راح فكري إلى هروبه السريع، ولكن كنت مطمئناً إلى أن المحقق الذي أخبرته بشكوكي في دحام يقوم بالمهمة، كنت أشعر أني مراقب معه ولا بد من الهدوء والتصرف بحنكة وحكمة. وصلنا إلى شارع عزمي الممتد والمزين بالمحال التجارية، فوجيء دحام حين ركنت السيارة أمام محل سندويتش أبي خضر لأصعد معه إلى البناية، فسألني إلى أين ذاهب يا عبدو؟

- إلى البيت.
- أي بيت تصعد إليه.
- بيت صديقي أخذته منه قبل سفره لأسكن فيه، صديقي أبي الزيك.
- أعرف البحار أبا الزيك لكنه يسكن في المرفأ وغالباً ما يأتي إلى هنا منذ وفاة زوجته.
- كيف عرفت بوفاة زوجته؟

تلعثم ومن ثم قال أخبرني القس الذي يسكن في الطابق الثالث بذلك.

بدا لي أنه يعرف أكثر مما أعرف بكثير وهذا أصابني بالغم كيف لم أنتبه أنه ربما يجمع بعض المعلومات عني وعن تهريبي مادتي البارود والجبن يبدو، أني هدفه والخنفوس سيسافر وأنا سأقتل لا محالة بعد سفره، فعلها هذا الخنفوس وأوقعني في المصيدة، لا بد لي غداً من تحويل أموالي من بنك جمال إلى بنك لبنان وسوريا.

حمدت الله أنني استطعت إرسالهم إلى قبرص قبل أن أقتل أو يقع ما لا تحمد عقباه المهم أن مارلين تكبر آمنة بعيداً من كل هذا. دخلت إلى البيت مع بو جعفر تاركاً دحام يصعد درجات بقيت له ليصل إلى بيته وسمعت وقع خطواته فوقي فعلمت أنه دخل. تركت بو جعفر على كنبة قفز عليها لينام ودخلت المطبخ لأصنع القهوة. أفتقد في بيت أبي الزيك مكتبة أقرأ كتاباً منها يساعدني على النوم لا بد من إحضار بعض الكتب غداً. لكن بعد تحويل الأموال.

استيقظت فجراً تلك الليلة وجهزت نفسي مع بو جعفر للانطلاق إلى بيروت، وصلت هناك في التاسعة وانتظرت ساعة قبل أن أقوم بإجراءات تحويل الأموال وتم كل شيء على خير وعدت إلى طرابلس ليصعقني خبر اختطاف دحام الذي خض الشارع بأكمله.

هل يعقل أن يختطف دحام؟ ولماذا؟ لم أعرف ماذا أفعل ولا كيف أتصرف وشارع عزمي يغلي ويفور من دحام هذا الذي أحضرته أنا إلى المبنى. كانت نظرات الناس إلي تشير إلى سوء ما وقع كأني المتعامل مع الموساد والمتخاذل والخائن. تكورت قبضة يدي واصطكت أسناني وحاولت الابتعاد عن الشارع. إلا أن أحداً من قوى الأمن الداخلي أمسك بي وأخذني إلى مركز الأمن الداخلي عند بوابة الميناء. رغم تكور قبضة يدي إلا أني كنت هادئاً. استقبلني المحقق بابتسامة عريضة أو الأحرى كما تقول خالتي فريدة بابتسامة صفراء.

- صاحبك خطفوه يا عبدو هل كان معك خبر؟
- أنا بلغتك شكوكي فيه كيف بكون معي خبر وما خبرك؟
- ما ترد على سؤالي بسؤال.
- لا ما معي خبر، لكن أمس بلغني إيلي الخنفوس أنه سيسافر ويترك لناديا القيام بالإجراءت في أعماله، فأحسست بشيء يتم تحضيره.
- ثم خُطِف اليوم والقيامة قايمة. يجب أن تبقى عندي بضعة أيام كي لا يشك أحد فيك.
- حاضر، أحضروا لي بو جعفر فقط فإن بقي في السيارة أياماً فسيموت.
- من بو جعفر هذا؟
- الهر صاحبي وحبيبي وونيسي في هذه المقفرة.
- سيكون بخير إلى أن تخرج لا تخف عليه.

لم يترك لي المحقق أي اختيار كنت أدرك صعوبة أي كلمة وقد خُطِف وهذا من غير المتوقع. أخذ يتفرس في ملامحي وأنا أكمل فنجان القهوة بهدوء، غير أنه صرخ فجأة بشراسة مما أصابني بالهلع، كدت أضربه بقبضة يدي التي تكورت لكني تماسكت ووضعت يدي في جيبي بعد أن وقفت بسرعة. كانت الغرفة التي وضعني فيها مطلة على بستان ليمون وقضبان النافذة الحديدية تسمح لي بتنشق هواء البحر. تلك الليلة لم يغمض لي جفن وغلياني هو قهر شديد لمعرفة

كيف يخطف والفدائيون يراقبونه ولا يمكنه أن يفر حتى إلى الحمّام في غرفته.

في صباح اليوم التالي أحضرني مساعد المحقق إلى غرفة التحقيق مجدداً وقدم لي فنجاناً من القهوة المرة. أردت الاطمئنان إلى بو جعفر لكنه رمقني ولم يتكلم معي بانتظار دخول المحقق.

- عثرنا على صاحبك في حقل العزيمة واعترف أنه أراد قتل السبع كنت أنت الذي أرادوا له الوقوع في شرك نصبوه لك.

لا يمكنني خيانة بلدي تيقن بذلك سيدي وأنا أحسست بذلك وهذا ما جعلني أقوم بترحيل أصدقائي كي لا يصاب أحدهم بأذى بسببي. وأنا غير مأسور لماتيلدا يمكنكم فعل ما تريدون.

ماتيلدا لا علاقة لها بهذا الموسادي هي فنانة تشكيلية وقمنا بالبحث والتحري عنها هم أرادوا من خلالها تغطية نشاطهم للقيام باغتيال السبع لكن ألم تتعرف إلى القس في الطابق الثالث؟

- لا لم أعرف أنه موجود مع امرأة إلا قبل أيام من احتجازي هنا؟
- أنت تعرفه يا عبدو.
- لا أعرفه يا سيدي.
- هو أبونا جرجس الذي كان يبيعك العطوس في دير جنين.
- تلعثمت ولم أصدق ما يقوله المحقق، من المستحيل أن يكون هو بل من سابع المستحيلات وقلت له لابد أنك مخطىء أبونا جرجس معرفة قديمة لا يمكن مطلقاً.

- أقول لك هو معهم وهو ليس بالخوري بل من الموساد أيضاً وبرتبة مهمة كبيرة.
- هذا يعني أننا خريطة مكشوفة لهم وكل ما كنا نقوم به معروف لديهم.
- نعم صحيح وأريد معرفة ما كنتم تقومون به.
- لا شيء تجارة السجاد وصواني القش والحصر وتجارة نستبدلها أو نبيعها في القرى والأب جرجس كنا نعطيه الأوراق البيضاء التي يحتاج إليها للكتابة ونأخذ منه العطوس.
- انتهت مدة وجودك هنا واعلم أنك ستكون مراقباً حتى انتهاء القضية وممنوع عليك السفر.
- لم ينتظر المحقق خروجي بل فتح الباب وخرج وبقيت جالساً مصدوماً لا أعرف ما الذي أفعله. المهم أنهم لم يجمدوا حسابي في البنك ولا بد من إعادة ترتيب حياتي من جديد.

وصلت إلى البيت في شارع بورسعيد متعباً ورائحتي تشبه رائحة الشنكليش المعتق، الذي كانت ترميه فريدة في الوادي. فوجئت ببو جعفر يتعلق برقبتي ويداعبني وفرحت به جداً. لكني امتنعت عن الخروج من البيت أياماً ربما يتصل أحد منهم، ماتيلدا أو أبو الخل أو أبو الزيك، بقيت بين غرفة النوم والمطبخ والمكتبة عانيت طوال أسابيع

الوحدة الشديدة ولم أعرف من أين أبدأ كان المطبخ عامراً بالقهوة والبطاطا والبرغل والأرز وما يؤكل ليبقيني بخير.

أصبت بالكآبة ولم أعد لرؤية ناديا ولا حتى إلى المرفأ. إذ لم أشعر أني سأجدد نشاطي بما يخص شحنات العلف أو الكسارات أو حتى السيراميك. حاولت التفكير في استراحة محارب ربما أذهب إلى قبرص عندما يسمحون لي. لا أريد الهرب أو الخروج خلسة من لبنان.

بعت الفرن والأملاك الأخرى واشتريت بيتاً كبيراً في باب الرمل أمام مسجد طينال واستطعت فرشه ونقل الكتب إلى مكتبة في غرفة تطل على الجامع مباشرة.

أرسل المحقق بطلبي فتوجهت مع المبلّغ ومرافقيه إلى مخفر مدينة الميناء بدا لي متجهماً غارقاً في قراءة الأوراق التي أمامه. قال:

- وجدنا صاحبك في حقل العزيمة والخاطف يريد فدية.

ضحكت حتى كادت تنفجر مرارتي. من يريد فدية؟

تجهم أكثر وازداد غضباً وبدا كثمل تجرع مشروب حانة صغيرة بأكمله.

قلت له:

لا يمكن أبداً أن يخطفه أحد، منذ أيام رأيته يصعد في سيارة مارسيدس من أمام غاليري سمعان في بناية البابا.

- خطفته سيارة مارسيدس من مقهى التوب.
- هو سيناريو ضعيف مركب لا تنصت إلى أحد وأنا جاهز لأي مساعدة.

- يكفي أنك أبلغتنا وشكوكك في مكانها. لكن ممنوع من السفر حتى انتهاء القضية.
- حاضر.

تركته وعدت إلى البيت في باب الرمل وأذان الظهر يرتفع من مسجد طينال. أردت الهدوء بعد كل هذا الركض في حياتي. إلا أن السبع أرسل رجاله ليأخذوني ليلاً إلى مخيم نهر البارد. وضعوني في سيارة بعد أن عصبوا عيني ووضعوا فوقهما قبعة. فأحسست أني في مركب وسط عاصفة تعلو وتهبط. رائحة الأمكنة لا يخطئها أنفي خصوصاً طريق طرابلس عكار مروراً بالبداوي والمنية والعبدة حتى نهر البارد. سمعت أصوات رصاص وضجة تكاد تنفجر طبلة أذني منها ومن ثم اقتربت رائحة ما مشبعة بالبارود وفك الرباط عن عيني بعد أن أبعد القبعة.

كان يقف أمامي رجل عرفت أنه السبع فيما بعد فضحكت لسخرية القدر هل أدافع عن رجل لم أره قط لمجرد أني سمعت عنه كثيراً من أشخاص آخرين؟

- أحضرتك لأشكرك على ما فعلته.
- وهل من مثلك يشكر من مثلي؟
- ولم لا، أنت كشفت جاسوس الموساد الذي جاء لقتلي.
- ولماذا يريد الموساد قتلك؟
- لأنهم يريدون قص أجنحتنا كلها لنبقى كالعصفور الذي لا يستطيع الطيران.

- المهم أنه تم كشفه ولكنه ما زال هارباً.
- لا هو تحت قبضتنا لا تخف لكن على الدولة اللبنانية أن تتصرف ونحن لا نريد التدخل في ما يخص الدولة.
- لا تشكرني أبداً فأنا منذ أيام الأصلع أهتم بقضيتكم.
- ندرك ذلك والأصلع ما تأخر يوماً في إمدادنا حتى ونحن في عمان بما يلزم لكل معركة قمنا بها وعليك استكمال مهمته.
- هههه يا الله من أيام الأصلع تعرفني؟
- ما ترسله كان يصلنا إلى الأردن.

لا تهتم إني أقوم بما أستطيع القيام به. وأظن بعد هذه القضية لن أستطيع القيام ببيع الجبن والسجاد والزيت والصابون.

بارك لي زواجي بماتيلدا وصافحني مودعاً متمنياً لي حياة سعيدة وطمأنني أن المدرب سيكون قريباً في عهدة الدولة وعلي أن أتوقف عن التجارة بالمواشي والسيراميك وتوزيع الجبن. وضعوني في سيارة بعد أن ربطوا عيني وتركوني عند مفرق شارع عزمي. أكملت سيراً حتى بناية الحلوة حيث شقة أبي الزيك ودخلت لأستريح فهاجمني بو جعفر في نوبة اشتياق طويلة استمرت ربع ساعة. حاولت بعدها الاستحمام والاسترخاء والنوم غير أن ناديا اتصلت لتطمئنني إلى البرنسيسة وأم الزلوف، فشعرت بالدماء تفور في جسدي.

- كيف اتصلوا بك ولم يتصلوا بي؟

- لم يتصلوا بي؟
- من اتصل بك إذاً؟
- اتصل الأستاذ إيلي من قبرص وقال لي إن عائلة الواعظ بخير وهي في قصره. ومارلين معه بخير وهي تسأل عنك.

طلبت أن أراها بسرعة لكنها قالت لي ستأتي هي لزيارتي لأن ما تريد قوله لا يمكن أن يقال عبر الهاتف. أحسست بالنيران تأكل جسدي وتكورت قبضة يدي فضربتها بالطاولة حتى تكسرت وسال الدم من أصابعي كالعادة. إلا أن البرنسيسة ليست هنا لتقدم لي الإسعافات لها. خرجت كما أنا إلى مستشفى المظلوم ليضمّدوا يدي مع بعض المسكنات. لم أستطع الذهاب بسيارتي. ذهبت بتاكسي أجرة. لكني فوجئت بالسائق يقول لي: لا تلتفت نحن معك وسنحضر عائلتك إلى هنا فلا تخف هي في أمان والسبع ينقل لك تحياته.

تركني أمام مستشفى المظلوم فدخلت إلى الطوارىء حيث قدموا لي ما يلزم وخرجت من المستشفى ويدي ملفوفة بضمادات ستبقى أياماً حتى تشفى يدي تماماً.

كلام سائق التاكسي أشعرني أني في مأزق لم أشعر بخطورته. والسبع يبدو على علم بكل ما يحيط بي. خوفي لم يكن على البرنسيسة وأبي الخل وأبي الزيك إنما على مارلين والبنات وأم الزلوف. تابعت المشي من مستشفى المظلوم إلى البيت في باب الرمل لأرتاح بعد كل

هذه التوترات وماتيلدا ما زالت في خبر كان لا اتصال ولا خبر. كان يجب أن أحاول السؤال عنها عبر السفارة الألمانية لكني تركت الأمر للزمن لا بد من ظهورها مهما طال غيابها المهم هو مارلين والباقون.

لم أستطع البقاء في بيت باب الرمل، لم أشعر بنفسي إلا وأنا متوجه إلى البيت في شارع عزمي. من الضروري ألا أغادره فلا بأس ببقائي فيه قليلاً ربما تتصل ماتيلدا أو يتصل أبو الزيك من قبرص. دخلت المطبخ لأحضر القهوة وبو جعفر قربي يدور حولي محاولاً تهدئتي.

دخلت مكتبي لأحتسي قهوتي. حشوت غليوني من خشب الزيتون وبحثت عن كتاب أقرأه لعله ينسيني كل هذه الأزمات. سمعت طرقات على الباب. لم أكن مستعداً لاستقبال أحد. إلا أني فتحت الباب وإذ بناديا أمامي. بإشارة من يدها التزمت الصمت حتى دخلت وأغلقت الباب.

- ليس مصادفة أني هنا جئت لأقول لك إن إيلي والبرنسيسة كانا على اتفاق بالتوجه إلى قبرص.
- كيف ذلك؟
- أبو الخل هو من قدم المعلومات عن السبع للخنفوس.
- ماذا تقولين أنت؟
- كما أقول لك صدقني.
- ولماذا يجب أن أصدقك؟
- لأن البرنسيسة وضعت السم لأبي الخل في قهوته وأصبح طعاماً للأسماك على الأرجح.

- لا يمكن تصديق كلامك.
- صدقني ما من شيء يجبرني لأقول لك هذا.
- لماذا تقولينه إذاً ؟
- لأني أريد للبرنسيسة أن تختفي من حياة إيلي ليكون لي وحدي.
- ضحكت حتى الألم والوجع ولم أعرف ماذا أقول أو كيف أتصرف وأنا أرسلتهم بيدي إلى شاطىء الأمان. فعلتها البرنسيسة تلك العاهرة لم أؤذها يوماً فلماذا تفعل ذلك. وكأن ناديا قرأت أفكاري فقالت لي:
- لأن إيلي وعدها بقصر في قبرص وحياة مختلفة معه إن قتلت أبا الخل ففعلت ذلك وهي الآن ستحصد ما فعلت من المؤكد أنه سيتركها في قبرص أو يأخذ معه حبيبة قلبك مارلين.

كدت أنفجر وأحسست أن نفسي يضيق وكان لا بد من التفكير بهدوء لأحاول إحضار أبي الزيك ومارلين مجدداً. لكنها قالت لي :

- سأساعدك على الوصول إليهم ولكن بشرط. نظرت إليها كالذي يستجدي الإحسان والعطف فسألتها بماذا تريد مساعدتي؟
- مركب صغير يوصلها إلى قبرص على أن أنتظرها فيه إلى أن تحضرهم لي.

- وهل تظنين أني أهبل أو مجنون لأصدق أن هذا كل ما تريدينه؟
- نعم هذا كل ما أريـده مهمة المدرب الألماني فشلت وسيعاقب إيلي من الموساد إن لم ألحق به وأكن إلى جانبه.

خرجت ناديا مساءً بعد أذان العشاء اصطحبتها تاركاً بو جعفر في البيت. مشينا بصمت وفي رأسي تضج آلاف الأفكار يجب أن أتخذ خطوات وصولنا إلى قبرص لأحضر مارلين وأبا الزيك والبنات وأم الزلوف يجب أن أستعيد عائلتي الصغيرة وأعطي هذه القطة الخنفوس لتفعل به ما تشاء، كانت تسير بمحاذاتي كعشيقة تترنح من خمر احتسته في سهرة عشاق. لكني أمسكتها من زندها فنظرت إلي نظرة مدمنة افتراس رجل.

- سأؤمن ذهابنا إلى قبرص دون أن يعرف أحد ابقي قريبة مني لن أتخلى على من هم لي أبداً.
- وأنا لن أتخلى عن إيلي يجب أن أعطيه المبلغ الذي استطعت الاحتفاظ به.
- أي مبلغ؟
- قمت ببيع أملاكه هنا قبل التحقيقات والأمـوال معي محفوظة.
- ستبقى الأموال في الزورق إلى أن تحضري لي عائلتي.
- اتفقنا غالي والطلب رخيص.
- لولا الأضواء في الشارع الممتد من شارع بورسعيد إلى

كورنيش المينا، لحاولت منحها ليلة لن تنساها تلك السوداء التي ارتسمت على وجهها بسمة شيطانية. يبدو أن إيلي استطاع ضربي بقبضة امرأة هي قطة شرسة في عالم الإدارة والمال وهذا ينقصني فعلاً.

كنت أود معرفة مصير دحام بعد دخوله السجن. إذ ليس ثمة قدرة لي على متابعة محاكمته. بعد انتهاء التحقيق معي ومحاكمته وسأسلم جدلاً أن أدخل إلى السجن ما همني الأمر إن وجدت مارلين وأصبحت معي وعائلتي الصغيرة تعود إلى حضني. ربما تقاطعت الأحداث في حياتي وجعلتني ممزقاً في كل مرة أحاول رتق الأحداث التي تصعقني.

المهم الآن أن ننطلق ونصل إلى قبرص وأمسك بأطراف أصابع مارلين الطرية التي اشتقت إليها. انطلقنا في الزورق الذي استأجرته لهذه المهمة وما وصلنا إلا والفجر يشقشق في جزيرة قبرص. كان علينا البقاء ساعتين فقط وفي كل الأحوال لا يمكنني مغادرة قبرص قبل الليل لأننا دخلنا المياه القبرصية خلسة.

لا تبق متجمداً أمامي انتظرني هنا وسأحضر لك عائلتك الصغيرة إلى هنا.

أخرجت المسدس الذي أخفيته في جواربي ووضعته في رأسها لتسير أمامي حيث القصر الذي يسكنه الخنفوس. لكنها استطاعت انتزاعه مني بخفة ورميه بعيداً. مستهزئة بقدراتي.

وعدتك بإحضارهم لك وسأفعل وأنا صادقة في ذلك.

وصلت إلى القصر والمكان يبدو كقرية هادئة بعيدة الأطراف رغم قربها من الشاطىء. تسرب إلى سمعي صوت أم الزلوف فركضت نحوها وضمتني والجميع في دهشة. كان أبو الزيك يجلس على حجارة تكومت في حديقة القصر ولم يقف بل اكتفى بالابتسامة الهادئة.

- أين الخنفوس أخو...
- اختفى وحياتك يبدو أنه سافرومعه البرنسيسة.
- أبو الخل.
- أبو الخل أعطاك عمره أخذوه معهم ليلاً وأظن أنه صار طعاماً للسمك.
- كادت ناديا تنفجر من الأخبار التي صدمتها فجلست وأخذت تبكي، كانت أم الزلوف تصنع الخبز الساخن وكأن شيئاً لم يحدث، بل كانت تهتم بإطعام البنات دون الاهتمام حتى بحضوري. اقتربت منها فأشاحت بنظرها عني. أدركت أنها اتخذت موقفها مني جراء تعرضها والبنات للخطر.
- سنعود ليلاً إلى طرابلس يا أبا الزيك.
- قالت أم الزلوف أنا لن أعود بلطوا البحر إذا فيكوا أو حطوني بكيس غصباً عني.
- ولكن ما الذي يبقينا هنا يا أم الزلوف؟
- وما الذي سنفعله في طرابلس الحياة هنا ستكون آمنة أكثرلنا.

- كلامك غير منطقي يا أم الزلوف.

كان من الصعب إقناع أم الزلوف بالعودة إلى طرابلس، إلا أنها اقتنعت بعد أن أدركت صعوبة الأمر بل استحالته. وعدنا إلى طرابلس دون ناديا وأبي الخل ولا الخنفوس وتوجهنا إلى البيت وسعادتي لا توصف، بعدها قمت بتأسيس مصنع الصابون إذ زادت أرباحنا وكبُرت البنات وطبقت مارلين العشر سنوات لكن القدر عاد وصفعني مرة أخرى.

كان علينا التوجه إلى قبرص في صبيحة أحد الأيام من شهر آب في سفينة عبدالرحمن وتحميل بضاعة من الصابون المخصص للوجه أو من خلاصة الذهب والألماس، وقررنا القيام برحلة أثناء ذلك للاستجمام في قبرص مع البنات. غياب ماتيلدا عني جعلني وسط عائلة أحببتها جداً وأحبتني. ونجحنا معاً في تجارة الصابون. غير أن الحادث المشؤوم قلب موازين الحياة.

فجأة بدأت الانفجارات في سفينة عبدالرحمن التي انطلقت من شاطىء طرابلس توحي بكارثة لم ندرك بدايتها، إن هذا القصف إسرائيلي مخطط له لأسباب ما زلت أجهلها. غير أني ما صحوت إلا وأنا في ألمانيا وحيداً مع ماتيلدا.

أنا سيفي الزمان وذاكرته عقل الإنسان
وحافظته.

كانت ماتيلدا واقفة بقربي وأنا مستلقٍ على سرير صلب. أحسست أني ملتصق به لا أستطيع التقلب ولا الحركة عيناي فقط تحاولان اكتشاف أين أنا. ورائحة الأدوية والمطهرات تعبث في أنفي حتى كدت أتقيأ، ولمسات ماتيلدا المتكررة لجبيني أضجرتني. استدارت فجأة عندما بدأت أشعر أن الضوء يخترق بصري. كنت أحاول استكشاف ما الذي يتدلى من السقف أفوقي قناديل غرفة خديجة أم أكواز سماق أمي؟.

لم أكن أجرؤ على سؤال ماتيلدا ما الذي حدث ومن أحضرها إلى هنا؟ ولماذا أنا ملتصق بالسرير. ربما أنا في كابوس سأستفيق منه بعد قليل. دخلت سيدة ترتدي مريولاً أبيض. وبدأت بإدخال الإبر في كيس علقته قربي. فصرخت فيها بقوة إلا أن الوجع أصاب كل ما بي من هذه الصرخة التي جعلت من ماتيلدا تضع كفها على فمي وتقول بالألمانية

اسكت يا غبي أنت في المستشفى،ا لرب لم يشأ أن ترحل مازال يريدك هنا.

التزمت الصمت وحاولت أن أتذكر ما الذي حدث ولم أستطع أحسست أن النوم هاجمني وتكورت قبضة يدي دون أن أشعر بها تماماً وفكي تجمد فلم أستطع النطق بكلمة واحدة بعد أن أخرسني النوم أيضاً، عاودت فتح عيني من جديد، ناديت ماتيلدا فلم تجب، وهذا السقف الأبيض يغضبني يشعرني أني في مكان لا دفء فيه عاودت مناداة ماتيلدا وما من أحد يجيب شعرت بأن عظامي تتفتت كلما حاولت الحراك فأهدأ. أحسست باهتزازات تحتي ورأيت بعدها وجه ماتيلدا مبتسماً.

- أنت أشبه بذاك الولد الضال... يسيح عمراً، ويتذكر في النهاية موطنه مع هذا صدر ماتيلدا مفتوح للواعظ.
- تراوح مكانك الآن ولن تتقدم بعيداً خطوة مرة أخرى. هذه المرة لا مفر من ماتيلدا.
- لماذا يا عبدو تتعب ماتيلدا معك، ولديك من الأصالة ما يمنعك عن مداهنتي، لديك صدق تمسكك به وطهر خفي يلومك، فتعودتنا هنا لأنك طيب كعطر الياسمين وشهي كزهر الجلنار لذيذ برغم مرارتك. ربما مما لديك من قوة وتحد.
- هل أنت شرقية يا ماتيلدا أو أن صحبتي جعلتك شاعرية؟

- كلنا أبناء آدم وحواء يا عبدو لا تفرق بين الشرق والغرب. لكن كيف فكرت في ماتيلدا وما الذي جعلك تصعد إلى تلك السفينة؟
- عن أي سفينة تتكلمين ماتيلدا؟
- لقد قصفت السفينة التي كنت تتوجه بها إلى قبرص ولم ينج أحد. في لبنان يظنون أنك ميت ومن بلغني أنك هنا هو الألماني الذي دربك على الكاراتيه.
- ماذا أكان المدرب في السجن، كيف أخبرك؟
- من قال هو في السجن التقيته في معرض تشكيلي هنا.
- فهمت، يجب أن أطمئن إلى مارلين مع أبي الزيك وأم الزلوف أرجوك ماتيلدا ساعديني لأطمئن إلى مارلين ولا يمكنني تركها هكذا معهم..
- أمسكت ماتيلدا بفنجان يتصاعد منه البخار بصفاء الذي يتنفس في شهر كانون الثاني والثلوج تتساقط. هزت رأسها وقالت: ستبقى في المستشفى مدة طويلة وبعدها يجب نقلك إلى مركز العلاج الفيزيائي في أوفنمبورغ هناك يمكنني أن أتركك بخير معهم وأتوجه إلى قبرص لأسأل عن مارلين وأم الزلوف. أما الآن يجب أن تتعافى بسرعة.
- لماذا مركز العلاج الفيزيائي ماتيلدا؟
- اهدأ ولا تتوتر أنت على قيد الحياة وهذا الأهم الباقي

تكتشفه بعد أن تتعافى. والدكتور أورليش طمأنني أنك ستكون بخير وسيؤمن لك أخرى اصطناعية وستكون كفرس قوي لا يهزه الريح أو قرصان بحر عبدو هههه.

- ماذا قرصان بحر ماتيلدا؟ هل قطعت رجلي؟
- لا لم تقطع لكن ستصبح قرصاناً برجل اصطناعية.
- صرخت مثل صرخة فريدة يوم ولدتني في شيخ التبان. وشعرت أن الدنيا تلعب بي في كل مرة ولادة جديدة. لكن هذه المرة في غرفة بيضاء تضيء بالنور المزعج الذي يضاجع بصري. وساد الصمت الغرفة دقائق طويلة أحسست أنها عمري كله. إلا أني تذكرت أبا الزيك وهو يغرق في قاع البحر والدماء تسيل من رقبته وبطنه وتصبغ المياه من حولنا باللون الأرجواني. ولا أذكر أني رأيت غير ذلك.

هل مات أبو الزيك ماتيلدا؟

- لا أعرف حقيقة عبدو كل ما أعرفه أنهم وجدوا في جيبك عنواني واسمي وطلبوا مني التعرف إليك بصفتي زوجتك وأدليت بشهادتي أنك كنت تزور أقارب لك في لبنان. ماذا فعلت عبدو لتقصف إسرائيل باخرة أنت فيها في عرض البحر؟

كنت ذاهباً بتجارة صابون وإجراء صفقة. لكن القدر يبدو أنه يهاجمني ولا يريدني أن أعيش بسلام..

- هل ما زلت تريدينني معك ماتيلدا؟
- أخرق أنت وهل نحن من صخر كلنا بشر وكلنا خلقنا من مضغة يا عبدو. راحلة بعد أسبوع إلى قبرص لأبحث لك عن مارلين. سأنزل في ليماسول ومنها أتجه إلى بيلابي في محيط كيرينا لأبحث لك عن مارلين. يبدو أنه لم يعجبك الصمت دليل الجبروت.
- كل هذا وترين أني من صخر. يجب أن أشفى بسرعة يا ماتيلدا. مارلين ابنة أخي يجب أن أجدها أرجوك.
- يبدو أنك أصبت بفقدان الذاكرة أبو الزيك عامل المرفأ فكيف هو أخوك؟
- هو أخي يا ماتيلدا أخبرني بذلك وهو مصاب وربما كان يحتضر لم يمت عندما رميته في البئر فقد أخرجه رجال الإطفاء. لم أتذكر أن والدي كان عاملاً إطفائياً. لقد قص علي حادثة وقوعه في البئر قبل هروبي إلى عكار يا ماتيلدا إن اسمي ناجي مضحك اسمي ناجي ناجي ناجي صح؟ مسخرة اسمي ناجي ماتيلدا هههههه
- غريب يا عبدو كيف يقع أخوك في بئر ولا يموت وأنت الآن هنا ولا تعرف أمات أم بقي حياً. يبدو أنكما افترقتما من جديد. آمل أن يكون بخير مثلك.
- لا أظن يا ماتيلدا لقد أصيب في رقبته وفي البطن قبل أن أفقد وعيي أحسست أنه لن يستفيق.

كانت ماتيلدا قد بقيت معي في المستشفى إلى أن تعافيت ونقلتني إلى مركز العلاج الفيزيائي الذي زرع لي رجلاً اصطناعية ساعدتني كثيراً على المشي، أصبحت ماتيلدا في التاسعة والسبعين من العمر إلا أنها فعلياً تصغرني بالنشاط والحيوية والقدرة على القيام بالكثير من الأعمال، لم أخطىء حين حولت لها مبلغاً كبيراً ثمن لوحات وهمية اشتريتها منها في بيروت. هذا المبلغ اشترت به البيت الذي كانت تسكنه وحولته إلى مأوى للعجزة وها نحن اليوم نسكنه مع عجائزنا العشرين. رفضت ماتيلدا استقبال العواجز وأبقت على عجائزنا العشرين كلما ماتت إحداهن نستقبل أخرى. وجمعت لي الكثير من الكتب العربية والغلايين النادرة لكن فجأة قررت السفر إلى بيروت لإقامة معرض فني في متحف سرسق. تمنيت المجيء معها إلى بيروت لأبحث عن مارلين. لكنها منعتني بحجة المأساة التي وقعت لأخي. فضلاً عن أنها تخاف أن يعرفني أحد والكل يظن أني في عداد الأموات.

- حاول في غيابي أن تهتم بالحديقة وبعجائزنا يا عبدو.
- لا أكاد أتحمل فقدان مجنونة حياة وجمال مثلك يجب أن تطلقي العنان لريشتك كي ترسم مأساة واعظك. اللاشعور هو وحده يظهر عظمة الإنسان. والله يا ماتيلدا أردت أن أذكرك بأن الحياة تافهة واللذة متعتها الحقيقية في وعيها اللذة العاقلة أهم متع الحياة.
- لذلك يا عبدو قال العالم: الجنس ملك اللذات والنساء

أكثر موضوعات الكتب المقدسة بل أحدها متخصص بالتفاصيل متعة الجنس تحسس والمرأة في ذروة لذة الحياة تشعرها أثناء رغبة شهوتها بأنها خالدة.

- أجمل ما فيك يا ماتيلدا انفتاحك النفسي عليّ ومعي والقدر الذي تؤمنين به جمعنا صحيح أو لا؟ أصبحت أشعر أنك أخذت تلامسين إنسانيتك الحقة وتشعرين بلذتها فالمرأة والرجل يتناسيان عند اللذة كل مهم ومحذور حتى القدر نفسه لأن عشق الحياة إنسانياً وحيوانياً دوافعه غموض اللذة التي لا حدود لها والتي تتمنين أن تطول.

أجمل ما يتذكره المرء هو لذته وأحلى خصائص سره الشخصي شهوته، أما حب الشخص لذاته فينبع من إحساسه بلذته، من أنانيته فهو يتمناها له وحده، أن يغلي بها وحده، في جحيم دافىء مرغوب فيه.

حقائق الأشياء نتجنبها خشية وخجلاً ونحن نكذب على الحياة ونخترع حيلنا وأسبابنا لنتناساها. الحب أجد فيه كل عجائبي فأنغلق دونه ولا أرغب في سواه هو عشقي لا شهوتي وأجمل الرجال خدعة لكن الحب مستحيل شهوة مشتهاة هي دقائق تزول والحبيب زمان لا يمل لأن وقوده العاطفة هي البراكين الحقيقية.

بعض النساء براكين وبعضهن نمطيات أكلمك جدلياً لاسفسطائياً لذلك تجدين الحب يعمر سنين طويلة مع عضوين فقط لكن الرغبة تنتهي بمودة الشخص الآخر بعد انقضاء الشهوة تموت المودة مع

انتهاء الممارسة لأن الحب صفر في منظومة العلاقة الزمنية لكنه جيل من أرقام العاطفة.

الحب كالشجرة يبلغ عمرها عشرين ألف عام. لكنها لا تستغني عن الماء وسماد الأرض، الحب هو الحياة في كل مراحل العمر يجب أن تعيشيه كي يمتد بك الزمن ويتبخر الحزن والحب شهوة للحياة وأحاسيس الجسد إن مات في الجسد. شل الجسد وذوت الروح فحين ألامس جسدك وأنت عارية أمامي أوقظ مراحل النشوة والعنفوان في جسدك وحين تمر أناملي فوق كل خلية أحرك دبيب الحياة في مضامينك، وحين تنزلق الزيوت المعطرة فوق لحمك الطري يغلي الشباب في شيخوختك ويستيقظ الأمل والحب ويستجيب الجسد وتتجدد طاقة الروح. فالروح لا نعرفها إلا من خلال محرك والمحرك هو الجسد.

الهرب كراهية لحق الروح واحتقار لحق الجسد وتخل عن الثوابت.

- كيف يمسك الرجل العاشق بامرأة تفر منه؟
- بالحب حتى تثمل وبالإسعاد حتى تذبل وبالمضاجعة حتى تحتل وبمنح الارتواء لجسد حتى يجذل وبالتشهي كي تنشط من قمتها حتى أسفلها فقولي الحب تقديس الجسد كضريح تقبله. أنا قروي العاطفة فطري كسذاجة الأنبياء ومعك أشعر أننا ما عدنا نستحي أحدنا من الآخر فقد تداخلت تفاصيلنا.

- يا ماتيلدا فريدة كانت جوهرة بيد فحّام.
- المرأة العظيمة يا عبدو لا يعادلها الكون بكل ثرائه ونسائه يا عبدو لا يوجد رجل ملاك. السوبرمان خرافة الجنتلمان نسبي هناك حالة وسطية بين أخطاء الرجال ومحاسن أعمالهم، وثمة نسب قليلة ونادرة يتميزون بنبوغ الفضائل هؤلاء ليسوا أنبياء بل هم بشر تلقائيون لكنهم عمليون واقعيون يحكمون العقل في إدارة مصائر الأشياء واستقبال الكوارث والكرامات الرجال الأفذاذ هم مخطئون ومزاجيون ولا مبالون. لكن الخصال العظيمة في شخوصهم تطغى في الواقع على مظاهرهم تلك. كذلك النساء لا فاضلات ولا قديسات بل هن مزيج إفراز الواقع والبيئة والتربية. لذلك تجد فيهن الخانعة لظرف قاهر فتبدو قمة التعقل وهو خداع بصري وتجد الغضوب المتهتكة وهو ضعف بائن لكن في جوانبها كرم ونبل لذلك تبقى الحقيقة نسبية لا مطلقة فلا ذهب دون تراب ونحاس وقصدير ورصاص وزنك. عليك بالتحلية والسهر والفرز والصنفرة وهو ما تقوم به أيها البحار المحتال. لذلك نقبل الرجل كما هو على عواهنه فهو إنسان من ماء وثلج وبركان وهذا تحليل بسيط يحتاج إلى الشجاعة في المصارحة ليس فينا أنبياء ولا قديسون ولا ملائكة أو قديسات نحن أخلاط بشرية تتكون من مجموعة

نقائص وإفرازات وشوائب كل ما نحتاج إليه هو أن نتواضع كي نعترف أمام قداس الضمير لا الرهبان ولا الوعاظ أمثالك يا عبدو هههههه.

- تمنحني هذه المصارحة قوة كي أشعر أني خفيفة أطير حرة حينما أبوح بما في صدري معك وأزيل ركاماً من رصاص الأفكارإذ إن كبت الأشياء داخلنا شيء سام يشلنا هل لي بسؤال لك عبدو؟
- مؤكد يا ماتيلدا.
- من هو أقرب الناس إليك حقاً أليس ذلك الذي في داخلك؟
- أنت يا ماتيلدا، أشعر أني أخاطب المرأة الرجل القوية والقادرة على التحديات.
- أفهم ذلك وأفهم أن داخلك تعتصره المخاوف من الفشل، أشكر الرب دائماً على نعم الفشل التي غمرت حياتي فقد تعلمت منها كم كنت غبية. الفشل هو الوسيلة الفريدة لمعرفة حدود أنفسنا فتلكم الحدود متاهة. الحدود تقول لنا قفوا هنا وتراجعوا أو تقدموا هناك. الفشل هو من علم الرب أن لا يعتمد على الإنسان كثيراً بل على ربوبيته. لهذا فالإنسان منذ مليون عام يفشل ليتعلم وأظنه ما زال يتعلم من فشله الكثير وأنا معك حتى النهاية يا عبدو حتى يستوي أمام نظرك مفهوم المنطق على قاعدة القوة، فمجموع هذه

الأشياء تتوزع كأضلاع المثلث في حياتنا حتى رسم المثلث تجده على الدولار والأهرام والماسونية والبعد الرياضي طول وعرض وعمق الأبعاد الثلاثية. تحتاج إلى من يرى البعد الأفقي والرأسي ويدرك العمق لماذا يقال إن العرب سطحيون لأنهم يفتقدون العمق والعمق يتأتى من الصراحة فهي تحررنا من إثم الخوف وتقوينا واليقين تقديره عندك فأنت صاحب القرار وحتى إن أخطأت فهي تجربة على مسار النجاح، فهل كنا معاً صريحين عبدو؟

- نعم لكن كثرة التجارب تميت القلب يا ماتيلدا.
- بل تقوي القلوب جميع من عرفتهم قبلك لهم ذكرى جميلة والقبيح محوته، هل نسيت المائة تجربة لأديسون لاختراع المصباح الكهربائي الذي لم ينجح في تجاربه إلا في التجربة الواحدة بعد المائة ليعم النور ويختفي الظلام إن الفشل قوة. أنا تتلمذت على شعار ضاعف من معدل الفشل. يقولون إن قوة غاندي كانت تكمن في ضعفه فهو هزيل عجوز يقود عنزة ويلف نفسه بكفن بلد جائع تحكمه بريطانيا. لكن إرادته كانت أقوى من بريطانيا العظمى انحنت له وسحبت جيشها وأعلنت استقلال الهند دون طلقة رصاص واحدة قوة إرادة الضعيف اللاعنف لذلك كن قوي الإرادة معي ومع غيري يا عبدو. نحن لا نتكرر

في الحياة لو عدت إليها ألف مرة. نحن نظهر في الحياة مرة واحدة قد أكون متسرعة غبية طائشة مغرورة لكني أخدمك أكثر من أمك وأبيك وخالك وأخيك وسواهم.

- لا أعرف اسم أمي يا ماتيلدا فتحية بنت زيكو الدرويش لقد هربت من البيت طفلاً أو غلاماً لا فرق لكن لا أتذكر الكثير عن أمي ولا عائلتي أعرف فريدة التي بدأت حياتي عندها وأعرف أخي الذي اختفى مجدداً في البحر فرقتنا البئر وجمعنا البحر وفرقنا ما هذا التلاعب بنا يا ماتيلدا؟
- حنانك أنساني كل من سواك. عش لصمتك ولعجائزنا في الدار لن تخسر شيئاً ستكون الأقوى ومثلك لا خوف عليه أبداً وهل نسيت مزرعتك وحديقتك عبدو. سنتواصل عبر الفايبر من بيروت. لن أوقظك صباحاً لأني سأنطلق فجراً إلى المطار وحين أصل نتحادث.

عثرت ماتيلدا على مارلين وأعطتها لناديا التي بدورها قامت بإخراج وثيقة ولادة لها على اسم والدها اسم الأب إيلي تيدور جرجس والأم ناديا محمد أبو حسين كانت تبلغ من العمر اثني عشر عاماً، ولم أنتبه يوماً أن ماتيلدا قادرة على فعل هذا بي لأبقى في دار العجزة معها ومساعدتها على تسويق لوحاتها وإقامة المعارض الفنية بين لبنان والدول العربية والغربية. السفر معها في كل مرة كان يروقني ولم أشعر ولو مرة واحدة أنها فعلت ذلك مع مارلين. إلا بعد أن تعرفت إلى مارلا التي استطاعت بعد كل هذا الزمن اختراق المسافات والوصول إليّ حيث أنا في أوفنمبورغ في ألمانيا.

في دار العجزة كل شيء يدعو للحب والإلفة. كانت تبدو السعادة على وجوه عجائزي اللواتي أغرمت بهن. غرامي بهن ليس الغرام الذي يتوله به الرجال بل الغرام المكلل بالمحبة والصفاء. قد أكون مجنوناً لكني لست قاتلاً متعجرفاً يتلذذ بالقتل ليرضي مرضه النفسي وما فعلته أكاد لا أتذكره إلى أن نكز ذهني حدث ما وأعادني إلى الماضي وبين الماضيين ما زلت أنا عبدو الزنبق لأني هنا في

أوفنمبورغ أحيا في الريف والمدينة ومزرعتي فيها من الأبقار ما يجعلني ابن فريدة الزنبق فعلاً. ما زلت أقوم بتصنيع القشطة والجبن والعسل ولكن لأبيعها أو لأهدي منها إلى الجيران أو لأطعم عجائزي اللواتي أحبهن حباً جماً خصوصاً عندما نرافق ماتيلدا إلى مرسمها أو نخرج إلى الطبيعة في فصل الصيف. كانت تبدو على وجوههن السعادة التي افتقدتها مع خديجة وفريدة وسهام وحتى أم الزلوف وأم جابر. البيوت التي كانت تقف متماسكة بالحجارة والطين باتت اليوم في أوفنمبورغ منصهرة بوجودنا معاً نودع بعضنا بعضاً ونستقبل بعضنا بعضاً وتستمر الحياة.

توقفت الأغاني الألمانية فجأة في ليلة سفر ماتيلدا إلى لبنان بعد مضي أكثر من عشرين سنة على الحادثة التي خسرت فيها قدمي اليسرى وعيني. كانت تريد إقامة معرض تشكيلي في مركز بيروت للمعارض ولم أستطع السفر معها لأني لا أريد ترك عجائزي ولا التخلي عن الاهتمام بهن من أجل العودة إلى لبنان. كانت تتصاعد أبخرة الذكريات في رأسي. كان قرارها مؤلماً لأنها لم تحدثني عنه كما كانت تفعل في كل معرض لها خارج ألمانيا. لم يكن من داع لتخبرني أنها ستعرض لوحاتها في لبنان. اكتظت المشاهد في رأسي وما عدت أحتمل البقاء دون تناول كأس من النبيذ. مرت السنوات وكنت قد نسيت مارلين وأبا الزيك وأم الزلوف والبنات عالمي وعائلتي التي أحببتها. قررت أن نهرب خوفاً من الاجتياح الإسرائيلي فاجتاحونا وجعلوا منا باخرة

غرقت واحترقت ولم يعرفوا أن الغواصة التي رأيتها أنا وأبو الزيك هي التي قصفت الباخرة التي كانت تنقلنا إلى قبرص.

سمعت طرقات ماتيلدا على الباب ولم أرد عليها وهي تعلم تماماً موقفي من لبنان لا أريد للذكريات أن تعود إلى رأسي ولا تلك اللحظة الشيطانية التي مات فيها أبو الزيك أمام عيني. اعتمدت على كلماته قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ونحن نرى بأم أعيننا الغواصة الإسرائيلية في العمق كان الغرقى بعضهم يستنجد وبعضهم يطفو والأمواج تعلو وتنخفض. حاولنا البحث عن مارلين والبنات. لكن أبا الزيك كان ينزف بشدة ولا بد أن أحاول إيصاله إلى الشاطىء. وهو يتعلق برقبتي قال لي أتعرف يا عبدو أن أخي ناجي رمى بي في البئر وهرب وأنت لم تهرب مثله بل تحاول أن تنجدني أنت أخي أكثر من أخي فعلاً. كانت المياه تدخل فمي وجراحي بدأت تؤلمني وكدت أشعر بفقدان الوعي. إلا أني قاومت ذلك وتعلقت بقطعة تطفو من حطام السفينة. لم أستطع النظر إلى عينيه وأنا أقول له: أنا أخوك يا أبا الزيك خفت فهربت إلى أن وصلت إلى عكار. سمعت ضحكاته التي تتقطع ومن ثم تأوهاته فرك رأسي بيديه ونظرت إلى الدماء التي كان يغسلها موج البحر عن كفيه كلما فرك رأسي وغطت كفه عيني. أتقول هذا لي لأشعر أنك أخي؟ أنت كذلك يا عبدو أحبك أكثر من أخي الذي رماني في البئر وهرب. ابتلعت بعض الماء فيما لم أشعر بقدمي بعد أن كنت أشعر بها عندما بدأت السباحة في حين أن خفر السواحل لم يظهر منهم أحد. أخذت

نفساً عميقاً وقلت له: ألم تكن تفاحة بيده ألم نتشاجر على تفاحة يا أبا الزيك قال: «يلعن» وارتخت يداه وأحسست بأنه أفلت رقبتي قبل أن تجرفني موجة وتبعدني عنه ولم أشعر بشيء بعد ذلك.

أتساءل اليوم هل سمعني؟ هل عرف أني أخوه الذي تركه في البئر؟ لماذا حدث كل ذلك معي أنا؟ مارلين ابنة أخي وأنا لم أعرف ذلك، أيعقل أن أحب ابنة أخي كل هذا الحب الذي جعلني أعشق حكاية جان فالجان وما أنا إلا تفاصيل لحكاية أخرى عن بائس عاش حياته مشرداً. فقدت الأمل بعد أن بحثت ماتيلدا عن مارلين بعد تلك الحادثة التي تناقلتها المحطات التلفزيونية. اختزلت الزمن وولدت من جديد في أوفنمبورغ ألمانيا مع ماتيلدا وقررت نسيان كل ما حدث. فلماذا تريد ماتيلدا فتح الجرح من جديد؟ ألا يكفيني أني خسرت أخي مرتين في الحياة. ألا يكفي أني كنت السبب في شقائه وموته وفقدان ابنته. ألا يكفي أنني السبب في شقاء مارلين التي لم يجد أحد جثتها ولا أعرف إن كانت قد ماتت أو هي من الأحياء. يكاد عقلي يفقد السيطرة ويحول هذه الدار إلى حطام لا تطفو بعده الأشلاء على وجه الماء ولا تغرق العجائز إلى العمق. سأمارس كل أنواع الجنون في مخيلتي لعلي في ذلك أصنع لنفسي حياة أخرى من وهم افتراضي أحيا به مع أشخاص لا يعرفونني.

لتغادر ماتيلدا إلى القمر إن شاءت ولكن عليها تعليمي على الكمبيوتر واستخدام البريد الإلكتروني قبل كل ذلك. وإلا سأبقى في

غرفتي ولن أخرج منها إلا إلى القبر. امتنعت عن الطعام بعدها لأضغط على ماتيلدا بتعليمي ما أريد قبل ذهابها لنتواصل عبر السكايب أيضاً وأراها وتراني. أريد رؤية كل مكان تبقى فيه. لن أسير على أرض لن يطأها بعد أخي ولن أدفن في وطن ما استطعت فيه الدفاع عن أخي وعائلته. والبارود الذي تاجرت به قطع رجلي وقتل أخي وتسبب بمصرع من أحب فماذا بعد الأصلع الذي مات وارتاح وترك لي الشقاء لا أنكر أني تعلمت الكثير منه وبفضله استطعت الوصول إلى أخي مجدداً لكن بعد فوات الأوان قتلته مرتين هو وابنته جميلتي مارلين التي أراها في وجوه الشابات الجميلات حيث من المفترض أن تكون الآن في الأربعين أي ذروة التوهج.

سأتوهم أنها ما زالت على قيد الحياة وأمنح كل صبية بعمرها ما تحتاج إليه من مساعدة ربما تحيا مارلين بهن وأم الزلوف بعجائزي اللواتي أرى فيهن فريدة وخديجة والبرنسيسة التي أقتلها في حلمي دائماً. تلوعني حتى في أحلامي أقتلها وأرميها في البئر وتعود. أراها أحياناً عند باب غرفتي تحاول إغرائي كما كانت تفعل تلك المخبولة وما ندمت يوماً أني جعلتها سراباً تظهر لي بين حين وآخر.

بدا لي مستحيلاً أن أتعلم التكنولوجيا في زمن كل شيء يجعلني أشعر أني عجوز جداً. رحت أضغط على ماتيلدا كي تزيد من عدد الساعات التي تعلمني بها على الكمبيوتر فتحت لي صفحة فايسبوكية باسم الواعظ وبريداً إلكترونياً أراسل من خلاله العملاء لأقوم بتسويق

لوحاتها قدر المستطاع عبر هذا الإيميل. قررت ذلك من أجلها لأنها بقيت معي ولم تخذلني وإن أتعبتها بعض الأحيان. هذه المرأة تجري في عروقها الدماء العربية. إيميلي هو alwa3ez69@gmail.com وبهذا أصبح قادراً على التواصل معها ومع سواها ربما أجد في ساعات الوحدة عطر مارلين وصورة أخي. على صفحات الفايسبوك علامات بالكاد أفهمها كنت أحاول سؤال بعض عجائزي اللواتي جعلنني أطير فرحاً. لم تفرح بذلك ماتيلدا وهي توضب لوحاتها للسفر إلى لبنان. كنت خائفاً عليها جداً رغم أن ما من دلائل تشير إلى اجتياح إسرائيلي للبنان حالياً برغم الثورات العربية التي قلبت الدنيا رأساً على عقب وجعلت من العراق جهنم مفتوحة ومن اليمن ساحة معارك وسوريا التي ذهبت إليها بالألف حصان باتت كمطاحن الأصلع في القرى العكارية. وحده لبنان ما زال يؤدي فروضه وواجباته كطفل صغير في مدرسة الحياة.

سمعت نباح هيرو، فعرفت أن التاكسي جاء لينقلها إلى المطار. لم أخرج من غرفتي، سمعت أصوات كاثرينا وغريتا وهيلدا وهيلين وغيرترود وهي تودعهن وتوصيهن بي ومع ذلك لن أخرج إليها. لو كانت زوجتي عربية لمنعتها من السفر فوراً. في الحقيقة إن عجائزي غفورات متسامحات وسخيات العاطفة لكنهن قاسيات في تنظيم الوقت. لا يسامحن إن تأخرت في الخروج صباحاً للقيام بالرياضة. امتزجت أحزاني مع إحساسي أني لن أكون وحيداً دون ماتيلدا.

انقطعت أخبار ماتيلدا أياماً عني بعد سفرها فلم تحاول حتى الاتصال بي كعادتها في كل مرة تسافر دوني. انتابتني نرفزة عابرة كسرت على أثرها بعض الأكواب وأنا أحاول تنظيفها مما جعل عجائزي يحاولن تنظيف الصحون معي لأهدأ إذ كن يدركن أنني متوتر لأن ماتيلدا غادرت ولم أعرف تفاصيل معرضها في بيروت وهي لا تجيب على الفايبر ولا على ماسنجر فايسبوك. وضعت لي لائحة في الأمكنة التي ستوجد فيها قبل رحيلها. خريطة أمكنة وأكلمك عندما أستطيع ذلك عبدو. إن حاولت سؤالها تجيبني بقولها : أنتم العرب تسألون كثيراً الأمر بسيط عبدو سأكون في الأمكنة هذه وأكلمك عندما أستطيع انتبه لنفسك جيداً واستمتع بأوقاتك، وانتهى البيان الماتيلدي الخاص بها. لو أني أستطيع الحصول على البارود الآن لوضعته حول دار العجزة هذا وقمت بتفجيرها بأكملها. تركت دار العجزة ونظرت إلى هيرو فلحق بي فوراً. زمجر قليلاً لكنه مشى بهدوء خلفي بعد قفزتين أو ثلاث وظل محافظاً على مسافة بيننا.

في سيلفايا باخ يخلو لي السير وصولاً إلى الجدول ومن ثم الغابة السوداء، تذكرني جداولها بجداول القرنة السوداء وهي أعلى قمة في سلسلة جبال لبنان الشمالي، تختبىء القرى الفقيرة فيها كما تختبىء الدببة في هذه الغابة، إلا أن جداولها لا تجف في فصل الصيف، لأن مجاري المياه تنحدر فتتشكل الغابات الكثيفة في مشهد لا يمكنني أن أنساه.

لا أعرف ما الفرق بين الغابة السوداء في سيلفايا باخ والقرنة السوداء في أعلى قمة من سلسلة جبال لبنان الشمالي، وكرمسباط الذي كنت أقصده على ظهر البغل المحمل بالسجّاد وغير ذلك. الأمكنة لا تختلف إلا بمن يسكنها ويهتم بها ويؤلف عنها القصص والحكايات الخرافية هنيئاً للغابة السوداء بساحراتها على أمل أن تزور الساحرات القرنة السوداء أيضاً. انزلقت قدمي عند منحدر بسيط فوقعت وزلت قدمي الاصطناعية معها. الغضب في رأسي يشتعل وغياب ماتيلدا ورحيلها إلى لبنان أغضبني. لتأكلني ساحرات الغابة السوداء اللواتي لم أعرفهن كما عرفت... في كرمسباط بين غابة في عكار وغابة في ألمانيا قصص خرافية نجمعها في حكايا الأجداد منها ما يندثر ومنها ما يبقى في كتب الأدب.

لم أشأ أن أصبح وليمة لدببة الغابة السوداء ولا أن تأخذني ساحرة وأنا من انتصر على الغولة في حكاية خالتي فريدة حديدان وأنا المناضل الأكبر في الميدان. ضحكت في قرارة نفسي بعد نوبة غضب شديدة كدت أطيح فيها رؤوس الكؤوس. لو أني الآن عند وادي جهنم في عكار لكنت قفزت من أعلاه وتحطمت كما تحطمت السفينة على شاطئ طرابلس. قررت العودة إلى دار العجزة لاسترجاع مكانتي الهادئة عند عجائزي الشابات اللواتي أشعر بينهن أنني في عائلة من فريدات مختلفات جداً. في الواقع كنت أنتظر الكثير من فهمي للتقنية التي دخلت عليها. تصوّرت نفسي موشي دايان بعين مقلوعة أو قرصان

برجل مقطوعة وأنا أمشي على أرصفة مدينة سيلفايا باخ الرمادية بعيداً من جداولها ومياهها الرائعة في شهر حزيران. استنشقت هواء ما بعد الغروب وخلعت حذائي من رجلي السليمة لأشعر بملمس حجارة طريق العودة. توهجت أضواء النوافذ قبل أن أصل إلى عجائزي وأحسست بإيقاع خطواتي بين قدم عارية وأخرى اصطناعية كمن ينقر على الدف وآخر ينقر على الهواء. أنبأهم هيرو بنباحه أني وصلت فخرجن إلى الصالة للاطمئنان إليّ. عشت مع فريدة عشرين عاماً تقريباً ولم أر ساقيها إلا في فراشها مع الأصلع ومن ثقب الجدار. بينما أرى سيقان عجائزي ليل نهار ونهودهن أحياناً. أتساءل دائماً هل كنت سأهتم بذلك لو كانت فريدة على قيد الحياة الآن؟

أغلق هيرو فكيه بعد وصولي وأرخى ذيله خوفاً من لكمة على رأسه إن رفعه. أفتقد جداً بو جعفروخصوصاً في مثل هذه اللحظات. إذ ما كان ليتركني إلا والغليون الوردي محشو بالتبغ والكتاب في يدي. هيرو يفضل العجوزة ايمغارد دون الجميع ولم أفهم أسباب ذلك قط. لدي ما يكفي الآن من الأشخاص لأنسى حياتي الثانية في طرابلس، لكنها كانت زاخرة بتفاصيل لم أجد فيها مكاناً للطبيعة أو للأصدقاء كما أجدها في ألمانيا. كنت أشعر أني أركض ليل نهار لأحقق أهدافي ولم أفهم ماهية هذه الأهداف. ما أخشاه فعلاً هو فقدان ماتيلدا لقد جعلتني سعيداً ما يكفي بين عجائزي وتقاسمت وإياها أوجاعي وأخرجتني من فترة رقدت فيها على سرير الآلام ولم تشعر بالملل يوماً. حذرتني دوماً

من الاستسلام وما زالت كلمتها تتردد في رأسي «من فضلك عبدو عش حياة جديدة» أود سماعها الآن وأشتاق إلى صوتها.

أستيقظ على أصوات العجائز في الخارج «حان وقت المشي عبدو» في مثل عمرهن كانت فريدة تجلس على الليوان وتنتظر الأصلع الذي مات تاركاً امرأتين بعمر الورد وكل واحدة منهن تحتفظ بعطره في فراشها. أمسكت رجلي الاصطناعية ورفعتها بكلتا يدي وأنزلتها عن السرير. هواء حزيران يسري في أنفي وقد اختلطت رائحة ماتيلدا بها. يبدو أني أفتقدها جداً ولن أجلس على الليوان أنتظرها وأحتفظ بعطرها في فراشي. هذه رحلتي أنا سأكملها حتى الموت. عندما يقبض عزرائيل على روحي سأكون أفنيت هذا الجسد تماماً. أسوأ الأمور التي حدثت في حياتي هي خسارة أخي مرتين وابنته معه يفترض أن نكون معاً. كم كنت أتمنى أن أعرف ماذا حدث لأمي وكيف خرج من البئر؟ وقفت ومشيت عدة خطوات نحو الحمام لأغسل وجهي وأخرج إلى عجائزي اللئيمات اللواتي لا يرحمن رجلاً تركته ماتيلدا. صرخن عند خروجي من الباب بصوت واحد بث الرعب بي. قالت ايمغارد عبدو ننتظرك منذ نصف ساعة لا مطر اليوم. هيرو بانتظارنا.

لم ينتظرني أي كلب في حياتي. في عكار كنت مع بقراتي أنا من ينتظرها في المرعي. أمسكت العصا كرحالة لا يتهيب صعود الجبال رغم أن شكلي يشبه القرصان «لونغ جون سيلفر» لا لن أكذب على قرائي بل أشبه موشي ديان إذ بعين واحدة ورجل مقطوعة وعقل خطط

لماتيلدا لتكون فنانة تشكيلية تبيع لوحاتها بسرعة البرق، خيولها العربية في اللوحات يتسابق على شرائها رجال الأعمال الذين نتعامل معهم دائماً. والقول إن الفضل لي في ذلك هو من تواضعي.كان خوفها أكبر من قوتي التي بدأت بعرض لوحاتها ضمن معارض الفن التشكيلي في كل العواصم التي ذهبنا إليها والأسوأ أننا جنباً إلى جنب في سريرين منفصلين. ساعة الحب لا تعني ساعة النوم عند ماتيلدا تقول دائماً: «عبدو الحب لا يدوم في سرير واحد» تتمتع ماتيلدا بهدوء شديد وابتسامة فريدة وهي ابنة الغابة السوداء أو جارتها لا فرق ولدت هنا في سيلفايا باخ حيث القرميد الأحمر يعلو المنازل ما من بيوت للفقراء هنا. القرميد الأحمر كالطربوش فقط في عكار كانت بيوت الفقراء لا تشبه بيوت البكوات صرخت بي كاثرينا «عبدو انتبه أنت على الجسر الخشبي» أيقظتني من شرود عميق ومشي كاد يوصلني إلى جسر عرقا القديم في عكار لبنان. أحياناً يختلط الأمر علي فأشعر أني في عكار بعد ألف سنة وأنا أعيش في المستقبل. إلا أن التقاليد العكارية لا تشبه التقاليد في سيلفايا باخ من الأعياد إلى الاحتفالات بساحرات الغابة السوداء في المقاهي والحانات لم يكن من مقاهٍ في عكار بل منزول واحد في كل قرية.

– أرى أنك تسير كالأعمى عبدو.

قالت كاثرين ذلك وهي تحاول الجلوس على مقعد خشبي قرب الجدول. وقفت أتأملهن وهن يجلسن معها دون الاهتمام

برغبتي في الجلوس. وارتسمت ابتسامة على وجه غريتا التي جعلتني أتجرأ لأقول:

- لا رغبة لي في الجلوس هنا.
- كل شيء جميل والجدول يغني هنا اسمع عبدو.

وحده هيرو بقي واقفاً معي يهز ذيله كما أهز عصاي يا لسخرية الزمن. كنت أمسك عصاي في المرعى مع بقراتي دون كلب يحرسني واليوم مع عجائزي في المرعى وهيرو يحرسنا. جاهدت لأصمت وهن يتحدثن عن كتاب قرأته غريتا سألتني عنه فقلت لها إنه يجمع بين الرواية والفلسفة وقد استطاع إثارة الكثير من القضايا الحساسة في زمنه أهمها الانتحار.

لم أكن أفهم لغة غوته إلا بعد أن عشت في ألمانيا منذ عام ١٩٨٣ حتى الآن ٢٠١٨، يا إلهي ما أكثر السنين عندما نحسبها! مات أبو الزيك منذ ٣٥ عاماً هذا يعني أن مارلين لو كانت على قيد الحياة لكان عمرها ٤٧ عاماً ـ لو متُّ أنا وبقيت هي على قيد الحياة لكانت الآن امرأة ناضجة ولديها من الأولاد ما يجعلني الجد السعيد. نهضت غيرترود عن المقعد لتستعد للعودة إلى دار العجزة. تهاوت لحظة رؤيتي مارلين امرأة ناضجة وأنا أقف على أرض سيلفايا باخ قرب الجدول وأرى انعكاس الأشجار على وجه الماء. كانت كاثرينا قد بدأت المشي في طريق العودة وأيضاً غريتا وهيلدا وهيلين وهيرو والشمس ما قبل منتصف السماء تميل نحو الغروب في صعودها الأول. توقفت هنيهة

لأحشو غليوني قليلاً من التبغ. أشعلته وأكملت السير كالسلحفاة التي تخاف فتح فكيها وهي تطبق شفتيها على العصا.

استدارت هيلين نحوي مبتسمة وقالت: لا تلوث الهواء عبدو فأبطأت السير أكثر كي يتقدمن أمامي متراً أو ثلاثة لأبقي لهن الهواء من دون تلوث. لو رأت دخان المدافىء على الحطب في عكار تلك المنطقة التي ولدت فيها شمال لبنان، لأقامت شكوى في المحكمة هههه. ماذا لو عرفت أن عبدو الذي يقف أمامها كان يجفف زبل الأبقار ليحرقه في مواقد سلق البرغل وتحت قدور القشطة والحليب؟

كان بيت العجزة أشبه بثكنة بهجت غانم في طرابلس لبنان من حيث امتداده وقرميده الأحمر إذ يتسع مطبخه لطاولة من عشرين كرسيا مع براد كبير وفرن غاز ومغسلة للصحون وتلفزيون معلق على جدار ونافذتين وباب لحديقة غربية أزرع فيها الزنبق وبعض المزروعات. كان طقساً جميلاً فانصرفت منذ رجعنا إلى بيت العجزة لإعداد الترويقة مع عجائزي اللواتي بدأن بصنع الخبز اليومي. مسحت على رأس هيرو وجلست قربه بعد أن أنهيت دوري في تجهيز الطاولة بانتظار أن تنتهي هيلين من الخبز. لمحت الفراغ المهيب لماتيلدا في أول صباح ولا أعرف كيف سأكمل أيامي من دونها. كدت أنفجر غضباً مجدداً، فاعتذرت منهن ودخلت غرفتي لأتفقد هاتفي الذي تركته على السرير، لم أعتد حمله ولم يكن أي اتصال من ماتيلدا. فتحت الفايبر أيضاً فلم أجدها أونلاين كدت أحطم هذا الخلوي اللعين.

كنت في حالة سيئة وأصابني خمول شديد وحزن أشد وأقوى من يوم حادثة قصف الباخرة على شاطىء طرابلس. احتسيت قليلاً من النبيذ وجلست على سريري ممسكاً الخلوي لأدخل صفحتي الفايسبوك التي ذيلتها بجملة «ما كنت يوماً إلا الواعظ الذي عشق شذا فاح من شفتيك...» الواعظ.

بحثت في الصفحات الأخرى عن الأصدقاء أضفت بعضهم وكتبت تعليقات لبعضهم الآخر وبدأت طلبات الأصدقاء تزداد كل يوم. كنت أشعر أن ماتيلدا تدخل صفحتي الفايسبوكية فتركت لها جملة مسائية قبل النوم «قبلة من زنبق كأجراس قلبي الذي يرن من شوق وينادي محبوبتي تعالي» اعتمدت على شبكات التواصل الاجتماعي لأكتشف غيابي عن لبنان كل هذه الفترة. كم تتغير وسائل العيش والتواصل خلال سنوات قليلة. ما كنت أتخيل يوماً أني سأستطيع أن أطل على لبنان من صفحة فايسبوك. هذه العجلة لم تطحن عبدو بل وقف عليها مثل الدرّاجة القديمة. أخذته إلى سيلفايا باخ واليوم تعيده إلى أحضان لبنان افتراضياً. ليكن أليست الأرواح حولنا كبخار الماء تتبخر وتعود ونشعر بها في ذاكرتنا وفي الأمكنة والأشياء التي احتفظنا بها؟

بقيت أحتسي النبيذ وأقرأ على صفحات الفايسبوك تعليقات الأصدقاء حتى غفوت والخلوي قربي. قررت صباحاً ألاّ أفكر في ماتيلدا وأحاول الاهتمام بزهوري ونباتاتي وعجائزي، لطالما كنت

أسترسل في العمل لأنسى الماضي. خرجت من غرفتي وكانت العجائز جاهزات للمشي كعادتهن ففي شهر حزيران لا يهدأن من المشي الصباحي. مضى اليوم وفق روتين بارد ولم يحمل أي جديد بالنسبة إلي ولم تفارقني البسمة المصطنعة على وجهي من أجل العجائز اللواتي لا ذنب لهن في غياب ماتيلدا. حتى هيرو اليوم لم يهز ذنبه. في المساء دخلت غرفتي وجلست كما أنا على السرير بالسترة والبنطلون والحذاء وأخذت الخلوي عن السرير فوجدت مكالمة لي من لبنان. كاد يجن جنوني كيف لم أسمع رنينه ؟ المكالمة الساعة الرابعة والنصف عصراً بتوقيت لبنان. عاودت الاتصال بماتيلدا عبر الفايبر. كاد يتوقف قلبي عندما سمعت صوتها. وأكملت أنا بخير عبدو وأشتاق إليك وإلى العجائز وإلى هيرو جداً.

ماذا أتشتاقين إلى هيرو أكثر مني؟

- عبدو ما بك أنت حبيبي لا تنزعج من غيابي. غداً افتتاح معرضي سأفتقدك قربي. أرسل لك صور الافتتاح عبر الفايسبوك بارك لي أرجوك ولا تحزن سأنهي المعرض وآتي إليك فوراً.
- لا تبخسي نفسك حقها أنت امرأة عظيمة ماتيلدا. أنا مجرد رجل أحمق لا يعرف أن يعيش دون ماتيلدا.
- وماذا ستفعل إن مت أنا؟
- سأنتحر يا ماتيلدا.

- مجنون عبدو لذلك كنت أتحاشى عن الغياب عنك. لكن أنت ترفض المجيء إلى لبنان.
- لأنك تعلمين أني لن أزور لبنان وأخي ليس فيه.
- مؤسف عبدو هذا الكلام. انتبه إلى نفسك يجب أن أكمل بعض التجهيزات قبل الافتتاح.

اختفى صوتها من الجهاز ولم يك النشاط الذي دب في جسدي إلا جرعة استمرت دقائق ليعود الخمول إلى جسدي.

جال بصري في أنحاء الغرفة كأني أراها للمرة الأولى في حياتي. لم أشعر يوماً أنها أشبه بسجن صغير. ظل ماتيلدا عاد لحظات واختفى وما اكتفت حواسي بصوتها. تركت الغرفة وقررت المشي ليلاً تاركاً هيرو عند العجائز. أصابني الدوار قليلاً ترنحت وأسندت ظهري إلى جدار منزل قرب الجدول الذي أحبه في سيلفايا باخ. بصقت على الأرض دون أن يراني أحد، الحمدلله العتمة تغطي عيوب الإنسان أحياناً وما من ثقب هنا لأرى منه فريدة وأولد من جديد في مكان آخر. كم أتمنى ذلك.

أحسست أني أسير مع كل من أفتقدهم فريدة وخديجة وأبو الزيك والبرنسيسة ومارلين وأبو الخل. مشيت بمحاذاة الجدول وعلى طوله ذهاباً وإياباً. في خربة داوود وفي طريق العودة مررت على المزرعة لأتفقد البقرات لم أزرها منذ رحيل ماتيلدا لكن هوغو يعتني بها جيداً. لا أستطيع شرب حليب البودرة وما حاولت يوماً أن أكتشف طعمه. لحليب الأبقار طعم جرود عكار ورائحة ولادتي.

لم أستطع الراحة في غياب ماتيلدا ولم يغمض لي جفن كما ينبغي إلا بعد الافتتاح الذي تم على أكمل ما يرام. أرسلت إلي ماتيلدا الصور كما نشرتها أيضاً على صفحتها الفايسبوكية. كانت تقف قربها صبية جميلة جداً لفتت نظري لطولها الفارع الشبيه بطول فريدة، عرفت أن اسمها مارلا فيما بعد لأنها ظهرت على صفحة ماتيلدا مع أصدقائها فأضفتها إلى أصدقائي.

كنت سعيداً بالصور التي أرسلتها إلي ماتيلدا وشعرت بالفرح. تمنيت لو كنت قربها. لكني لا أجيء لبنان بعد موت كل من أحب فيه. ستنهي معرضها وتأتي. تركت لها تسجيلاً صوتياً أحبك ماتيلدا وأشتاق إليك. من هذه الصبية التي تمسك يدك وتبتسمين لها؟

كان جمالها السبعيني يشع من عينيها. مذ جمعني القدر بها وأنا في كر وفر تسافر وتتركني وحيداً أياماً أو أسافر وأتركها أياماً وحيدة وهذا ما دفعنا إلى الاهتمام بالعجائز وفتح دار للعجزة في أوفنمبورغ. هو بيت عائلة فعلاً. كانت هيلين تقرأ كتاباً لباولو كويلو الهيبي بينما ايمغارد تخيط جواربها وهيرو باسط ذراعيه في بهو البيت، جلست على الكرسي الهزاز لأستمتع بقسط من حرارة الشمس وشمس الظهيرة في وسط السماء.

سمعت رنين الهاتف يعلن وصول رسالة من ماتيلدا «أنا أحبك يا بيبي، المعرض كان جميلاً وهذه الصبية ابنة صديقتي تعرف إليها هي بحاجة إليك على ما أظن تتابع دراسة الدكتوراه ورسالتها عن «المجتمع العربي بين الريف والمدينة».

رسالة مصورة مقطع من فيديو بصوت ماتيلدا وقربها امرأة ذات شعر أحمر يتدلى على ظهرها والنمش على خديها يزيدها حسناً. يا لها من امرأة جميلة ذات شعر أحمر ونمش يزين الخدود البيضاء. أغلقت هاتفي وعدت إلى عجائزي الجميلات اللواتي يعددن أطباق الطعام للعشاء.

لولا العجائز لكنت في خبر كان أشكو غياب ماتيلدا عني، لو تعلم المرأة شدة حاجة الرجل إليها لجعلته عبدها الذي يموت إن فارقته. كان لا بد من مواصلة معرفة رحلة ماتيلدا إلى لبنان حتى انتهاء معرضها وعودتها إلي سالمة. منذ أربعة أسابيع وأنا أتخبط في غياب حصرني في قوقعة الانتظار، أنتظر مكالمة أنتظر تسجيلاً صوتياً، أنتظر كلمة بيبي التي تعيدني إلى أحضان فريدتي أو ماتيلدا.

اهتز الفايبر هذه المرة تلك المدعوة مارلا التي تريد مني مساعدتها في رسالة الدكتوراه. هل أحكي لها قصة متعوس ولد ثلاث مرات أو أربعاً أو خمساً أو ستاً؟ بدأت كلامها معي كأني أستاذ جامعي وما أنا إلا قارىء لكتب أجمعها من هنا وهناك. كانت تضجرني إن بدأت ببرود في حديثها عن الأدب والفن والمجتمع فأدّعي النعاس والنوم ولكن الأيام وحدها كفيلة بتوليد الألفة بين الأشخاص. اهتز الفايبر الذي أصبح كجرس الظهيرة في دار العجزة.

يقول لي الدكتور زراقط إن الشعر شيخ الفنون هل هذا صحيح يا عبدو؟

أتمنى تحطيم جمجمته هذا الزراقط. ألم يشرح لك لماذا هو شيخ الفنون؟

قال عليك بالمراجع لأني إن كنت سأشرح لكل طالب دكتوراه عن ذلك أحتاج إلى أعمار كثيرة من أجل أن أتمم المفهوم من وجهة نظري أنا وهذا يعطيه طابعاً أحادياً.

معه حق كما يبدو يا مارلا، سأقول لك ما أعرفه وأنا ثقافتي جمعية معرفية وليست أكاديمية. الشعر ديوان الأدب عالمياً سوفوكليس، يوربيدس، شكسبير، دانتي، كلكاميش، هوميروس، كانوا شعراء. مثل الواعظ عبدو خيمة الحياة وحضنها. أوه لا أذكر لمن قلت هذا الكلام سابقاً بأني خيمة الحياة وحضنها.

- وما دخل الواعظ بحديثنا يا عبدو؟
- هل تفصلينني عن ذاتي يا بنت. أنا الوعظ والواعظ عبدو.
- سرعان ما أحاطت بي من كل جانب هذه البنت ذات الشعر الأحمر، واستطاعت فك أسر وحدتي في غياب ماتيلدا، وفي حضورها الغائب فهي في سفر وحضور منذ معرضها الأخير. إلا أنها أثارت غيرة عجائزي اللواتي باتت طلباتهن أكثر من طلبات البكوات على العطوس. إلا أن الواعظ الذي هو أنا وذاك بات في حضور المرأة ذات الشعر الأحمر مختلفاً وبوجهين مختلفين. لا أؤمن بالمرأة لكن لوجودها في حياتي القدرة على بلوغي المرام. بقي علي معرفة لماذا

أرادت ماتيلدا أن أساعد مارلا وهي لم تؤمن يوماً بعلاقة المرأة بامرأة كما كانت حريصة دائماً على أن أكون لها ومعها فقط رغم وجودي بين عجائزنا.

عاد الفايبر للاهتزاز وهذه المرة بكلمات محفزة من امرأة حمراء غرناطتي مارلا.

- أي معرفة تضفي علينا جمالاً؟
- معرفة لا أكتسبها منك بل معرفة أكتسبها من الحياة نفسها.
- ومشكلات الحياة؟
- المشكلات تذوب بوجود العناصر التي ذكرت لأنها تكون حافزاً لامتصاص أكبر المشكلات مثلاً اليأس تابوت الرتابة وقبر الحياة.
- لا أشعر باليأس يا عبدو فلا تخلط الأمور.
- إذاً هناك سبب خفي تعرفينه أنت عاش أحدهم ١٠٥ أعوام سألوه بماذا تفكر؟ قال تعبت أريد الرحيل. لأنه يفتقد الجنس برأيي فالجنس هو الطاقة المحركة للحياة، بغيابه تفتعل الزوجات الحروب ويفشل الرجال العاجزون عن التقدم، الطاقة مهمة في تذويب المشكلات والصراعات والحروب. دعينا نتفق على أن الواعظ هو عبدو والواعظ هو المحرّك، الأول للطاقة الجنسية فأنا الواعظ والواعظ عبدو وهو مخلوق مهم فعّال في الحياة.

- اتفقنا ولكن لا أحب الأحاديث المخضبة بالطاقة المحركة للمشاعر.
- هو الواعظ ليكن الواعظ اتفقنا؟
- يبدو أنك رجل بائس في غياب ماتيلدا.
- لا أنكر ذلك مطلقاً هي أساس قوتي وبأسي لكن سأعتبر الواعظ مثل إبليس الذي يدخل بين المرء ونفسه؟
وعي الرب ليس كوعي الناس. وأنا أقصد الواعظ هو من الجزئي إلى الكلي؟
- إبليس كان ملكاً صالحاً من عبادنا. هو من وجهة نظر الله مخطىء لكنه من الناحية العلمية الخطأ عند الله الذي لم يتقبل الرأي الآخر.
- كيف وعي الرب ليس كوعي الناس؟
- قال الملائكة سجدوا لآدم إلا إبليس. الرجل قال: أنت علمتني أن لا أسجد إلا لله رب العالمين، فكيف أسجد لمخلوق ذراته من طين، ثم أنا أفضل منه هو من طين وأنا من نار هذه وجهة نظر إبليس طبعاً. الوعي الراهن يفهم أشياء تافهة عن حياته ومعارفه صفر بممالك الله. حين ينتقل إليه تتسع معارفه. كنت صفراً عند فريدة وأصبحت موسوعة عند ماتيلدا ما الفرق يا مارلا بين عبدو والواعظ؟
- لماذا تهتم ماتيلدا بك تقدم لك حياة الرفاهية. بينما هربت من لبنان برجل مقطوعة؟

- جهل وتخلف حضاري حين جئت ألمانيا رحبت بي ماتيلدا لأننا كنا على معرفة سابقة كانت زوجتي. خلال تسعين دقيقة حصلت على اللجوء السياسي بفضل ماتيلدا. لو خيروا شكسبير بين العودة مع حذف تاريخه لرضي العودة يوماً واحداً. أمجاد الإنسان متعة حياته فإن مات لا أمجاد بل دعاية مهرجانية يتبارى فيها الخطباء بمعنى صفر وهو الخاسر الأعظم.
- أليست أعمال الإنسان صدقة جارية؟
- لا، حسناته أفعاله الطيبة مجازياً ولكنه لن يربح ماذا تربح الشمس وهي يتبدد ضوؤها؟ ماذا يربح البحر وهو يتبخر كل يوم؟
- إمداد الناس بالملح.
- الملح مادة قاتلة كلوريد.
- هل مددت من عرفتهن بالمادة القاتلة في معرفتك بهن؟
- لم هذا السؤال يا مارلا؟ سأقول لك المهم بمعرفتي بهن، مددتهن بالأمل لقاء أن أحيا بينهن كريماً. هات وخذ أنت تدرسين الدكتوراه من أجل العيش في واقع أفضل وبمزيد من الاستقلالية والكرامة لا صدقة جارية للغير. الدراسة أو كتابة البحث الذي تقومين به هو مجهود إنتاجي عضلي وفكري كي تعيشي حياتك برفعة أما بعدها فلا يهمك أي

شيء فأنت لست موجودة ومن يعش الحياة هو الحاضر فيها أما الغائب فيتحدثون عنه فقط.

- حيّرتني فيك يا عبدو.
- كفاح الإنسان أن يعيش الحياة. ما معنى تاج محل فوق هيكلين عظميين؟ لمن للسياح؟. إبقي بفهمك إن لم تزمعي المزيد من الفهم. أنا تجربتي في الحياة بسيطة وساذجة كنت طفلاً يتخبط وما زلت أتخبط في الحيوات التي عشتها وأنت أكثر قرباً من تفاصيل حياتي بالفهم وليس بالمعرفة لكني سأزودك قريباً بملف معرفة عن حياتي برمتها.

سأقول لك شيئاً الواعظ سر حيويتي ووجودي وخيالي.

- من تقصد بالواعظ؟ ألست أنت هو؟
- ستفهمين لاحقاً اعتبرينا معاً لكننا محرك وفاعل.
- إذاً كل ما يفعله العبقري في حياته لا ينفعه لماذا يتعب ويقدم ما لم يفهمه الناس في وجوده؟
- عندما كنت أتعلم كيف أعيش لم أكن في الواقع أتعلم إلا كيف أموت هذا قول ليوناردو دافينشي. يقصد طريق المجد كالفارس الذي يرى النصر بسيفه وهو يغمض عينيه؟
- تقصد البحث عن لذة؟
- اللذة هي متعة الخلود. من لا يعرف ذلك لا يعرف الحياة. اللذة في ذروة العملية الجنسية ترتفع بك في فضاء الجمال

والهيام والعذوبة الروحية أما الجنسية فلا تشمل سوى ثلاثة بالمئة. العلم سمى اللذة الجنسية المعشوقة ملكة اللذات.

- ما سر نعاسي يا عبدو وأنا أكلمك؟
- يبدو أنني متعب لك ؟!
- أشعر بالسلام والهدوء كأنك تحكي لي حكاية قبل النوم.
- لأني أجعل الحقيقة دماً عذباً في شراييناك. أشعرك بلذة تشتهينها في الحياة.
- ألهذا تعشق النساء الأنبياء؟
- لا أدري بعضهن خان الأنبياء كزوجتي هود وصالح كانتا تحت عبدين صالحين فخانتاهما.
- ألا تخاف من خيانتي لك؟
- لن تفعليها.
- مؤمن بذلك؟
- نعم، جداً.
- أخاف أن أعشقك.
- أنت أقوى من الخوف. دمك دمي وأنسجتنا هي وعينا المشترك. وأنا وجدت الحقيقة لا الجسد العاطفي أشعر أني قلت هذا الكلام من قبل هل عشت حياة أخرى برأيك يا مارلا؟ مذ ذهبت إلى قبرص مع ناديا وذاكرتي لا أعرف ما حل بها.

- تقصد أنك وجدت أنك ما زلت تحتاج..لم أفهم؟
- وجدت الحقيقة أن الجسد العاطفي هو ما يمثل الحب الكامل بمعنى أنه هو ما ينطوي على الرغبات المشبعة بالحب.
- تقصد أنك قد تحظى به ولا تدركه؟
- لم أجده، لم أحظ به، لكني عرفته خذي مثلاً: رجلاً عرف أجمل نساء الدنيا ضاجعهن مرة أو ست مرات ثم شعر أنه بعيد عنهن وعن أجسادهن بالمرة. ورجل ضاجع قروية بسيطة الجمال ووجد كل لحظة أنه يحتاج إليها جنسياً. ماذا يعني أنه كلما ضاجع جديدة وفتية وجميلة شعر أنه يحتاج إلى القروية وأنها أمتع؟
- أحبها؟
- هذا هو الجسد العاطفي كجسدك لمن يحبه مثلاً.
- من لم يحب فكري لم يحبني وهذا يعني أنهم يبحثون عن جسد.
- إذا لا يحبون فكرك. لذا النسيج العاطفي للجسد لم يتصل بهم ليس ثمة كونتاك لذا هم شهوانيون حيوانيون وليسوا من أقصد. لكن لماذا تخشين عاطفة فاضلة وأنت نسغ الفضائل تحيرينني أحياناً.
- بعد طلاقي شعرت أن أغلب من ألتقيهم كزوجي من سماتهم وأسلوب كلامهم ومحاولاتهم التقرب مني.

- هل تعرفين كيف رأى وليم جيمس أكبر فلاسفة أميركا الإيمان بالله؟
- لا.
- قال: يسطع الإيمان في النفس المؤمنة عفوياً كسطوع القمر على بركة ساكنة. هكذا العشق المقدس شئنا أو أبينا هربنا أو انتمينا.
- لنفرض أني عشقتك عشقاً مقدساً هل يدوم؟
- إلى الأبد لأني لن أنساك مدى الحياة لن تعرفي السبب لكنه بسيط جداً وربما لن تصدقيه. أنت الإنسانة الوحيدة التي في كيانها مجال اتساعي للصبر والتعلق والفهم والرغبة في المضي عمقاً أبعد..بأعصاب باردة وتسامح مطلق ومحاولة لا تمل ولا تكل والود فيك مجرد من الغائية الحقيرة والنفسية المقيتة والاستعلاء الكاذب والنفاق الاجتماعي المسف. فكل من عرفت إما مبهور بشخصيتي وإما بمكانتي وإما بفعاليتي التانتراوية وفهمي للجنس. ولا أهتم إن كنت تحبين أحدهم أو خائفة من ماض لا أهتم بذلك الملف فمكانه الرفوف أنا أغربل مفاهيمك مارلا أريتك حجم الحصى والرمل فيها.
- فيلسوفي الصغير.

هـذا عصر للواعظ حكمة العالم
وخبرة الطبيب وقوة العاشق وشغف
المعشوق.

لعبت مارلا دوراً مهماً في حياتي رغم أن ماتيلدا حذّرتني أن الشابات في قلوبهن قوة تتخطى حنان النساء الكبيرات في السن واهتمامي بمارلا هو اهتمامي بالعودة إلى الحياة من جديد. لم أصدق التحليل النفسي الذي كانت تمارسه ماتيلدا علي وعلى عجائزي في دار العجزة إلا أني فتحت الواتساب لأتحدث مع صغيرتي.

كيفك يا بنت يا زغيرة بعين العدو كبيرة بعيني ألم تفتقديني؟

أنام وأصحو وأفكر في رسالة الدكتوراه.

- عندما تفتقدين الأحبة يضيق العالم كخرم الإبرة في عينيك طالما ذكرتك. أشعر أني قلت هذه الكلمات لإحداهن.
- ممكن جداً.
- بين الممكن والمستحيل تفقدين أيامك لماذا؟

- أشعر بالفشل يا عبدو.
- لو كنت هنا لجعلتك في المريخ أميرة عليه سيكون الغد أجمل.
- كل شيء مرتبط بماضينا يا عبدو. أفكر لماذا اختفى أبي هل مات أو تزوج أوهاجر؟
- الماضي يستحدث بتفعيل العاطفة بما يلائمها ولم لا؟ وهل أجمل منها؟
- نسيت أني مطلقة؟
- هل قلت لي مثلاً؟

لا أبداً..

- ممّ تخافين إذاً؟ يبدو من تشاؤمك من عدميتك من رمادية نظرتك؟
- الصداقة أجمل من الحب. الحب شجرة تطرح ثمارها بعد حين. الصداقة شجرة ثمارها أوراقها وأغصانها وجذوعها وسمادها. إنها في ديمومة العطاء لأنها أي الصداقة عطاء تام من دون مقابل. أقرب الناس لحياتي أصدقائي. هؤلاء لا تحركهم الغيرة وحب الاستملاك، يمنحونني الحب كله ولا يقدمون الفاتورة. الحبيب يحاسب والصديق يعاتب الحبيب يريد براهين ويملي شروطاً ويضع حدوداً الصديق لا. الحبيب رعبك الداخلي الصديق تطلب منه

وهو الأمل. الحبيب يقول وبعد ذلك ماذا أقبض؟ الصديق يضحك الحبيب يتبرم ويشك في ضحكتك. الحبيب لذيذ في الفراش.. الصديق أمان في المعاش. الحبيب تخاف منه الصديق تلجأ إليه. الحبيب تخفي عنه الصديق له البوح كله.

- ماذا ستفعل اليوم؟
- سأنهي كتابة ذكرياتي لأودعها صندوق الأمانات باسمك؟
- لماذا باسمي ولماذا أنا يا عبدو؟
- ألا تحلمين بمعرفة أسراري كاملة ألا تحلمين بكتابة رواية ؟ ومن ثم تحويلها إلى سيناريو؟

اعرفي أول أبجدية العمل لا تكتبي إن لم تكلفي، وإن كتبت فموجز للحكاية بصفحتين للجهة المنتجة حين تقرها تباشرين كتابة السيناريو، وهذا يعني تلخيص الرواية إلى عشر صفحات ثم المباشرة بتقطيعها، وإبراز الحدث الأكثر إثارة فيها من نمو. أي خلية فيه هل سأبقى أعلمك؟ كنت أود نصحك لكني ربما فشلت كما يبدو! أنت على حق.

- تدهشني يا عبدو، أنت محترف ولست عديم الخبرة بكتابة السيناريو.
- طبعاً ضروري جداًمعرفة تقنيات السيناريو العالمية التي تختلف عنها في الأعمال المصرية والسورية. الكتابات النموذجية هي كتابات وحيد حامد في مصر. لهذا يجب

أن تتعلمي حرفية تقنيات كتابة السيناريو، وهي في كتب مترجمة تجدينها في معظم المكتبات. والنقد يحتاج إلى لغة تجريدية لا شعرية أحياناً.

- هل أقبل تاج الورد يا جاحدة؟
- أنا أشاهد فيلماً غربياً بعنوان الأسطورة.
- تغربلينني يا بنت؟!!
- لماذا تقول هذا؟
- أنت هنا في حالة غليان بين التمرد الوجداني على منطوياتك العاطفية، و جبروت كبريائك الصاخب. لذلك كلما طأطأت هامتك لتستسلمي يناديك هاجس الرفض، فالأشياء ما زالت أمامك أدنى من طموح، وأصغر من حلم وأبخس من أن تعطيها جوانحك كلها. إنه التحدي والاستجابة. أنت في داخلك شيطان يعبىء دماغك بشيكات مليارية غير متحققة من أرصدتها. لذلك يتجاذبك المد والجزر، فلا تعطي ولا تستسلمين. برغم أن كل وجدانك يريد وكل جوانحك تصرخ وكل لواعجك تشتهي وكل خفاياك رغبة وكل وجودك جموح.
- لا تسترسل أرجوك.
- هل بالغت؟ هل كذبت؟ هل ادعيت؟ اضربيني بالنعل إن شعرت بنفاقي.

الحمدلله إن الدكتور زراقط لا يفهمني كما تفهمني أنت. وإلا لوضعني في دائرة لا خروج منها.

أنا من جيل منك ولكن لا ينتمي إليك أعالجك أنا طبيب نفسي ولست مثل ايمغارد تحاصرني بتحليل سلوكي وتجعلني أمام مرآة لا تنكسر.

- ماذا يعني أن تعدوا نعمة الله لا تحصوها؟
- لست واعظاً يا بنت لكن سأؤلف لك كتاباً عن حياتي. يبدو أن حسنات الشيخ مرزوق كبرت بي وهو من علمني الحرف والبلاغة معاً.
- أثق بأن وعيك للتعلم أكبر من وعي آخر وفهمك للمعاني مختلف.

وأتاكم من كل ما سألتموه وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار، فليس أوسع مغفرة منه ولا أجل ولا أعظم. هو رحمة العالمين. لقد نسخت مغفرته كل عقاب. بعد أن فاض به من فساد الخلق وفجور الإنسان الذي كلما تتسع مفاسده اتسعت بأضعاف منها مغفرة من الله وفضل عظيم. فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفروني لكن الإنسان كفار عنود.

- سيكفرونك لو سمعوك يا عبدو.
- الكلام لك وليس لهم. أنا أشبه بالذي قال إن الأرض كروية في القرن الرابع الميلادي. الله ليس الذي يسوقونه

للعامة ففهمهم للدين منفعي يسوغون الجريمة باسم الدين والرذيلة والسرقات والانحراف.

- أحب حديثك الواعي هذا؟
- هل تقصدين أني مجنون غير واع؟
- لا أبداً تدرك محبتي لك يا عبدو.
- غالية أنت ثمة شحن من العواطف الملتهبة تخمدين نارها بيديك لكن شواظها يجعلك قطباً نائياً أريد إدراكه ولو لمرة واحدة. لمرة واحدة أدرك المرأة فيك، فلا يعقل مهادنتك للأشياء خوفك منها ليس كل العالم أبالسة، لكنهن لكم وأنتم لباس لهن الرجل لها وهي له خارج أقواس التهرب الأدبي وماله الزواج وماله الرجل.
- عبدو لا تدخل في شرح عن هذا.
- هذه المؤسسة التاريخية باقية برخامها وجمودها وأبديتها، فهي لن تتطور يوماً ولن تتفجر البراكين تحتها أنا الوحيد من يفهمك في الدنيا كلها. الذي بيننا رباط عقلي متين فقد تهرم الأنوثة وتموت الرغبات، أما أطيافنا فستبقى متعانقة.
- تعانقت أطياف سحر وفريدة وخديجة والبرنسيسة وغيرهن اللوتي قصصت لي حكايتهن؟
- وهل أنا ميت يا بنت؟ إنني لا أشبه من عرفت وإلا لما دامت مودتنا حتى الآن وتعمقت كل هذه الشهور، ما طلبت

من فريدة حباً ولا من خديجة كنت أشعر بالسعادة وهما تتلذذان في فراشهما، فأتلذذ معهما واشعر بمتعتهما تسري في جسدي لا أعرف ما الحكمة من ذلك وكنت من الغلمان ولا أعرف ما الذي يحدث لأمنع نفسي عن ذلك هل أنا مخطىء؟

- لا لست مخطئاً ها هي الأبواب السرية الداخلية بيننا مفتوحة بعضها على بعض؟
- عليك بقراءة كتاب الإنسان ذلك المجهول لألكسيس كاريل لتفتح الأبواب أكثر الفسلجة البشرية مهمة، وطاقة الفحولة تنبع من خلايا العبقرية نفسها في الغدد الكظرية والنخامية هل تشتهين شهوة غريزية أو عقلية؟ إنسانية أو بوهيمية؟ جامحة أو هادئة؟
- هات مشاعر واعظ فنان.
- شيء من طينة جبل لبنان الأشم وأشياء من عكار ووديانها، وهنا أقصد جبل أكروم ومواويل الحداثة المثقلة بالأصالة الشعبية والصوت العاطفي في غابات الأرز التي تذكرني بشبابي مع أسعد وخلدون وأمهز وجبار وطارق وتوفيق وأشياء أكثر عن حواضر صوت الحجية الخجول، وبحة صوتها وميزة عالمها المجنح. يا بنت ذكرتني بالحياة التافهة الجميلة واللذة الحقيقية بوعيها. اللذة العاقلة أهم متع الحياة

لذلك قال أحدهم الجنس ملك اللذات والنساء هن أكثر موضوعات الكتب النبيلة، بل أحدها متخصص بالتفاصيل. يا بنت متعة الجنس تحسس والحجية كانت تمارسه بعقل فنجحت. المرأة بذروة لذة الحياة وفي أثناء وعي شهوتها تشعر بأنها خالدة، وهذا سر الحجية والبرنسيسة فيما بعد أتعرفين؟ إحداهن أحبتني وهي سيدة مجتمع راقية وفي مستوى خرافي لكن قالت هناك صعوبة في استمرارنا.

- هل أنت واعظ فعلاً؟
- وهل أكذب عليك وأجمل ما فيك انفتاحك النفسي علي ومعي سواء التقيتك أو لا. لقد بت أشعر أنك أخذت تلامسين إنسانيتك الحقة وتشعرين بلذتها. سأزرع حديقتك زنبقاً، ولكن اعلمي أن قمع الشهوات تعفف مرهق قاتل ومنهك ومكفىء لجذوة الروح. فالشهوة تتبعها لذة هي عنفوان الإحساس بمتعة الشيء، هذا التلذذ المشتهى هو دوامة روحية من الوله الغامض، لذة الشهوة اندفاعات للروح ذروة تلذذها هي طعم الحياة التشبث لذة لا يود المرء أن يفيق منها. ففي ذروة لذة المرأة والرجل يتناسى كل منهما المحذور حتى القدرنفسه. لأن عشق الحياة إنسانياً وحيوانياً دوافعه غموض اللذة التي لا حدود لها. أنت في لذة ما تتمنين أن تطول مليون عام لا ترغبين أن تنطفىء،

فلذة المرء مصدر إحساسه بالخلود يقيناً. أجمل ما يتذكره المرء هو لذته وأحلى خصائص سره الشخصي هي شهوته.

وحب الشخص لذاته؟ ينبع من إحساسه بلذته من أنانيته. فهو يتمناها له وحده وأن يغلي بها وحده في جحيم دافىء مرغوب فيه. لهذا كادت سهام تلتهم علياً غير مرة كانت تقول له: أنا لا أشبع منك خلك حدي تهمس له في أذنه وشوشات تمنيت أن أسمعها. هذه المرأة تكون ساكنة كالحمامة لذتها مصدر حراك سواكنها وتلجلج أركانها ورجفانها وارتعاشها وانقباضها وهي قوية شرسة يجن جنونها إذا خرج علي من الياخور وهي لم تشبع منه حتى تكاد تحطم الصحون وهي تنظفها وتطلق الشتائم بوجه كل من في البيت من خدم وكنت أضحك بوجهها وأعلم سر غضبها بعد سكونها وهذه امرأة كالعقرب يموت الحبيب من سمها.

- حرام عليك يا عبدو المرأة ربما ماتت.
- مؤكد ماتت.
- -كيف عرفت؟
- كانت أكبر مني يا بنت.
- هذه هي حقائق الأشياء التي نتجنبها خشية وخجلاً ونكذب على الحياة ونخترع حيلنا وأسبابنا لنتناساها أحياناً خجلاً من جواب يرمز إليه المرء بوردة أو زنبق يخفي فيه مشاعره الحقيقية وأحياناً يتغلب على عوامل ضعفه، فيقول نعم هذا

هو الحق الترميز بالورد كما تفعلين وترسلين لي وردة على صفحة المحادثة، الترميز بالورد تعبير مجازي عن إيجابية الرد، وهذا ما كانت تفعله خديجة كل يوم صباحاً، لأنها كانت تحب من جهاد القزم مضاجعتها صباحاً وهو خامل متثائب طوال النهار وفي الليل يشن حروبه بين فراشين أحدهما بارد والآخر حار. النساء مثل عجينة البسكويت كل قطعة مختلفة ذات طعم مختلف لكن العجينة واحدة.

- الحب يا مارلا يجعلني أكتشف ملذاتي كلها أو كل عجائني فأنغلق دونه ولا أرغب في سواه وأنت والأيقونة خلفك رمز عشقي لا شهوتي وأجمل النساء تُشترى لكن الحب مستحيل، فالحبيبة زمن لا يُمل وقوده العاطفة براكين مختلفة وعاطفة ماتيلدا الآن نحوي بركان لم يهدأ، لم تهتم بمعاشرتي لها بقدر اهتمامي ببقائي بخير قربها.
- هل تشبه سهام؟
- مستحيل قطعة بسكويت مختلفة أكلمك جدلياً يا مارلا لا سوفسطائياً لذلك تجدين الحب يعمر سنين طويلة مع عضوين فقط، لكن الرغبة تنتهي بمودة الشخص الآخر بعد انقضاء الشهوة تموت المودة مع انتهاء الممارسة. لأن الحب صفر في منظومة العلاقة الزمنية. لكنه جبل من أرقام في العاطفة. والعاطفة السليمة تغذي الجنس بينما

الشهوة المجردة تقضي عليه وعليها تنضبه تجففه. يشتهي الرجل المرأة التي يحب كل يوم لكن لا يفعل ذلك مع امرأة يمارس الجنس معها يومياً. العاطفة وقود الجنس العاطفي والجنس العاطفي ذروة الشهوات وإكسير اللذات هكذا يفعل رجل يعشق امرأة يحافظ على بهجتها وحديقتها الزنبقية. هذا ما فعله جهاد أحب فريدة وحافظ على خديجة والباقيات خميرتهن، لأنه كان يستنكف أن يفعل معهن ما يفعل مع خديجة وفريدة. لكنه كان يحتاج إلى بوح يريح القلب ويحرر الشعور من المخاوف، كان يحتاج إلى أن يكون بمستوى سحر والحجية كي يتبادل وإياهما ممنوعات نفسه، كي يسمعهما ما في قلبه وما يشفيه من هواجس بكوية ما نفعته قط. لأنه ما أكمل الحياة بسلام. أتمنى أن تتمتعي بحياتك مارلا وأن تشبعي عجينتك البسكويتية بالأطايب وتعتصري مذاقها في فم من يحبك وروحه.

- كلامك مخجل عبدو.
- لا أبداً كيف يكون مخجلاً وهو إحساس بمعنى الرمز وتكريم لأنوثتك ومحبة وتعظيم لها ولكينونتك الإنسانية وتكريم لجسد روحك قابعة فيه. كفانا خجلاً لا أتخيل نفسي طارئاً على حياتك، بل جزءاً منها إن لم أك كذلك فعفواً.

- سألتقي الدكتور زراقط اليوم لترجمة رواية إلى الإنكليزية فيها ملء تفاصيل البلاء اللذيذ.
- نلتقي ليلاً لأني ذاهب أيضاً مع ايمغارد إلى السوق سنحتفل معاً الليلة، لتكن كل التعابير مكروسكوبية وأنتقي في الحياة ما يسعدك.

أثار حديثي مع مارلا شجون الماضي وتركني بين يدي ايمغارد التي ترعى العجائز وترعاني كطفل صغير أو الأحرى كفيل صغير طلبت منها أن تحضر لي كتاباً من المكتبة من اختيارها. لعلي أنسى تاريخ حياتي الذي صنعته بنفسي وما صنعه لي أحد. كانت ماتيلدا تتلذذ وأنا أحادث مارلا وغالباً ما ترسمني وتلتقط تعابيري فأفاجأ بما التقطته. الافتراض الخادع كالحلم الكاذب نستفيق منه ولا نعرف ما حدث أثناء نومنا.

جلست تتأملني بعد أن اهتز الفايبر الذي اكتفيت بوجود مارلا فيه رغم الصداقات الكثيرة على صفحتي الفايسبوكية لكني اكتفيت بها.

- حياتي أين أنت؟ لا شك أنك تتغدين جعله الله طعاماً هنيئاً يسري مسرى اللذة في شعابك ووديانك وهضابك.
- هل نعيش كذبة كبرى في التاريخ؟
- تخيلي كيف كتب هتلر التاريخ حين احتل بولندا، تخيلي كيف كتب الأمويون تاريخهم، اقرئي التاريخ زمن

الفاطميين اقرئيه زمن صلاح الدين اقرئي رأي العباسيين بالأمويين ورأي الأمويين بالهاشميين التاريخ برمته عدا التاريخ الفرعوني المدون والتاريخ البابلي المدون والتاريخ الروماني المدون تاريخنا يا سيدتي هراء، اذهبي للنوم.

- لا أريد النوم كيف عرفت كل هذا؟
- منذ وصلت إلى ألمانيا وأنا أقرأ وماذا يفعل عبدو دون حكايات فريدة سوى أن يبحث عن حكايات في كتب ماتيلدا ومكتبة مأوى العجائز هنا زاخرة، هي ياخور ماتيلدي بأحصنة الكتب، ونحن العجائز أيضاً أحصنتها. الفراسة مهنتي والتاريخ هوايتي وامتصاصي للمعاني تعلمته من كتب الفلاسفة الكبار. قريباً سأنهي كتابي الواعظ، جهزي نفسك لتسلمه. هنا أنا مدير للمكتبة الثقافية في مأوى العجائز وأقرأ الكثير مما لا أبوح به حتى لمارلا.
- لأنني افتراضية؟
- أنت لست افتراضية أنت جزء من وجداني الشخصي وجزء من منظومة اهتماماتي وجزء من ذاكرتي وجزء من مصائبي طوال عمر ي أعلم نساء خائبات.
- كلامك أزعجني.
- أمازحك يا بنت يعجبني أن أنرفزك مكتئبة أنت منغلقة فكرياً متقوقعة أدبياً خوافة مع أنك أقوى من اللبوة، أقول يا بنت

اطرحي المشكلات السايكولوجية للرجل والمرأة التي تجعل الرجل يزيغ والمرأة تبتعد، عيب أن تقولي: لا أجرؤ. كيف ستكونين طبيبة تعالج بالكلمات لا المشارط إذاً؟

- لم أنضج بما فيه الكفاية أمام الدكتور زراقط أشعر أني مكتملة فكرياً هو لا يمتلك هذا القدر من المعرفة الذي تمتلكه معك أشعر أني صفر.
- أنت مشروع امرأة حضارية لأن لديك من الفضائل ما يساعد على ذلك وأنا أصارحك دائماً القول هل صادفك في حياتك من يشبهني؟
- حقيقة لا أنت عشت غيرحياة وشخصيات متعددة لا أعرف كيف أصفك؟
- لذلك وجدتك طينة مقدسة تنجب لا بشراً لكنك بحاجة إلى الشحذ والتوجيه والمراقبة، والتشجيع والقوة والجرأة أنت مخلوقة كريمة فضائلك أكبر من سعيك حذرة، ولكنك شيء أتعب منه، ولأني لا أروم مفارقته أحياناً أشعر بأنك بجعة كبيرة تهم بالطيران، فترتفع متراً ثم عشرة يبدو أني هاوٍ للمتاعب. عشت حياتي أتعلم كيف أكتشف الأشياء وكيف أصل إلى الحقيقة ورغم محبة أهل الدار لي وسابقاً أهل القرية لا ارى أنني حققت شيئاً برغم أني أنجزت تراثاً كبيراً من صنع الصابون اللبناني والمحال التجارية، وهي محض

تجاربي وربما أنا عبثي رجل أخرق يا مارلا كم أشتهي معرفة ماذا تمثل الزنبقة البيضاء لفريدة والزنبقة الحمراء التي ترسلينها هنا؟

- هههههه أرسلها لك كي أرطب حزنك وأكبت جماح استرسالك الموجع بين الرصافة والجسر.
- يستحي اللسان ويتردد القلم وترتجف الشفاه ماذا سيحصل لو مرت أناملي على شفتيك الآن؟ ومسحت وجهك بكفي واحتضنتك برفق ودعكت شعرك بوجهي ألا أشعل نيران مجاعة مشتهاة.
- اذهب إلى ماتيلدا يا عبدو واتركني في بحثي.
- أنت محنطة بتقاليدك مذ ولدت ويا للأسف أنا لا أعسل لك الكلام طوال عمري كلامي رمال وأشواك وحقول ميتة أهون عليك فأسترسل بمشاعر باردة لا حياة فيها وربما بمشاكسة مازح ودود.
- للأسف أشعر بغرابة في الليل.
- الليل يوقظ أجراس الصمت في داخلي، يوقظ مخيلتي ويسترجع التاريخ فيتحرك واعظي المحنط أيضاً فهل توقظه الأموات؟
- من هو واعظك يا عبدو؟
- واعظي الذي تخشينه دائماً ولا تحبين اسمه الحقيقي

يشبهني واعظي ويعشق تاج الورد الموجود فيك. أنت هامش في حياة متجلدة تمر بهدوء مرور كتل الثلج في المحيط لا أقصد التجريح والله لكن فهمي لك هو هذا كلما حاولت أن أجد بديلاً تصدني بصلابته.

- أنا سابحة في عتمة خارج العالم.
- الموتى لا يكذبون وعالمك ميت ينطق عبر لسانك.
- كيف هذا؟
- هذا ليس سؤالاً بل جواب كيف هذا. تسألين؟ هذا تعبير موارب عن تهرب ذاتك من فراش دفئها أنت كمن يستجير بالبساط السحري وهو على مقعد طائرة. عظمة العبقرية في الفرد صراحته، الصراحة شجاعة أو ريح تدفع الشراع نحو جزر بعيدة. الصراحة يا مارلا تغلب على النفس وهي احتواء لجوانب الهزيمة في الوجدان، عبقريتك تكمن في قوتك وقوتك حقيقة قولك.
- هل هذه أحجية؟
- لا تتلاعبي بالألفاظ. دعي اللفظ يسم الأشياء كما أسميها معك كما تخرج شجاعتي إليك من فمي، كما أقول أي شيء بلا تردد دعي مارلا تخرج من كابوس مخاوفك، أطلقي مارلا الأسيرة، فلن تخسري سوى هزائمك. أنت لا تريدين فهم إلا ما تفهمينه أنت فقط. مارلا أسيرة وعي ذهني يحيط بحقيقتها كالسمع أنت مشكلتي وربما مشكلتك أيضاً.

- أنا حزينة؟
- لماذا حزينة؟ الوحدة تدخل اليأس إلى النفس فشاغليها بما يطيب النفس.
- يا ليته يدخل سيسليني إن فعل لأن الحياة تحاصرني محاصرة مميتة.

أعرف ما تمرين به، لا تهتمي مطلقاً أزعل كثيراً وأتمنى مؤانستك وإسعادك والترويح عنك.

لماذا أصاب بعاصفة من الحزن؟

- الفراغ يا مارلا.
- الحاجة إلى الآخر.

أكيد أنا أحتاج إليك أيضاً برغم أن عالمي مكتظ بالأشباح من حولي، لا تفكري أعطي نفسك فرصة الحياة، أخرجيها من قمقم الخوف والتوجس، ابعثي فيها توقك وإنسانيتك، جموحك الذي تجلد أيقظيه أيقظي نفسك من سبات خوفك تفتحي كالزهرة انشرحي لفكاهة طرفة كلمة تثيرك.

- إدراك الحقائق مهيب؟
- إدراك الحقائق تحرّر إنقاذ للروح خروج من القمقم يعيش الإنسان مرة واحدة وعمره تافه محدد قصير سخيف فلا ضرورة أن يوزعه على سجون الأوهام ومثقلات العقائد الرثة عليه أن يشتري الحياة بعقل يناظره وجسد يفهمه ولا غير..

- هذه هي الحياة يا عبدو؟
- أكذوبة فهي العدم؟
- ما ذنبي أن أتزوج رجلاً رفض أن أكمل دراستي؟
- أنت وهو قارتان بحران بينهما برزخ لا يلتقيان أنت وهو الجهل المطبق والفكر المتفجر الجسد خيال مني وإحساسي مني وجهل مطبق واستسلام فقط وجمود فأنت من يريد أن يوقظه دوماً ولا يفهم ما يعني الآخر.
- هل تقصد أن الحق عليه؟ مليار بالمئة أنت متوهجة مع كيان سالب جثة توقظينها كل يوم كما كانت تفعل فريدة أنت من يوقظك يا ترى من يدرك إنسانيتك؟ من يفهم متطلباتها؟
- ما ذنب الإنسان العادي إن اقترن بإنسان يرتقي ويرتفع بفكره؟ الهروب من الحقيقة لا يعني أنك لا تريدها.
- هناك فوارق جمة الفوارق تدفع إلى تغيير سلوكنا الفوارق تعمق تناقضاتنا.
- أي سلوك يا عبدو؟
- الفوارق تشحننا بالخيانة النفسية والضمنية؟
- ما هي الخيانة النفسية؟
- عندما تأخذين دواءً مسكناً لقرحة لن تشفي منها إنما تمارسين خداع الشفاء على مرض مستعصٍ، فالعلة بالعصب التائه هو ما يفرز الحموضة الزائدة هو من يسبب

القرح، ربما أنت أيضاً إن كنت عادلة مع نفسك وتنصفينها. يا مارلا إننا نعيش أوهاماً أشباه سعادات موهومة للذات عصبية سريعة لكن كاذبة. ربما أزعجك أحياناً ببوحي لكنه ممارسة رمزية مع حقيقة ليست بالمنال فأنت حقيقة وأنا في سراب بمعنى أنك من يفهم خصائص العوز الجنسي رغم برودك وانطفاء جذوة الرغبة لديك، فأخاطب رمزاً لحضور غائب لدي أنت تفهمينني وأنا أفهمك تماماً برغم أننا مجرد سطور الكترونية لكن هذه السطور ممكن أن تحرك آلة صماء فوق أرض زحل والمريخ، لكن الدفق الحار لا يحرك بي ساكناً لأنه موت دافىء وأنت تعرفينني لا أماطل إزاء منطق الأشياء أقوله حتى لو سال دمي. لهذا يا مارلا لا تدغمي المعلومة لأنك تخجلين منها أريدك قوية كتسونامي، فالإبداع الحقيقي أن تجد لذتك لا أن تجدك اللذة وريقك مر. أحسدك أحياناً لأنك كلمات مستعارة من عالم افتراضي من المتعة وحروف تطير في عالم لذة لا تعرفها بحق أليس هذا حقيقياً أم ظلمتك؟

- كلامك اليوم نابع من ذاتك ويبدو أن ثمة تشابهاً بيني وبين ماتيلدا في تحليل شخصيتك.
- كل ما أقوله منها ذاتي بئر نفطي فأعطي ظهرك للريح واندفعي في العاصفة، حلقي فوق الجبال والرياض الخضر

فوق الأنهار والبحار، تمتعي بلذتك المحسوسة، وادفني شجنك وغمك، فهو متاع الفاشلين. أنا هنا في هذه المدينة لا أدري من أين أمسك بتلابيب حضارة مدينة تسعى بإصرار عجيب أن تتحدى جبروت التجاوز وأهوال العزلة وغياب الأمل، مدينة تصر على إرضاع عدم العالم رحيقاً من الحياة، فعاشت هي وماتت مدن الزمان.

- يرتاح الإنسان عندما يتعرى من زيف عالق به، هل تريد القول إن ألمانيا موطنك الحقيقي؟
- كل الأرض عوالمنا أينما كنا الحدود بين الأوطان ألغتها شبكات التواصل التي تعبت وأنا أتعلم كيفية التواصل مع الآخرين من خلالها.

أنت تتجلى بي كحالة قوية تشبه المنام.

- -هكذا أريـدك عارية إلا من الحقيقة وصدق لسانك وصراحة قلبك ستشعرين بلذة للحياة المذهلة وبأنك الأقوى من كل صواريخ العالم لأن الصريح قوي بتجرده بينما الكاتم مرعوب من الداخل لا شيء يستدعي الرعب بين أناس متفاهمين. موطني الحقيقي هو شيخ التبان أو بيت التبن في قرية خربة داوود التي دخلتها وغادرتها وفق قانون التطور الذي نسير فيه كالنائمين أو كالحالمين.
- لماذا يصبح الحلم كقطع البازل؟

- لأنه ضحية القلق والتوجس والريبة وعدم الشعور بالأمان. إنها الوحوش التي تفترسه، فيتحول إلى قطع فسيفساء هل تعرفين أن البازل حجر، ولكن عربياً هوناب البعير حين يشق اللثة ويخرج بازلاً.
- ماذا لو قصصت أحلامك الجنسية مثل البازل؟
- أحلامي جنونية هي ١١٦ امرأة دون فساد أو غايات رثة احتضنتني عكار شاباً وطرابلس كهلاً وألمانيا عجوزاً راقصات فنانات برنسيسات إحداهن في ألمانيا أصدرت مذكراتها، أنها تعلمت من عبدو كيف تعشقه ووجدت طريق اللذة كمستنيرة تدعى جانيت كانت كبيرة وكنت في الستين من عمري، وما اشتهيتها وإنما صاحبتها محبة، عاشرت من العذارى وجاءتني واحدة منهن تعمل في صنع الصابون لتعمل في معملي، كانت تشبه سهام في هوسها الجنسي، بعدها انتقلت إلى الميناء فهجرتها. النساء بتجربتي يحببن لشخصيتهن وليس لعضوهن فهذا ممكن تعويضه، تشدني المرأة المعتدة بعقلها، القوية الشخصية بمنطقها بصدقها، وبعفويتها هذه تكون عالماً متمماً لي.
- الجنس موجود يملأ هاتفي إن أردت، لكن لا أمارسه لأن عظمة المرأة تكمن في روعة عقلها في مجتمع غبي ونسوة ولادات طباخات غيارى مشاكسات مهذارات سطحيات

فارغات، وما أكثرهن! في حياتي منهن سهام وجورجيت التي كانت تطبخ لي ألا يكفي؟ الحب سوق عكاظ منصوباً أبداً وتبحث عنه في آلاف الوجوه عبر كل موسم. في كل وفد فيه لا تجد مطلقاً ما يبقي بحثك قائماً ويبقي عكاظ إلى الأبد. الحب هو البضاعة الوحيدة في الكون التي تباع فيزيولوجياً. وهو نزعة بورجوازية قائمة على استحواذ مشاعر الغير وتملكها لكنها تخضع لعوامل فيزيائية بين الجاذبية والعدمية والتوسع والانكماش المزاجي. الجنس قمة بل ذروة العاطفة السليمة وإلا كيف لا أخون سيدة كسحر طوال ثلاث سنوات؟

- الحب هو الوحيد الذي لا يخضع لمزاجية التملك القانوني إنما التملك العفوي الوجداني والأخلاقي فيدوم وفيه الجنس ينمو بينما الجنس وحده نشتريه وندفع ثمنه فهل يعني شيئاً؟ الفارق كبير يا مارلا بين الجنس المبيع والجنس الفيزيائي الذي تتحكم فيه العاطفة كالفرق بين الذهب الخالص والذهب الفالصو.
- التملك العرقي والوجداني والأخلاقي أجمل شيء.
- أشعر أني أتملكك وجدانياً فأنت تجدينني حاجة عزيزة تزيدها السنوات قيمة فلا تفكري في التفريط فيها قد أكون نرجسياً أو متباهياً أو سخيفاً، لكني وأنا أعرف نفسي وعالمي

لن أمر ثانية في حياتك من خلال شخص ثان، والحب أن أبحث فيك عن الإنسان هو سر فاجعتي العظمى أن أمسح كل سواحل عمرك في الخلجان وهذا يمثل غيبوبة فزعي الأكبر أو جزعي والخوف المستأسد في داخلي أو تيهي في بحر المرجان، فالحب أن لا نمضي أبداً كسحابة وهم من دخان.

- هل ينقصني الحنان برأيك؟
- لا، أزمتك وجدانية، وأنت سيدة فاضلة تشبه الوعاء بلا غطاء مع احترامي الشديد شخصيتك تكشف خلفيتك الاجتماعية البيتية. الحب هو الميل إلى الآخر لعوامل شتى أما الجمال وهو مادي صرف فينتهي بعد عدة مضاجعات إلى التراشق بالأحذية. الحب الكاريزمي وهو سحر البنت أو الولد بجملة خصائص ظاهرة للآخر، وهذا ينتهي بعد حين بالتراشق بالحجارة، وهناك الحب النسيجي وهذا ينشأ عن تعشق القيم والأهواء والخيارات والأفكار في نسيج واحد يغذي بعضه بعضاً، فحيث ينقص كل هذا يكبر وينمو الجنس. هنا ينشأ عفوياً كتحصيل حاصل. أن تزرع الورد فلن تعدم العسل يوماً فالنحل سيحوم حوله، وستتعدد فوائده مع أنك تنتظر لوناً وجمالاً وعطراً ولم تفكر في العسل ألبتة. الجنس هنا عسل الحب الثالث نتيجة تمايز القيم، لأنه

ينهض على قيم أدبية وأخلاقية مميزة بينما الحب الآخر يذوي مع أول لقاء عميق يحقق الارتواء. أنا أتكلم بالحقائق المجردة المخبرية التي لا تقبل الدحض. دعك من المثل العليا في مجتمعات تتوارث عقائدها والفضائل. هذه مخترعات بيئية وزمانية تتغير بتغير الظروف.. لا أفترض ولا أتصور بل أضع أمامك الخيارات والنتائج.

- عندما جمعت زوايا القلب لم يفصلني عن اللحظة الحاسمة سوى صورة مزقتها ومن ثم جمعتها، وأحرقتها لأنجو من تفاصيل عالقة في مخيلتي لكنها خلسة عادت وأصابتني بدهشة حياة طوقت قلبي.
- رمزية فكرية تعبيرية مكثفة لوعي ما زال حذراً هي تجربة واحدة يعيشها.
- صندوق ذاكرة الإنسان ملوث.
- ذكاؤه يكفيه للإفادة من كل ثوانيها أن لا يبعثرها في الخوف والشك والتردد في التقدم في التجربة وفهم الغامض منها.
- ما من رجل جعلني أمحو كل شيء وأنطلق.
- ليست المشكلة في الرجل إنما هي فيك، الرجل ليس شبحاً بل هو جزء متمم لك وليس كابوساً ينبغي فهمه. منذ أشهر ونحن في قمة الصراحة والبوح هل أكل أحدنا الآخر؟
- أنت مختلف، أنت الملجأ الذي أشعر به بالأمان.

- يبدو أننا لن نفهم الحياة كلنا يحتاج بعضنا إلى بعض.
- أحاول إيصالك إلى بوابات فهمها وما عليك سوى الولوج.
- سأنام تعبت من التفكير.
- تنامين حالمة متمرغة بشهوة متحرقة إليه في ظلام فراش دافئ وسرير عريض عارية فيه مشتهية لاهثة إليه من غطاؤك جسده الحار وعمق شهوة يرسلها إليك.

ما الفرق ما بين ابنة العشرين وابنة الستين؟.

- ابنة العشرين شغف وشهوة وميول غريزية للتنوع والتخلي بدوافع عمياء ولذة حيوانية عمياء وتردد منحسر وهي أقل حشمة من امرأة الستين. أما امرأة الستين فانكسار ذائب مرده الشعور بالدونية واستعداد جنسي قائم وشغف خجول وورع كاذب وتلذذ أعمق حباً وانتظاراً. أحبك مارلا مادامت قيمك شماء ما دامت رفيعة بكبرياء وأنا واثق أنها كذلك.
- هل أُمِرّ أطراف أصابعي في شعرك منقلباً وأتحسسه بخفة ونعومة ليهدأ رويداً؟
- ما هو يا عبدو هل تتشهى؟
- شعرك مارلا لم أنت تغضبين دائماً.
- هل يستطيع الإنسان الحب مرة ثانية؟
- نعم وبشدة فعوز الإنسان العاطفي والوجداني يكبر بمرور السنين وينضج ويكون نوعياً بتدرج معارفه وثقافته لذلك

فحب المراهقة غير حب النضج واختيار المراهقة يختلف بالمرة الحب مقاييس كالملابس والأحذية يجب أن يأخذ حجم الإنسان وعقله مجازياً حاجة المرأة وتنوع حاجات الرجل تأخذ صفة ثقافتهما وعقلهما في كل زمان، لذلك تتبخر العواطف الصبيانية مع رتابة الحياة. يا مارلا الحب كيمياء كالحياة تتفاعل حسب الظرف الزماني والمكاني.

- المرأة أكثرحاجة من الرجل تحتاج إلى هز كل وقت فهي الشجرة المثمرة وليس الرجل.
- ليتني كنت رجلاً. الوعي غالباً مهمة الرجل رغم أني أؤمن بالتساوي لكن هي يشغلها الأطفال.
- أبداً وعي المرأة غريزياً أعمق.
- إحساسي صفر يا عبدو.
- أنت دائماً تصفّرين زمانك حسب مزاجك أنت جلاد نفسك قلتها منذ عرفتك.
- دائماً تخوضين حروبك ضد نفسك المسالمة تعبت هل أعيد وأزيد وأنت تصدينني، موت الشهوة لديك أكثر اضطهاداً لذاتك حين أقول شيئاً تصمتين استجابتك باردة أو مكبوتة أو مستسلمة لطغيانك الشخصي. هل أقبله؟
- ما هو؟
- تاج الورد هذا العملاق الأنثوي القابع فيك يحمل كل

فضائلك كل روعة ما تفكرين فيه، فكل هذا حقيقي ونوعي وشريف أيضاً يسمو بك من دون أن تشعري لا يزينه إلا حب عظيم ورفعة وكبرياء تضعك في عين الشمس وهذا ليس إنشاءً، هذه معرفتي بك.

- تربية مشاعري يجب أن تسمو وإلا فسأكرر نفسي.
- بالضبط وحين أمارس بعض الشغف معك، فهو يدفعني من أعماقك أنت لا من رغبتي وهواجسي، ففيك مناجم رغبة وأريد أن أكون مفتاحها.
- الجميل فيك يا عبدو أنك تحترم صمتي وهذا يعني أن صداقتنا غير قائمة على شهوة.
- لذلك أخشى عليك بالضبط شهوتي لك مسؤوليتي تجاهك لا أشعر بأنك غريبة.
- يا عبدو أنا لا أتحايل بل أشعر أني ابتعدت جداً عن هذه الأمور.
- بذلك تطالبينني بالصمت.
- الحياة لم تحمل لي الحقيقة بكامل روعتها.
- الحقيقة رمزية أنت وأنا. ما يراه الآخرون هو ما نعتقده نحن لا أحد يعترف لك بالحقيقة كلها وإلا كيف نشأت نظرية أنشتاين لا مطلق نحن نرى الأشياء كل من زاويته الخاصة، الحقيقة كامنة في كل منا، الحب وحده من يرفع حاجز

الوهم بالمصارحة، بالتمازج، بالبوح ولو أن العالم أحب بعضه بعضاً لما جاء ولما كانت جنة ونار، لباتت أرضنا جنة لكن الحب مفقود والبوح زائف والعلاقات انتهازية برمتها، ربما أنا من يصدقك ويصدق ما تقولين ويبوح من جانبه بما تصمتين عنه أنت، نيابة عنه وعنك.

- ماذا أقول هذا كلام خبير حياة سأصمت.
- ما أنا خادمك آمل أن تستفيدي بعض الشيء مما أقول فلو أني جمعت كل ما أقوله لك في كتاب لغدا سفراً عنوانه نهجنا السلوكي بين العرف والمنطق لكني أشك أن تتعلمي.
- أنت شبح مؤكد تمتلك معرفة لا يمتلكها الدكتور زراقط.
- يووووووه على الدكتور زراقط متى سأتخلص منه؟

أعرف أنك مختلفة.. هاتي لي مخلوقاً لا يعاني شرقاً أو غرباً. هذا عصر ضاغط مزدحم بالتفاهة وقلة الذوق وانعدام الجمال والشفافية.

- عزلتي هي تنفسي.
- ليس هذا حلاً أنت لا تقرئين أصلاً سوى كتب أقل قيمة كي تكتبي عنها في بحثك.
- لا أدري أأنا مشكلتك أم أنت مشكلتي؟. أشعر بتشابك النسيج هل تتذكرين أسطورة بيجماليون؟ هي مسرحية خالدة لبرنارد شو. سأرسل لك حلقة يوتيوب. الأميركي

الذي صقلت به لغتي أو بناء الشخصية التي ستنتج حدثاً والحدث العابر الذي سينتج شخصية، تناغم الموضوع والفكرة ينتج حدة الذهن المتوقد.

- لا مزاج لمثل هذا.
- مزاجك تبعاً لرغبتك المستكينة من زمن عاد، أنت سيدة سكونية تحاول أن تقلد الحداثة فلا تمتلك الجرأة أعرفك جيداً كأنني ساكن فيك هل تنتابك شجاعة أحياناً لتهمسي لي مجرد همس أنك مشتهية؟ هل يمر بك شعور بحاجة إلى دفئه.
- عظيم هل تفكرين في الصلاة وعزلة رابعة العدوية ؟ أنت في جزيرة الاختيار، في بحر الحياة، أنت مجهول داخل روح محطمة. لا أدري لماذا أكتئب كلما شعرت بأن عزلتك اقتربت. أنا مجرد سطور على شاشة كهرومغناطيسية ربما تفيدك سطوري وما لا ينفع أرميه في سلة المهملات.
- هل أنت تعيس اليوم؟
- أبداً متى كنت تعيساً؟ أنا واقعي براغماتي أتعامل مع الحقائق التطبيقية لا الأوهام لماذا القلق والتعاسة إنها أيام عابرة معدودة نعيشها. يا مارلا أنت تعانين شيخوخة الكبرياء المبكرة، تنتابك حمّى الماسوشية التي وصفتها هيلين ديتش تلميذة فرويد بأن المرأة تميل إلى اضطهاد الآخر بعقدة الجسد الذكوري حين تشعر بأي ميل نحوها.

- ليست عندي هذه العقدة.
- أنت لا تكلميني شوقاً إنما للتسلية وللخروج من وحدتك لكنك ممعنة في اضطهادي، تهربين مني إلى ذاتيتك تهربين من أي وخز لوجدانك.
- عندما تلغز كلامك أهرب نعم.
- تهربين من كلام ليس مخجلاً، يقول فرويد إن الشذوذ والانحراف الجنسي وحتى زنى المحارم أمر طبيعي. لأن الإنسان كائن مجنون وما زالت نظريته سائدة منذ مئة عام إلى الآن خارج معايير الأعراف والقيم الأخلاقية الوضعية، أنت لست ربع علمانية فكيف ترين الحياة وهي بوتقة من العلوم البحتة، هل بالكلام الحلو أجزم بأن لا أحد له لغتي وثقافتي لكن ما نفع ذلك إن لم يصب في خدمة المنطق، أشعر بأني مقهور ومضطهد وهذا لا يليق بمن أود. خذي من الدين ما يلائم عقلك لا ما يلائم الدين والمعنى هنا ليس القرآن إنما الموروث. سأعطيك مثلاً شخصاً من عهد شمعون أراد أن يكتب التاريخ من مختلف مصادره وفيها ما يدين بعض من يتولون المراكز المهمة هل سيكون تاريخاً نزيهاً؟ الجواب أنه من المستحيل أن نكتب تاريخاً يدين الأنظمة. اقرئي يا بنت الجو منافق ملفق جاهل أخرق، لا يليق بك الضياع.

- هل دخلت مرحلة اليأس يا مارلا ؟ ضمور المرأة جنسياً نهايتها غدة الثايارويد التي تفجر طاقاتها منها، خففي من احتقارك لنفسك، أنت عدوة لها تبتكرين أصفاداً شتى لتقييدها وتسويف حاجاتها هل أحتضنك لأدفئك؟ أنا عالمك الداخلي وصوتك الذي لا تسمعينه هل أحتضنك برفق لأضم جسدك إلى جسدي؟
- لا تعليق وأنت تعلم أني لا أحب هذا الكلام. حين يعجز المحيط عن فهمنا يلجأ كلانا إلى الآخر.
- ظروف الإنسان تبدلت خياراتها وانتقاءاتها فلو أن فيلماً عن الميك آب لتسارعت النسوة إليه أما عن الصحة العامة فقلما يكترثن له. الإنسان تفرغ بات كجردل، الكآبة مرض العصر. الإنسان اجتماعي بطبعه. ولكن حقنوه بمخترعاتهم، كان يخرج إلى الشارع فيلتقي الناس، أما الآن فهذا عصر الهاتف حيث تصل الحوائج إلى المنازل عند الطلب. لقد فقد مجاله الحيوي، عشريته جفت، شكه زاد، خوفه من الآخر بات عقداً وكوابيس لفقدان الوئام القديم والبراءة والطيبة والعاطفة السمحة، هذا العصر ينتج حميراً مفجوعة جنسياً أنا الجنس لدي هو الإحساس بالآخر التكالب على النساء شعور بالنقص. أنا أحبك لأن مارلا التي فيك مجنونة جنونك يفرز لهفتك على عبدو الولد الذي عاش ألف حياة.

- بل لأنك تحترم رغبتي في الامتناع.
- ليست رغبتي فيك جنسية بل هي تعلق بخصالك، لا يفهمك غير معتوه مثلك، نحن جنتان متباعدتان تضجان بغرباء العرض وأقرباء الطلب لكن ذلك ممتع يعجبني امتناعك وعنادك وصلافتك أحياناً، يعجبني هوسك بمعرفة الأشياء وتعلقك بمثل طاقية كجليد القطب ستعيشين طويلاً لا لأنك تحبين الحياة إنما لأنك تولينها ظهرك ستعيشين طويلاً. يا مارلا الإنسان حريص على ما منع والحياة حريصة على من يتجاهلها.
- يبدو أنها فلسفة واعظية.

ليست فلسفة أنت من المعتزلة في العصر العباسي، لديك الكثير غير المنظم، ورغباتك قليلة لكنها محكومة بغلطة أنت متعسفة حيال نفسك لأنك في طور من يكتشف كل يوم قارة، أنت معي تكتشفين الكثير ربما لأني مغامر مثلك فآخذك معي إلى أعالي البحار بسفينة من خشب وصارية شراع وزيوت حوت وحبال وموج صاخب عنود تقاومين البحر كي تذليه والغريب أنت تنتصرين. في وقت يخيل إليك أنك قد خسرت. أنت استوعبت الكثير وتواصلت معي سنوات أنت تمسكت بي لأني ما تشتهيه روحك لا جسدك، سأصاب بالاكتئاب وسوء المزاج افهمي كل شيء ولا تكوني زراقط فقط أو عبدو فقط.

- سأذهب لحضور أوبرا وباليه على مسرح ليس بلنشوي،

بل هو مسرح استعادي ولكن الدكتور سعيد الولي يشرح بجمال بعد العرض على مسرح مركز الصفدي الثقافي في طرابلس.

- اشتقت إلى عكاروغاباتها وقراها وإلى طرابلس وأماكنها وزواريبها وشوارعها لكنها من المؤكد أنها تغيرت، أصبحت أكثر طفولة مني شاخ عبدو وما شاخت طرابلس. جيد الخروج بين وقت وآخر بل ممتاز، الأوبرا فن أرستقراطي نشأ أولاً في فيينا وروسيا في قصور القياصرة طبعاً، الأوبرا فن الصفوة وليس فناً شعبياً ما اسم الأوبرا التي ستعرض؟
- تاييس.
- لمن.
- هي عن رواية أناتول فرانس.
- أعرف الكاتب المؤلف الموسيقي من رافائيل باخ فاغنر ستحضرينه، تاييس فيلم سينمائي عرض عام ١٨٨٤ وأناتول من كبار أدباء فرنسا وتابيس يمثل بهاء القرن التاسع عشر ورومنسيته تتجلى على مسرح الصفدي ومارلا تحضرها وتستمتع بهارموني الإيقاع الأوبرالي، في تاييس جلاء الروح المكابر التي تتجسد في هذه الرواية، كيف لعصر تلاشت ملامح التطريب الموسيقي فيه أن يعيد الحياة إلى مباهج أوبرا باذخة نشأت في زمن رومنسي آفل؟ كيف

يمكن أن تروض الذات للتناغم من زمن كانت الموسيقى شجنه ووسائل تعبيره بين عالمين متناقضين أحيت أوبرا تاييس زمان العاطفة التي أججها أناتول فرانس ذات يوم.

- لو يستطيعون تحويل قصة يوسف إلى أوبرا لكانت مدهشة.
- كل أساطير العالم القديم صارت أدمغة تصنع أمزجة وتسمع هذا ما ينقصنا.
- ينقصنا الكثير يا عبدو.
- لأنه وحده من يقيم للحياة أهراماتها هو الحب بكل مزاجه ومزيجه ليس العذري الباهت كالجنون طبعاً، أوبرا عايدة مثلاً عن فراعنة مصر. أريد أمومة يا مارلا أريد حوافز وبعض الرحمة كلنا تراب لا شيء ثميناً لدينا إلا مشاعرنا فلم يصير ترابنا تبراً خففي الوطء على عبدك عبدو.
- سأذهب وأكمل كتابك الذي سيصبح كتابي لأني فاشلة لن أنجح أعرف ذلك.
- المبدع لا يقول هذا وأنا أكره المستحيل وأصاب بالغم حين يشكو أحدهم صعوبة الأشياء كل المتاح الإنساني. كلنا مشاريع للتعلم وأنت مشروع إنساني كبير أعمل عليه؟ فأحسن ما فيك أنك مستمعة جيدة ومتعلمة نابهة رغم جنونك وعنجهيتك الفارغة ستكونين الأفضل بين نساء الدنيا حتى لو بلغت التسعين كما بلغها عبدو ففيك جذر ممتد إلى خصب الأشياء.

- لن أصل إلى عمرك أبداً.
- ستصلين لأني أريد ذلك ولأني أعرف الأشياء تخاطرًا، ستصلين وبعدها ستعيشين أبداً ستعاينين عالماً يتذكرك دون تماس به، ستشعرين بالسعادة وأنت شفافة فوقهم وهم سعداء بك.
- يهمني أن أصبح مخرجة وأحول قصتك إلى فيلم من إخراجي. يبدو أني سأترك موضوع الدكتوراه حالياً.
- ستصلين حين تؤمنين بذلك، ماذا ستفعلين ليلاً؟
- سأحضر فيلماً قصيراً أرسله لي الدكتور زراقط وملخصه أن البطلة تحب العيش في كوخ مع رجل ما ولكن رجلاً آخر سيزورها من الماضي ويتقاتلون وجهاً لوجه فتقتل هي الاثنين معاً.
- هذا ما كان يجب أن أفعله مع فريدة وخديجة اللتين تقاسمتا القرد الأصلع،المهم استمتاعك بالفيلم والاستفادة منه أنا أعرف أسلوبهم قلة حوار ورمزية حادة صورياً لأني أفهم الأشياء من حروفها الأولى بحكم التجربة الطويلة، استمتعي لأني سأصاب براسايكولوجياً حين تصابين بالتعاسة، حين أموت أريدك قوية شابة حية ترزقين. لا أكاد أتحمل فقدان مجنونة معرفة تعشق أن تصبح مخرجة مثلك، أنا أعرفك وأحترم عقلك وأحترم خياراتك وحريتك وشخصك لا ألوم، لا أعاتب، لا أحاسب لأنه ليس لي حق

قانوني أو شرعي أو أدبي في ذلك، فما تفعلينه هو محض حريتك أحاسب أو أعاتب فقط من هي زوجتي أو حبيبتي وبرفق أيضاً أنا كائن حضاري.

- لا يا بنت ما زلت بعيني طفلة لم تكبري عن أمس إلا إصبعاً بالنسبة إلي أنت صبية حتى لو بلغت التسعين، فالحب كلما شاخ بات أقوى وغير ممل. الشباب يمل الحب بعد إشباع الشهوات أما الكبار فلا يزدادون شباباً بل يزدادون حيوية.
- هنا في ألمانيا يحبون الكلاب التي لها مقابر وفوق القبور تماثيل أجمل من قبورنا، سألت ماتيلدا عن ذلك فقالت إنه أوفى من البشر وأخلص لك في الدهر، إنه مستجيب صامت معك، يستشعرك وهو كلب لذلك يكفي أن تجدي من تحبك لتكوني أسعد الناس. فرنسوا مورياك أحد فلاسفة فرنسا قال مرة كنت في الحديقة أتمشى عندما حط عصفور على كتفي فشعرت بامتياز لم أشعر به في حياتي كلها، لقد منحني ذلك العصفور ثقة عالمي المظلم وأشعر أني جدير بالمحبة، وأني مصدر لأمان كائنات أخرى فلا تيأسي يكفيك أني أحبك ولا أبغي منك شيئاً مطلقاً لأن غاندي وجيفارا وهبا قلبيها وحياتهما لغيرهما لا تتوقعي جزاء من غيرك فهو قد لا يكون قدوة لك لكن كوني أنت القدوة، هذا ما تعلمته أنا من تجربة الحياة، وهذا ما سيجعلني خالداً

فيك ودليل نجاحي في الحياة أنت فقد كسبتك بصدقي، ولا أظنك ستفرطين فيّ يوماً وهذا ما أفعله بالآخر أهبه لنفسي فأصبح أغنى وأكبر لا أن أفقد شيئاً. يقول علي بن أبي طالب لا فقر كالجهل ولا ميراث كالأدب. تعلمت لهذا في ألمانيا أن الجهل فقر قاتل أنت كبيرة متسامية أحبك لعفتك وكبريائك لا لخرابيطك ولطلاسمك،أنت كالطين الصناعي شغوف لكنك خائفة خيارك صحيح ولكن هدفك خطأ ماذا بوسعي أن أفعل؟ التفرج على النهايات التي لا سواحل لها.

- يا مارلا أنا رجل يجلس على التل يحب حباً تجريدياً يحرّره من الغيرة والتمني والمغالبة ويجعله صامتاً كمن يجلس في مأتم عزاء لذكرياته، أحياناً لا أفهمك، وأحياناً لا أصدقك وأشعر أن كوامنك حبلى بأسرار كثيرة أترك لنفسي استنتاجها وأنا لا أخطىء بالمرة في هذا المجال، أضع الكثير من النقاط على الحروف داخل نفسي وأحترم خياراتك حتى لو قلت ضاجعت مئة رجل لقلت ببرود إنها حياتك يا بنت، أشعر أني زوجك منذ ثلاثين عاماً.
- سأقرأ عن الثورة الفرنسية الليلة.
- الثورة الفرنسية لن تفهميها إن لم تقرئي عن روبسبير فيلسوفها وفولتير ممهدها وجان جاك روسو مبشرها وفيلسوفها.

- روبسبير؟
- نعم يسمى بسفّاح الثورة أعدم بالمقصلة ١٧ ألف شخص.
- سأذهب إلى مكتبة الأب سروج غداً وأبحث عن كتب الثورة الفرنسية.
- دعاني الدكتور زراقط إلى فنجان قهوة في بيته ولا أعرف أأرفض أم أقبل؟
- لا طبعاً سيجدها فرصة لابتزازك جنسياً عبر كلام مزوق وأنت حذرة بالضبط هذا ما سيحدث ستنغصين على نفسك رحلتك ابقي قوية لأنه حينئذ ربما التصق بك وسيجلب لك الكلام وستغدين متهمة في نظر بعضهم شئت أو رفضت دون أن يوحوا إليك وسيلازمك وستجدين نفسك مجبرة على عدم الخلاص منه حياءً وبذلك ستجلبين لشخصك نظرة غير مستحبة وأنت حرة.
- لقد أرعبتني.
- طبعاً هو يريدها فرصة فلا تمنحيه إياها دعيني أحبك أكثر ودعك صادقة مع نفسك. هذا أجمل ما فيك فسؤالك يشعرني بوفائك لنفسك، مارلا أنت امـرأة فاضلة في مجتمعك الشرقي الذي تسوده العاهات النفسية أنت أيقونة للجمال الروحي والرهبنة في الفضائل. لكم تعرفين ذئاباً في ثياب حملان كلهم حتى أشرف من تعتقدين وتلتقين.

- هممممممممم.
- لست ممن تحتاج إلى الدروس.اسمعي يا بنت قبل أن أنسى الثورة على ماري أنطوانيت ولويس السادس عشر لمفاسد الزوجة وخياناتها وثرائها وجوع الشعب الذي أخبروها أنه لا يجد خبزاً ليأكله فقالت: ليأكل غاتوه! حاصر هذا الشعب سجن الباستيل وأطلق سجناءه واعتبرت الثورة الفرنسية أهم ثورات العالم وكانت شعارات الحرية والمساواة حكيت لك عن الثورة الفرنسية ملخصاً شافياً وافياً وموليير هو من كتاب مسرحها، هل أصنع لك نيسكافيه بالحليب أو شاياً بالليمون، ولا تنسي أنني ذو خبرة أيضاً بشوربة العدس بالشعيرية مع الليمون والفلفل الأسود. حقاً أنصحك أن تقرئي أعظم كتاب غربي لكاتب لبناني عظيم كان يكتب أغاني أم كلثوم إن قرأت كتبه صرت عبقرية، إنه المسيحي جورج جرداق الذي ألف عدة كتب عن الثورة الفرنسية، علي وحقوق الإنسان، علي وعصره، علي صوت العدالة الإنسانية، علي وسقراط اقرئي هذه الخماسية لجورج جرداق تكوني أعظم مخرجة عربية نصيحتي لك.
- أنا صرت بثقافتي البسيطة مبدئياً من هذا السفر الخالد وهو أهم كتاب قطعاً سيغير نظرتك إلى الفكروالحياة وقد اعتمدت الأمم المتحدة أحد نصوصه منهجاً لها. لن تكون

النفس عظيمة إن لم تقرأ العظماء. ففي الكتاب يتناول كل العصور بشمولية نقدية مقارنة لست رجل دين ولا واعظاً إنما العقل وحده يسدد رؤاك إلى الحقيقة، كلما كنت عقلانية كنت أكثر تنويراً وأكثر حرية وأكثر ثقافة وأسرع وصولاً من غيرك إلى الحقائق لذلك تجدينني مباشراً صادقاً بلا تورية ولا خداع ولا كلام مبطن ولا ادعاء، أنت حبيبة قلبي كيف لا أعلمك وأنت أغلى كنوزي.

- لست أنا من أصبت بتناقض قاتل ولا أنا المصابة بحب غيرفاعل، ولا من جاءت بعواصف شتاء لا ربيع بعده، لا العمر خادم الزمن، ولا الروح تنتظر الجسد الذي يشيخ، ولا العوانس يضحكن في زهو، فالحزن القارس هنا، وطوفان الفرح هناك، وتلابيب الوجد في لحظة ما وأدتها لكنها تفر مدفوعة بالحنين إليه.. هذه العقلانية خاصتي.
- تحتاجين إلى شجاعة المغالب كي تنتصري لنفسك المهانة وجسدك الشهيد. إن ذلك الذي أنت فيه نوع بارد من الماسوشية تعذيب الذات جراء فكر قاصر ابتلع طموح القلب وشهوة الجسد فيجب أن يأخذ القلب حقه في الحياة، ويجب أن يأخذ الجسد حقه أيضاً الحزن الذي أنت فيه انتقام غير مبرر من وجودك، فالحب كالشجرة يبلغ عمرها عشرين ألف عام لكنها لا تستغني عن الماء وسماد الأرض،

الحب هو الحياة في كل مراحل العمر يجب أن تعيشيه كي يمتد بك الزمن ويتبخر الحزن والحب شهوة للحياة وأحاسيس الجسد إن ماتت في الجسد شل الجسد وذوت الروح فحين أقبل شفتي امرأة وأعانقها وأضمّها عارية إلى جسدي تحت غطاء دافئ أوقظ مراجل النشوة والعنفوان في جسدها،وحين تمر شفتاي فوق خديها أحرك دبيب الحياة في داخلها وحين تنزل يدي إلى أصابع قدميها يغلي الشباب في شيخوختي ويستيقظ الأمل والحب ويستجيب الجسد أليس هذا ما يبقي ماتيلدي مهتمة بي وتدللني وتجعلني في شباب طفلها؟

- ألا يمكن أن تكون الروح في مكان والجسد في مكان آخر؟
- لا الروح موطنها الجسد، الروح طاقة لا نعرفها إلا من خلال محرك هو الجسد حين نريحه ونمتعه ونجدّد خلاياه، فلا تهربي من نفسك، أو من روحك الهرب كراهية لحق الروح واحتقار لحق الجسد وتخل عن الثوابت، أحبها مثلاً راضية لا مستسلمة ومحبة للحياة في وجودي، تضيع في متاهة حبي وأعيش في وجود رغبتها فضائل رائعة تقول خذني بين ذراعيك واغمرني بحنانك لملم جسدي وخذ ما يوقظ رغبتي.
- هذا هو الحب الفاعل.

- أكيد لأنك لن تسمعي مثل ما أقول ما حييت فهو حل طلاسمك ومفتاح رغبتك.
- كيف يمسك الرجل العاشق بامرأة تفر منه؟
- بالحب حتى تثمل، وبالإسعاد حتى تذبل، وبالمضاجعة والمعاشرة حتى تحتل كيانه ويحتل كيانها كي تنشط في حياته وتبقى في نفسه خالدة، فامنح روحك لمن يحبك هو إسعاد ذمتك وتحرير جسدك من غطرسة الخوف والوجل والتردد، احترام الجسد أن تجعله مسجداً وتكون فيه مؤمناً فهو الحب وما أقوله لا يقوله شهواني، بالحب تبقى الأنفس مطمئنة شرط احترام كينونتها الإنسانية تعلمت من فريدة احترام رغباتها وحبها للأصلع، وتعلمت من الأصلع رغباته وحبه لخديجة وبين فريدة وخديجة كانت الحجية تمرح على جسده المستسلم دون روح معها. أنت مطمئنة كالطفل في حضن أمه ما اكتشفت الحياة مطلقاً، فأنا دنياك اكتشفيها من خلالي لأني لا أشبه أحداً بالنسبة إليك، الحب تقديس الجسد كضريح تقبله والرجال عادة يعتبرون جسد المرأة جسراً ويقولونها في شرعهم جسراً إلى لذتهم لا جسراً إلى روحها ووجدانها فهم الحقراء وفيهن الضعف والبلاء هل تودين ضمك كطفل برد آخر الليل فانضوى تحت جناحي أمه؟

- أتعجب من كلامك إنه حقيقي يلامس الواقع.
- لأنه سهل ممتنع.
- أنا قروي العاطفة فطري كسذاجة الأنبياء يشعر كلانا بعدم الخجل من الآخر، فقد تداخلت تفاصيلنا سحر الفاتنة رغم جمالها لم تشعر بأحاسيس الرجولة فيها، فالإحساس شيء والفكرة شيء آخر جهاد لم يحس بها وفطرته معدومة وهي لم تستشعر الحب معه فإذا استمتع جسدها تبلد إحساسها فجزؤها السفلي مستمتع أما العلوي فمعذب، فالإنسان كائن اجتماعي يتأثر ببيئته.
- هو البخل العاطفي عند الأصلع إذاً؟
- البخل إسفنجة تمتص حيوية الحب وإنسانية الإنسان وهو لم يعطِ حتى فريدة حقها فيه كرجل أوى إليها فهو مديون بالوجود إليهن ومع ذلك أهان عواطفهن نحوه. واعلمي شيئاً مهماً وهو أن عملية تفجير حيويتك هي تغيير نمط إدارتك للحياة بأكملها، أنا معك منفتح جداً يا مارلا، أسراري ما بحت بها قط في حياتي وما خرجت لإحداهن أنت سيدة في الطريق عليها أن تكون مميزة ويجب أن تكون عزيزة الجانب كلما عز جانبك ارتفعت مهابتك وهذا ليس تكبراً بل احتراماً للذات فالكهوف دواخلنا ولسنا في داخلها، مشكلتنا أننا استأنسنا بالظلام والسكون والاستسلام.

رفاهيتنا في التشارك في بعض الهم للتخفيف من ثقله، لكني أحار في فهمك أحياناً وأنا الذي فهمت العالم.

- لا يعقل هذا أبداً.
- -أنا أفهمك وأشعر بالأسى لأني أعرف ما بداخلك، أنا في مغارة اسمها مارلا لست على سواحل الفيروز ولا في جزر المرجان ولا في حلم الورد، أعرف من أنت ومن أنا وأين أنا منك فحسبي الله سأكلمك لاحقاً سيدتي أنا في محادثة مع ماتيلدا سيلتهب الفايبرسلام يا قاتلتي.
- لا، لا ابق قليلاً.
- أنا كتاب مفتوح وأنت طلاسم هل أستطيع فهمك حتى تفهميني؟ كنت رباناً لسفينة ضيعت حيزومها وشراعاً لوهم شربته الريح.
- ما معنى حيزومها؟
- مقدمتها يا فالحة أنا تيتانيك انفصم بوزها فانبعج ظهرها واستلقت على القاع لا غيبيات ولا أمنيات ولا شهوات ولا بوح وسأقبلك.
- - سأهرب منك لأقرأ من اختيارك فماذا أقرأ يا قبطان التيتانيك؟
- اقرئي كتاب مائة عام من العزلة، افتحي الانترنت تجديه كنت أجلس في مكتبة بيت عجائزي حتى أتيبس لأقرأ. الكتاب رغم عنوانه المثير هو يتحدث عن جنوب كولومبيا.

ربما دائرة أحداثه أسرية أو الحب في زمن الكوليرا يتحدث عن زير نساء هل أنت منزعجة مني؟

- أفكر في قصة فيلم تيتانيك وما هو الجنس؟
- الجنس حالة إجرائية بحتة كحق إنساني غريزي حقيقي وجزء من حياتنا الأصيلة هو نسغ الإحساس افتحي جدايل شعرك وافركي روحك للعشق.
- ما هذا من لها جدايل اليوم؟
- يا مارلا افهمي مجازية الكلام فريدة في غابر الأيام قالت لي قص جدايلي البيك ولم أفهم أنه فتحها للحياة وجعلها ترى الحقائق. هبي روحك لعاشقها ودعيها تعانق ما تريد ولا تكثري من الرموز التعبيرية عندما يخونك اللسان أوصلي إحساسك بها، شجعي جسدك ليمارس عنفوانه وروحك على الطيران في ملكوت الشغف والبوح والشهوة وتفاصيل التلذذ.
- لا أفكر في التلذذ يا عبدو.
- فكري في أمهات الكتب العالمية إذاً لتتفوقي على زراقط لأني أريدك رصينة الكلمة كي يقرأك العالم بأسره، أنا قرأت تجاربي مع الحقيقة لغاندي مرتين ١٠٤٥ صفحة، أنا قارىء ٥ آلاف كتاب في حياتي لا يمر يوم دون أن أقرأ.
- وهل يقرأ من يقف على أرض الفقر المتصحرة؟

- هل فقدنا هواجس رغبتنا وانتفت حيوية وجودنا؟ هل بارحنا إنسانيتنا وجفت منابعنا؟
- أنا من درسه وكتب عنه بلغته وعاش تجربته وعرف أفلامه هل بت غريباً عنك؟ هل لا تشعرين بحضوري لديك؟ كيف إذاً وأنت قلبي نفسه أتنفسك وأهجسك وأحتويك بشغفي وأغرقك في دفئي وأعيش معك تفاصيل رغبتك الكامنة وشهوة محبتي كيف وأنا من يحيط بهالة الجسد الخجول والعاشق لإنسانيته الفريد هتشكوك كاتبة كل أفلامه سيدة اقرئي تاريخه واسعي لتأليف دراسة عنه قبل أن تتعلمي الإخراج..
- هل أنت موسوعة علمية معرفية شاملة لا أتحدث عن شيء إلا تعرفه؟
- كل شيء عند عبدو سوى حبك المفقود إن كان يزعجك عبدو لك الصبر على ذلك.
- أنا حضارة عكارية منسية وسهول شمالية تائهة بين الضباب والصدق والوفاء في مأوى للعجزة مع ماتيلدي أنا الشجاعة إزاء التردد واليقين إزاء الكذب والممارسة إزاء التسويف والإنسانية إزاء الهمجية.
- كبرياء عربي؟
- التواضع جزء من شخصية الغربي وحضارته مبنية على

المصارحة والشجاعة، عشت هناك ٤٠ سنة وعرفت الغربيين بدقة، الإنسان لا يخشى الآخر عند البوح بالحقيقة، والمرأة لاتعرف التزمت الذي لديك.

- إنه موروثنا عبدو أم نسيت عكار وطرابلس والقرى المجاورة؟
- لا أدري كيف يستطيع متزمت أن يخاطب العالم ابقي في قنينة موروثك.
- إلى أن تنفلت قيوده.
- أردت أن أساعدك لكنك تارة تصديني وتارة تخادعينني هل أنا في سباق سلاحف؟ لم تخجل فريدة يوماً من حبها للأصلع ولم تخجل سهام يوماً من عشقها للجنس واستطاعت إشباع نفسها تعلمين كم أنا صادق معك يا بنت.
- لا تعنيني الدنيا انتظرت أن أحقق الحب ففشلت.
- لأنك حالة متبلدة أحاول جذبك إليها لتفترسيها أحاول تحقيق إنسانيتك من خلال فحولتك الأنثوية، فهناك عبقريتك تكمن وهناك منطلق شجاعتك لست شبحاً وأنا أعانق طيف الحقيقة افتراضاً. أعلم أن داخلك امرأة أحاول تحطيم قيودها وأنوثة أروم إشعال حرائقها وشباب أسعى لاستنهاضه وجسد أدخل مفاصله أمرغه بشهوة جسد يعشقه ويذوب فيه، ألثم بالشفاه الحرى كل مليمتر فيه

أهمس له أحبك وأتلقف هذا الجسد المتمرد كثور إسباني بعظيم محبتي أنا متجسد بك يا بنت ولكن باتجاه عكسي يصارع الريح فأجذب حبله وأمسك دفته وأحاول إرجاعه إلى مرابع اليقين والقبول، إن فشلت أنا فهي بعض مشاكلك وإن فزت فهي ربح للقارىء ولنفسك وللتاريخ هل نتزوج الليلة يا عذراء اللورين؟

- أتمازحني عبدو؟
- طبعاً أمازحك ألعب دوري لاستنهاض مشاعرك ألم نقل إنني أنا عالمك الداخلي. أنت جزيرة من لذة لا يؤمها إلا المؤمنون جزيرة تأخذ قوتها من حبي وشغفها من لذتي وشهوتها من رغبتي وعنفوانها من نشوتي فتكون لذة اللذات إن لامستها. لا تهربي يا جبانة.
- تذوقت الوجود في ضوء الحقيقة في عتمة بزغ فيها يقيني، إن الحب في ذاتي لفرد صمد أماط لثام نفسي راودتني خلجاتها العاشقة وأبعدتني عن الذوبان والتلاشي.
- العمر يا مارلا وجمال متعة الأشياء فأنا لا أتخيل ذاتي دون مودتها نفسها فالشجن هو الإحساس الجارح عاطفياً أو معايشة ذلك أحياناً تثيرين شجني حين أعانقه فلا أهجس لك صوتاً هامساً زدني بالله عليك. حين تصمتين وهو يدلف بين كفيك فاتحاً كأمراء المجد حين يروي ربوعك

فلا تهمسي. ما ألذه حين يمتلئ شهوة فيموج في حضني وتلهثين بصمت محطم.

- من هذا الذي تتكلم عنه لم أفهم؟
- يا بنت ابقي امرأة سوية معي ولو مرة واحدة. هل سآكلك؟ ما هذا التمنع والصد والغموض! لص أنا؟ كفى إمعاناً في التورية والتمويه، كيف يربي القاص والأديب الشعوب وهو يخجل من مخاطبتها، كيف يحتل موقعاً في ضمير قارئه وهو يرتعش من مصارحته، هل الهلاميات والمفردات التائهة أدب؟ مؤكد لا، هي رصاص طائش هل بت خنزيراً من وراء القرن الهجري يقف ببابك؟ يا مارلا إن قدرت فارحم.
- تدهشني عبدو ولا أصدق أنك ابن قرية تعلمت فيها على يد شيخ القراء.
- من محبتك ووحيك من روحك أتكلم، من عمق وجدانك، أنا أترجم أحاسيسك الخفية أنا القرين أنا طبيبك أنت عذراء قلبي سذاجتك وطيب معدنك لكن ثمة خجلاً شفيفاً سيتوارى يوماً. قيمة المرء أن يكون عزيزاً داخل نفسه ليرى كم هو عزيز خارجها لو لم أك عزيز النفس لفرطت فيّ كذلك لو لم تشبهيني لما تعلقت بك، ربما لا تحبينني ليست مشكلة لكن نوعك هو من يلائمني أنت أصيلة

كشجرة زان لا تنبت في المستنقعات بل في وديان الجبال الشاهقة. لا أدري هل أنا معك مظلوم أو ظالم كيف أنا في نظرك كيف تقومينني بعد سنوات ثلاث هل نزق مطلبياً متعسف شهوانياً مغرور فظ عصبي متمرد جاحد طامع لا أدري من أنا بنظرك؟

- أعرف أنك موجود في حياتي، ولم أفكر في غير ذلك يوماً.
- أزعجك حيناً أمون عليك أجدك كل الأشياء التي أتمنى برغم أن يقيني زائف فهو يقول إنها تتفهمك أنت في مأوى للعجائز تعدك نزقاً كنزق الرجال لكن لك جوانب مستحبة؟
- هل تحدد إن كنت رابحاً أو خاسراً؟
- أنا خاسر يوهم نفسه أنه مليونير مدرك تماماً أني لست في خلدك لكنني راضٍ بتسامحك أشعر معك بالخسارة تماماً لأنني لا أنال منك حقاً ولا باطلاً فأنت صامتة وأنا المتكلم أنا أشبه بثور في حلبة من وهم يخيل إليه أنه في رياض غناء فأنت حيالي مقفلة تماماً.
- على العكس تماماً أشعر أنك تعرفني أكثر من نفسي.
- لذلك أقدم بعض الشروحات عنك إزائي، أن أعرفك لا يعني أنني راضٍ عما لدي من إحساس بغموض موقفك تجاهي. فأنا قطعة من سفينة غارقة تعوم في بحرك أعرفك لذلك أنا حزين، لو لم أعرفك لتركت الأمور حتى خواتيمها أياً

تكن.. ولتصرفت بلامبالاة وعدم تركيز في الصلة والفروع لما وصلت إلى العمق الذي أنا فيه. أنت تغفلين عن جانب الحياة بالوقوف ضد مشروعيتك الوجودية فيها التي يجب أن تأخذيها من دون إملاء للشروط، فالحياة ميدان تجربتك غير المشروط تتصرفين بواقعية.

- السكون المطبق.
- أنا أكثر منك تبسطاً وتفهماً للواقع الذي أحمّله مصابي.
- ما هو السكون المطبق عبدو؟
- لا أدري إنه بعض غموضك.
- بعض الغموض سكون مطبق؟
- السكون المطبق رغبة صامتة واستسلام للشغف دون نقاش بعيون مغمضة وجسد مستسلم بروية وحب وشوق وحرارة وتوق شديد، السكون المطبق هو الذوبان الكلي بين ذراعي الهمس الصاخب، تأجج البراكين موقدة العالم لذة توقظ مليون سنة من السبات، تفجير الينابيع ليرتوي العالم أما زال فيك شيء لم أفهمه؟ أنوثتك حقل لذة تحت ركام تاريخي هو أكبر من احتياطي العراق والسعودية..
- هههههه يبدو أني أغضبتك.
- هوذا الإنسان الذي ليس بوجهين، هذا الذي يتعامل بصراحة يتحمّل نتائجها.

- هل خانك الزمن وما هو إحساسك به.
- ما يذهب به الزمن يأت بأفضل منه ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين.
- لو منحك الله عمراً آخر جديداً فماذا تفعل؟
- أبحث عن شخص يشبه عبدو مرن حضاري متسامح سلس مثقف جنسي عاطفي سخي ومغرور.
- والقدر المكتوب أليس خائناً؟
- القدر حالة استثنائية. مثل حادث صعقة كهرباء أو سيارة نحن نعيش مع القاعدة لا استثناء، اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً لو لم نعمل وفق هذا واتبعنا احتمالات القدر لما بنينا جداراً ولا زرعنا حقلاً ولا أنجبنا أبناءً.
- وما تزوجنا امرأة هههه.
- بالضبط حتى لو كانت حصتك من الحياة عاماً واحداً عيشيه وكأنه مليون عام تمتعي باللحظة الراهنة فالعمر هو لحظاتك الجميلة لا أحزانك، لا شكوكك، لا مخاوفك، لا تشاؤمك اللحظات الجميلة على ندرتها هي ما يحببك بالحياة وليس الأحزان تذكري يا مارلا أنك لم ترتاحي من عمرك سوى لحظات خاطفة لكن لأجلها تحبين الحياة.
- دهشتي من الزمن تشعرني بأن بعض الذين عرفتهم ما مر عليهم.

- لأنك تخيلتهم يوماً قوارب نجاة فبدوا صخرة وأنت قارب نجاتها. تطور عقلك فتوقفوا، تقدمت وعياً وتراجعوا مزيتك أن خلايا نموك حضارية، فبدا بينكم الفاصل كبيراً جداً أنت إنسان خلقت لتنمو يا مارلا باستمرار وهذا ما آخذك إليه. بينما هم في شيخوخة فكر وبدن لا تنقطع هل أبالغ إن قلت إني أحرك زورقك إلى أعالي البحار وأخرجه من السواقي التي تنتهي بسد؟
- لكن بهذا تقتل الزمن وتفر إلى غيره.
- الزمن حالة فيزيائية لا وجود لها إلا في أذهاننا، السومريون هم من وضع تقويم السنة واليوم والساعة وتقسيم الفصول والزمن.
- هذا يعني أن الذي يتطور فكرياً يبقى في غربة.
- أكيد يرتقي بك والآخرون في تحجرهم راسخون.
- محزن هذا.
- أنت غير مسؤولة عن عربة موتي كي تجريها.
- أن تشعر أن البحر يفصل بينك وبينهم.
- حياتك قاربك فاركبيه، قانون التطور قانون الانتخاب الطبيعي ما يصلح يمض وما هو متعطل للصدأ بباقٍ لذلك انزعي خجلك معي فالمرآة نفسك فلا تخجل امرأة من مرآتها يا مارلا، تفاصيلك هي تفاصيلي شؤونك هي شؤوني

هواجسك هي ما يعنيني، ليس من قلب لك غيري تتدفئين به ولا عقل تحتكمين إليه ولا شريك لخصائصك ولا سمير لياليك ولا شبيه لما تشبهين ولا بديل كي تستبدلي ولا حقيقي كي تثقي أنا لك روح قوية تدفعك وباب يصد الريح عنك وفراش لمتعتك الحرة وحلم تطيرين على بساطه وشغف منه ترتوين فلا بديل في الدنيا يستحق أن تنفقي جميل حياتك من أجله إني أحتاج إلى شجاعتك فهي وقود سفينتنا وهي رياح أشرعتنا،أحتاج إلى قوتك وصراحتك، تشجيعك، كلمتك، همستك، إحساسك المسموع، مشتهاك المطبوع أحتاج أن لا أبحر في بحرك وحدي فغاطسك عميق ولذا أحتاج إلى قوتك.

- لا أعرف.
- هذا محزن أنا ملتاع إذا طلبت ما ليس حقي فقط حين تقولين نعم بيقين تام ومطلق نحن بخير.
- أتدلل يا عبدو.
- أعبدك يا بنت، صدقيني أنك تسكنينني تعيشين داخل ذاتي حتى الرحيل ولا أعرف ماهية هذا الحب ربما لأني لم أتزوج ولم أنجب هذا الإحساس نحوك يثير بي الجنون.
- يا ليتني كنت كالجماد كي لا تحيا الخلايا عند ذكره.
- ما الشيء الذي يتحرك الجماد لذكره ويفجر الصخر والأنوثة ويحيي السبات الجنسي.

- كل شيء دافعه الحب يتحرك الجماد لذكره.
- من هو الحبيب يا مارلا لم تحددِي المفهوم لقد سارعت إلى إبعاد المخيلة عن الجنس بقوة لكي لا يطمع فيك الأرذال وأنا غيور.
- لا يستطيعون.
- أعيش في غابة من الجمال الألماني لا أشعر بها فأشرئب عبر الحدود إلى لبنان، فأجد كل ذلك الصد من بنت مستبدة لا تخشى الله في ومظلمتي عند الله كبيرة، أنا متسامح جداً كغاندي وسقراط لكن حسبنا الله هو المولى وهو النصير على ما تظلمون، مصيبتي أني قروي لا أعرف سوى الحب أغضبتني يا بنت وخاطري زعلان.
- عذراً عبدو لم أقصد والله.
- أنا أتمثلك وأعيش تفاصيلك لست ملاكاً اغتصبوه بل أنثى بشرية عاشقة ومعشوقة أنت عذريتك في صفاء غشاء عقلك ونصاعته.
- أمتيقن؟
- طبعاً عذراء اللورين، التي قادت جيوش فرنسا وهي راغبة في النصر على الإنكليز، كانت لا تقرأ ولا تكتب. اكتسبت عذريتها من أميتها وبراءتها لا من غشاء رقيق يتحاربون عليه، العذرية تعبير مجازي عن البراءة، نقول الأرض العذراء يعني الأرض الخصبة، يجب أن تطلقي العنان

لنفسك وتحترمي مخزونك الاستراتيجي اللاشعور فعظمة الإنسان تكمن هناك هذه القواعد هي التي صنعت مني الإنسان الذي تعرفينه وتحترمينه.

- هذا ضبط ذاتي قوامه بعد الرؤية أضعاف أضعاف الخيال والواقع.
- المهم أن تتعلمي أسس ضبط شخصيتك مع الآخرين قبل أن يحدث ما لا تحمد عقباه وهذا ما تعلمته مع الحاج أبي فؤاد، لكن ما يخيفني أنك لم تفهمي أطواراً عن حياتك الجنسية فكيف تعرفينها عند الآخر؟ العبقرية تقبع تحت شجرة الغدد النخامية وغدد الثايرويد وهي تنتج مزيجاً من الغرائز والعبقرية هل تشمئزين مني عندما أحاول أن أستشيرك؟
- نعم.
- كيف أوقظ غددك مارلا هل تكرهينني حين أحاول إيقاظ الخيال الجامح لديك؟ هل تكرهينني حين أجعلك قرينة غرائزي ؟ هل تضجرين من بوحي لإثارتك؟ ستكتبين عوالم لا روايات بك أرتاح جداً بك أمخر عباب البحر كغواصة بحجم القارات، سألت واعظي هل تعلم هي كم أحبها؟ قلت: أعتقد ذلك قال: مالها إذاً لا تطيق رؤيتي؟ قلت: ومن قال لك إنها لا تطيق رؤيتك؟ قال أشعر بذلك. نزلت دمعة من فمه لامن عينيه.

- تكلمني مجازياً على عضو لا أحبه، صحيح؟
- اسمعي حكايته يا بنت، كان حزيناً يا مارلا قال: هل من المعقول أنها تكره رؤيتي؟ قلت: هي لا تكرهك يا حبيبي بل تحبك.
- من قال إني أحبه؟
- تفسدين حكايتي بتداخلاتك.
- لا أحبه.

قلت له أقسم بالله إنها تحبك لكنه دلال النساء يا حبيبي هل من المعقول وأنت مفجر كوامنها وينبوع توقها أن تكرهك؟ شعرت بالقهر حياله يا مارلا، هو يعشقك مسكين والله هو غايته كسر حدة انغلاقك كي تتفجر وقاحتك الأدبية،الأديب يجب أن يتواقح أدبياً كي يتمرد على ثوابت عالمه الزائف، وإلا لماذا أنا جريء معك ولست أديباً إنما أنا بحار تاهت سفينته واستقرت على جبل وأنت مترددة يجب أن أقويك، أن أجعلك حادة الصراحة سليطة على الكفر بالحق أنا طبيبك أنت قلت عالجني يا عبدو، قلت مشكلتي عالقة وأنا أحجم عن الخوض في موضوع المعاناة النفسية عن القاصر جنسياً ومئات الموضوعات الأخرى لترددي وخجلي قارئك أو مريضك مثقف وجاهل وعالم ومتعلم فاسد وتقي عنيف وشاعري قبيح وجميل حاد المزاج لينه إذن لتكتبي وتعالجي كل هؤلاء يجب أن تكوني مزودة بقوة الجرأة فالجنس يلغي فرضية الخجل الاجتماعي، الجنس يحفز المحاجّة

ويقوّي المبادرة ويبدّد الحياء الكاذب، يا مارلا اسمعيني أرجوك وإلا أكف نهائياً. مناقشة أي موضوع في الجنس إنما هي مناقشة في التنصيص أدبياً نصياً روائياً فكرياً الثقافة الجنسية أقوى سلاح لإطلاق تشمع اللسان ولكسر الخجل والشعور بالحرج.

- لا بد من ترسيم الحدود في موضوعات كهذه.
- الفرار منك بعد هذا الكلام لا بد منه قبل أن يدخل الواعظ ويشاكسني.

حتى متى يهرب المرء من شيء يسقي جذوره الخصب والحياة والأمل؟ حتى متى يفر المرء من أروع إحساس بالوجود، وما معنى الحياة من دونه. ما معنى الأدب والفن والمخترعات دون لحظة عشق سرمدية؟ هي صفر يا مارلا. إذ لا شيء يعادل لحظة حب تسكرين فيها مع من تعشقين ويذوب فيك. أجمل لحظات وجودك لذتك مع من تحبين. هل أنا نكرة في حياتك؟ يا مارلا كلمة الأرض تمشي عربة فوق المريخ كلمة قالها المسيح غيرت الوجود، المهم هناك شيء قدري يجمع روافدنا ويغذي عاطفتنا وإلا ما أسهل أن تأتي إلي..

- سأفعلها يوماً يا عبدو.
- أتقولين الصدق؟
- نعم سأفعلها.
- افتحي قلبك وعقلك للمتعة الذهنية.
- أنت غيرت لدي الكثير رغم صمتي الكبير وأنا أسمعك

تركت أثراً في شعوري وثقافتي وتجربتي أخبرك بها لاحقاً أو ستكتشفها يوماً لكن القهر يسكنني أبحث عن أبي فلا أجده كيف أستمتع بإنسانيتي وأنا معذبة؟..

حياتي إنسانيتك تتمتعين بها حتى إن نمت على الرصيف. الوجدان يختلف تماماً عن حاجاتنا الموضوعية.

- لا أستطيع فقدان الجزء الأهم من هويتي وهي معرفة أبي أين اختفى؟
- ما سرك وسحرك وما وجعك البارد داخلي؟ لماذا أعشقك بجنون كتعصب ديني؟ لماذا لا تفارقين سريري ودفئك حضني؟ لماذا لا يجف الكلام الموجه إليك في حقي؟ لماذا أشتهيك في متاهتي ويقيني. الحب هو الله لا نراه ولكن نجده في كل حين أنت كالمستحيل أخافه لكني أمخر بحاره فوق أجنحة التنين هناك سؤال أريد جواباً قوياً مشبعاً عنه لا تهرباً لا رمزية لا خجلاً من كائن لا يخجل أن يفعل لك أي شيء، سؤال هل أزعجك فأختفي؟
- لا أبداً.
- إنما منشغلة بالبحث عن أبي.
- عاطفتي في غير موقعها إذاً وأشغل ماكنة جسد شمّعته السنون نفورك سببه أنك مستلبة والآخر سالب،لأنه لم يحترم إنسانيتك بل انتصر لفحولته، نفور لأنك تمنيت اللذة

والحب فأخذهما منك عنوة لكن هل هو أنا؟ أنا أقدس أنوثتك لا رصيد آخر في بنك الحياة كي أحتضنك لأشعرك بما تشتهين وبما يتوق إليه جسد وما يشتهيه.

- ما مدى قوة تعاطف الرجل مع الرجل عندما تضبطه امرأته في موقف حرج مع امرأة أخرى؟
- أريد وضوحاً في السؤال إذا كان رأس المثلث امرأة فإن التعاطف يأخذ شكلاً انتهازياً. فهو يتعاطف معه تبعاً لمقياس رفض المرأة له شخصياً. وينقلب ضده إن وجد فيها مضجعاً وليونة. ويتخذ الحياد إن جعلته صديقاً معاتباً، الرجل منحاز إلى غريزته إزاء المرأة غالباً لا إلى عقله. إلا ما ندر من الرجال فهؤلاء أنصاف آلهة.. أنت لست رومانسية يا مارلا، عجزت عن فهم محبتك لي ولست جنسياً تؤمنين بأنوثتك فلم تحاسبين الرجل؟
- أفكر في أبي يا عبدو ربما لأنه كان يحب النساء اختفى عن أمي ولم أفهم حتى الآن ماهية الحب لأفهم ما الذي حدث مع أبي؟
- الحب قضية كبرى فشل فيها أعتى المغامرين، الحب قمة عظمى عجز عن إدراكها الصاعدون الحب قلعة منيعة استعصت على الغزاة الفاتحين، الحب ليس ديواناً ملفقاً للشعر ولا هي حكاية من أساطير الأولين،الحب موسوعة

من الفهم المشترك بين دعاة الشك واليقين فلا تقولي إلا ما تؤمنين به حقاً إنصافاً، لنفسك تنصفين هذا رأيي ويقيني بتجربتي الخائبة معك أنا وحدي في حياتك ومن لم يغشك ووحدي الذي تظلمين ووحدي الصفر في حياتك.

- من قال إن الصفر هو لا شيء أو الفراغ؟ ربما هو العودة من النهاية إلى بداية أخرى، أو ربما هو امتلاء جعبة الحياة بمتناقضات تنتفض مع كهولة نفضت أحلامها وصنعت عالمها الأخير..
- يا مارلا الصفر رقم حيادي.. اخترعه البابليون قبل الميلاد بقرون. واكتشفته قبائل الإنكا في المكسيك قبل أكثر من سبعمئة سنة. لكن الذي ثبته في الحساب وبات اختراعاً استفادت منه البشرية هو الخوارزمي الخراساني عام ٨٣٣. الكهولة تمرد خلايا وتحول تاريخي، العواطف بساتين لذلك إنسانية الكائن لا تحددها مفردات مدغمة إنما الصدق في المعايشة وهذا ما يفتقده المخلوق الشرقي.
- سؤال يا عبدو، الحب الافتراضي هو عبارة عن صورة وهمية قوية كالقناع نرتديه أو ننتزعه لنعيش مرحلة فقدناها ونضعها بين هلالين لنقع تحت تأثيرها ونخدع أنفسنا بمفردة لا تنتمي إلى الحب الحقيقي قط؟
- الحب الافتراضي تنويعة ميلودرامية للتشقلب على الذات..

وفن الميلودراما هو فن التوهم لا دراما الإقناع لا يعلمون في العادة اليتيم على البكاء. أعشقك إن بقيت معك وأنت قاتلة المحبين، أنت غاليتي بصراحة لا أعرف سرك ولا سحرك، ما أعرفه هو أنك سيدة مزعجة لكنني غبي أحب المزعجات.. لا أدري متى ستكرهينني كي أتعلم أن أنساك؟ أنت نار الله الموقدة خلقت قدراً يدخل حياتك في الأربعين لا أعرف إن كنت تعرفين ما تحسين به أو هو غامض عليك لأنك تموهين على نفسك كمن يكره رؤية عزيز مفارق لأنك تكرهين ما تعشقين بضراوة يا مارلا إبداعك يكمن في تفجير غدد الثاياروید النخامية التي تعنى بالانفعال العاطفي والوجداني والأدبي حيث تدفن الغرائز انجحي أينما كنت فهناك سعادتي.

- نعم عبدو أفعالك تدربني على الصبر لأرى ذاتي أكثر لكن أرجوك لا ترسل صوراً لا أحبها.
- ذاتك قوية لكنها متخبطة ما بين الرغبة والهروب ومتى كففت عن هربك مني لقد صرت آلهة بذاتك لأن هروبك نزوع إلى الولوج في الشيء من طريق الهرب منه.
- لا أرسل صوراً والكلام؟؟ الصور فهمنا أنها مرفوضة لكنك أجزت الكلام ثم أجزته أو رفضته ما أدراني أنك تقرئينه ربما أكتب للعفاريت.

- سر البقاء.
- أي بقاء وأي سر أنا أكتب لنفسي وربما ألعب مع أوهامي.
- أو ربما أستفز عقلك لشيء ما؟
- أنت تتلاعبين بي أو بألفاظك. أنت تقفلين على نفسك وترمين لي المفتاح وأنا قروي فتى البحر أريد المعابثة فعابثيني عودي إلى جذرك الأنثوي إلى قاعدة البيانات فيك، أنا قوتك فلا تضعفيني، قوتك مناعتك إلى قلعتك شهوتك رغبتك لا تبددني كقدح مكسور اشربي كأسك حتى الثمالة ثم اكسريها لكن لا تبدديها.
- ما زلت أفتقد الخيال والجرأة لسنا بلياس وملیزاند لماذا يا عبدو لا يوجد عندنا أوبرا عربية ناجحة؟
- عندنا يا بنت أوبرا عايدة لفيردي الإيطالي وهي فرعونية وعندنا سميراميس عن العراق لفيردي ونبوخذ نصر لفيردي نفسه لدينا تراث موسيقي. تراثنا الموسيقي سومري بابلي فرعوني هنا جوق الموسيقى في كل كنيسة وكورال وبيانو ومرتل من عام ١٢٢٠ لم تحارب الكنيسة الموسيقى، مايكل أنجلو رسم كاتدرائية الفاتيكان وروفائيل رسم جدران معابد أوروبا كلها ورامبرنت رسم العشاء الأخير للسيد المسيح وسيزان وغيرهم رسموا للكنيسة أبهى لوحاتها، فلولا الرسم والموسيقى لاندثرت الكنيسة كقيم

مادية. أنا في أنسجتك خلايا بيضاء تحميك وخلايا حمراء تبنيك.

- يبدو أن في عقلي غرائز مستفحلة وأن الغرائز الوجدانية التملكية تشكل عمقه الاستراتيجي.
- يخيل إلي أن المرء يختلي بنفسه فيما هو يهرب منها.
- أنا أبحث فيك عن ماء فما أجد فأنت كوكب من أزل منسي.
- فقط يجمعهن تشابه التكوين.. وثبات الحرارة.
- أريد شخصيات تلد في عقلي وتخرج إلى الحياة كالفراشات ولكن بوعي..
- الوعي يقودنا أحياناً إلى أشياء لا نفكر فيها ذلك أن الوعي يمتلك طاقة خاصة من القيادة فإما أن تكون اتضحت فكرة لماذا يرسم أو يشعر أو يخترع وإما يسعى جوالاً في العالم، هي غريزة المعرفة والحاسة السادسة والتوق للوصول إلى فهم المحلية بعمق تفصيلي وذلك هو قمة الواقعية وهي بوابة العالمية ولا يتم كل هذا من دون حرية شخصية بنيوية ذات رؤية حرة وقوية ومباشرة، فليس الغرض أن نكتب جنساً بل أن نفهم ما الذي يعنيه وما الذي تعني الحياة التي نعيش؟
- افهمي مارلا إن العشق شهوة جهنمية عنيفة للتمازج. والنص الأدبي هو ما نكتبه معاً لرغبات حقيقية لإنسانين تمازجت

مفاعلهما. والإثم مفهوم بدائي لهبوط الوعي واستلاب الروح الآثم نقص في الممارسة وخضوع للهزيمة.

- هل نحن أسرى العادات والمفاهيم الراسخة بشكل متوارث؟ لذلك فكرنا معوّق لكني لست معوقاً حين أكتب إليك تفصيلاً.

يمثل المرء العامة حصرياً ويفقد خصوصيته قيمته الذاتية تكون حصرياً له. فحولة أنثوية المرأة في دافعها الجنسي هي التي تستفز العوامل المطلقة للدماغ. هي محفز الأمل في حياة من ألذ مذاقها الجنس. والتأمل أحياناً جنون صامت. ومن الجنون أن لا نتمازج جنسياً وقد تمازجنا روحياً وعقلياً. ابقي كالأوروبيات هناك عمقك أي البساطة. لو كنت داعبت جسدك برؤوس أصابعي.

- كهل وتتحدث كالشباب يا واعظنا.
- شباب الرجل في خصيته وشباب المرأة في الإحليل كذا الخصوبة الفكرية أنا جامح جنسياً متقد فكرياً كلما زاد التوهج الجنسي أضيء أكثر والعضو والخصيتان دينمو أي محرك الرجولة والغدد النخامية والخلايا العصبية يعني شو فكرك افتح طب سايكولوجيا الأعضاء التناسلية، الجنس هو العاطفة والفكر.

أنا ضاجعت امرأة إفريقية سوداء وأخرى مغربية سوداء

فشعرت أن المرأة تكمن خلف البناء لا خارجه وأفكاري لا تنهكك بل تخرجك من الإنعاش الذي قضيت عمرك فيه.

أحبك يا مجنونة مقفلة بحزام العفة لعصر أليصابات الساكسوني أليصابات ملكة بريطانيا قديماً ساكسون قبائل انحدرت من الفاكينغ المتوحشة شمال أوروبا.

- اسمع عبدو لن نجد الثنائي المتكافىء في القيمة.

الجنس سبب الخليقة وهي موجودة منذ الأزل بالمليارات، العقل لا يشبع مستحيل أطلب العلم من المهد إلى اللحد، المعرفة حرة كلما أخذت منها اتسعت ونحن لا نضيف إلى الحياة بل نأخذ منها.

- أنت تكلمين دماغاً حساساً كفتوش الزيت.
- الناس تغار تتصورأن المكالمة مضاجعة حتى ولو تكلمنا عن يوم القيامة.
- أبداً لا يدعي الواعظ أنه أكثر من محب خدوم لك، وهو محب خدوم يمثل صاحبه أمام بعض الاحتياجات الخاصة غير المصرح بها لديك.
- عندما أشعر بحبك ألغي كل نساء الدنيا.
- رجولتي والواعظ لا ينفصلان فالواعظ جزء من شعوري، جزء من أنسجتي وأنا متضامن مع مظلوميته، لا تزال شقة

الخلاف كبيرة بيننا فأنا لا أعرف كيف أهضم كراهيتك لمخلوق بريء، الواعظ حزين لموقفكم منه.

- أنا لا أشبه نماذجك الصناعية.
- واعظي عبدو الإنسان وواعظك يبدو أنك منحتة صفة أخرى وما هو إلا عضو في جسد.
- مفهومك إنساني عام بخلاف العلاقات الجوهرية وهي العلاقات النسيجية بين المرأة والرجل أدبياً وعقلياً وفكرياً فالنسيج هذا في ذاته زواج حتى لو لم يمارس الجنس.
- الواعظ الخاص بي يشتهي أن يمر على تلك الهضاب الطرية فعقلي ينبع من خلاياها، إن لم ينشطني الواعظ، لا أحسن التفكير.
- الواعظ هو مزيج من الفكر والتوق هو وأنا واحد نشاطي الفسلجي انعكاس لنشاطه غدياً.
- ما الفرق بين الحب وواعظك؟
- الحب هو مزيج من الأفكار والتطلعات تعجن في وعاء الحاضر هي رغيف الغد. أما الواعظ فهو مادة حيوية تحركها هرمونات فقولي لي أي هرمون يعيق تاج الورد الواقع لا هرمون قيم تافهة كالحجارة.
- السالكون والعارفون والمريدون ومن معهم هم جوهر الوجود، والدرب في الحياة ليست لواعظ ولا سوى ذلك.

إنما هي المعرفة الروحية التي تمنحنا الحب الحقيقي الذي به نحيا ونكمل مع السالكين بأجسادهم والعارفين بأرواحهم والمريدين بما لدى كل واحد منهم ما يجعلنا نمضي نحو رحلة الضوء الأخيرة.

- هذه صوفية محضة مرغوب فيها للبراهمة والمعتزلة والبوذيين ونحن أنـاس عصريون نعيش الحياة بكل معطياتها، لذلك ما بيننا عازل أكيد بينهما برزخ لا يبغيان فعيشي الحياة التي تعجبك ودعي غيرك يختر ما يعيش يا مارلا، المعرفة الروحية تأتي من واعظ وكتاب وتجربة لا من روح والروح طاقة والطاقة في خدمة الإنسان وليس هو في خدمتها وإلا لجرفته إلى عاصفة أو حريق، والمعرفة الروحية سلاح التصوف ونحن سلاحنا العقل والتجربة، هل رأيت متصوفاً في مختبر طبي أو علمي ؟ النفس طاقة لا عقل لا تجربة إحساس عفوي يقودك بل تمشين بلا تفكير إلى أهدافك المعلومة، النفس مفهوم مطلق لا يعبر عن شيء محدد أنت لا تدرين ماذا تقولين أو تفعلين، أنت تبحثين عن وهم في كومة من الأوهام. حقيقتك تحتالين على شهوتك كي تتجاوزيها. لم تفعلي ذلك مع الواعظ هل تظنينه أزعر فالتاً في الوديان.؟

مشاعر العظماء تتلاشى أمامها القوة والعاطفة قوة

مهينة مذلة خذي نابليون خذي لويس السادس عشر، خذي سقراط العظمة شيء والعاطفة شيء خذي أعمال شكسبير الملك لير، هملت، ماذا بعد العظمة؟

- انت عبقري ؟
- لست عبقرياً بل سمكرياً محترفاً أفهم عيوب السيارات وأعرف كيفية إصلاحها وأدرك من تعنين وكيف على الذات تكذبين وكيف أن شعورك مكتظ بالحزن والإحباط وتظنين أن قطع الشريان خرافة، فالشريان ذبذبات ليزيرية وليس سلكاً من نحاس وكثير من قراراتنا هرطقات تخاطرية فأنا أحس بك وأشعر بشعورك فأنت في حالة انقباض شديد الآن أدرك سعادتك وحزنك حتى وإن لم أكلمك لأنك موجودة في داخلي.

أي شيء هو الحب فـ(كونتاك) اتصال بين شخصين يرغبان في العيش معاً فكرياً ووجدانياً وروحياً بغض النظر عن الوعاظ وتيجان الورود، الحب مفهوم أسمى من واعظ يقبل تاجاً للورد فهذا بعض قليل من كثير هو الحب.

من سنوات أتفهمك ولكن أجد أحياناً تحريك أجهزة علاها الغبار لتستعيد حيويتها فهي مطلوبة في كل وقت أقول من الضروري تحريكها أحياناً إنسانياً وتوعية وتثقيف وتنوير تاج الورد لا لغرض محدد لكن كي يتعلم كما تتعلمين

من الكتب فهو من حقه تعلم حقوقه ومهنته أنا كالبحار في السفينة إذا تعطلت المكائن يفتح الأشرعة، وإذا تعطلت البوصلة اعتمد على النجوم فإن لكل ذي حق حقاً أم أنك تنكرين حق تاج الورد بالمعرفة، لذلك كرهك للواعظ لا مبرر له أنت هادئة متزنة ناعمة صبور وهذا ما أفتقده بمن كان لي مصيراً.

لو كنت في غابة لوجدت سبيلاً كي
تفهمني الوحوش لأني أغطي ألمي
وأكبت مشاعري وأخفي جراحاتي
تصبراً.

- الواعظ؟
- ما به؟ رجل يؤدي فروضه في أوقاتها.
- هل سيدوم حياً أبداً سيموت يوماً ما أنت أهم منه.
- حين تنامين سأنزل إلى الأسفل إلى عجائزي الجميلات أشاهد فيلماً ملحمياً معهن. مضت سنواتي معهن هانئة فريداتي الصغيرات بين غياهب ماضيّ وحاضري والمستقبل أنت مارلا.
- أجبني هل سيدوم الواعظ حياً أبداً؟
- افتراضياً يعيش عمر صاحبه وإن فقدناه فلا معنى للذة العيش، من عوض سواه يمنحنا الثقة بالنفس والشعور

بالأنسنة أنت تنظرين إليه كجهاز اتصال مارق وهذا فهم بدائي إن سمحت أعيدي فهمه لأهميته الوجودية القصوى.

- أتمنى فهم ماهيته بالنسبة إليك؟
- أنا أفهمه وأحاوره وأناقشه وأتعلم من خبرته هو حافز الأمل في حياة من ألذ طعمتها الجنس، خبرته تكمن في الطاقة الحيوية التي يبعثها في الشعور والوجدان.
- هو موجود في كل مكان.
- نعم لدى الحمير لكنها لم تؤلف كتاباً ولم تكتب قصيدة، هو موجود عند الوحوش والحشرات معامل استنباط ولكنه في الإنسان عامل تكميلي للعاطفة والعقل هو جزء متمم للعملية الإبداعية لم أسمع بأديب أو عالم مخصي، لم أسمع بعبقرية ضامرة القوى، بل سمعت أن المخصي وضامر الخصيتين غبي وعلاقتك به علاقة نسغية شعبية إخلاطية دموية هو مد وامتداد.
- أنت تؤكد أني على حق مرتبط بالحب ارتباطاً كبيراً؟
- لا أدري كيف لويت عنق الحقيقة ووصلت إلى الحقيقة، نعم إن الرجل الضامر جنسياً جاف وحقود وعدواني، الجنس بعض فحولة العقل ونصاعة العاطفة.
- هل ينتهي دور الواعظ بانتهاء العاطفة؟
- الجموح الجنسي أحياناً يمتلكه ثور غبي أو حمار بينما هو

جزء من عبقرية الأفراد لكنه عند جهلتهم عامل تفريغي بحت.

- هههههه هذه فلسفة واعظية.
- ينبغي أن نفرق بين خصية تنتج الجنس وخصية تنتجه مع عبقرية إنتاج العبقرية دوراً فردياً اختيارياً للشخصية لكنه لن يظهر جباراً إلا مع جموح جنسي وأنا أشعر بطاقة مذهلة تغمرني وانفتاح عقلي وذهني يجعلني بكامل الوعي حتى الآن.
- يعني الواعظ والانفتاح العقلي يتعادلان.
- الهزء من الواعظ لن يغير حقيقته أنت موغلة في العدوان عليه، وأنت لست رومانسية الطباع منذ أن عرفتك ما أرسلت لي عبارة رومانسية واحدة، كله كلام جاف وحرفي أنت نبات الخلود الذي أكلته أفعى اليأس والإحباط.
- لمحت ارتخاء الجفن فوق العيون وإني أبصر لا أنتقد.. خطوط الخوف من عمر لأقيس مسافة المدى بين حقيقة وخيال هم يرثون قهري وأرث نجواهم فقط. أيعجبك هذا؟
- ما هذا يا بنت أترميز إلى عاطفة منكسرة ويأس من إيقاظ مواقد النشوة. أتمنى أن أوقظ مارلا في ليلها والنار في هشيمها والـدفء في جليدها والطراوة في ضمورها. تحسسي كل ما فيك فهو التوق المتفجر بين جوارحك

فأشعلي حرائقه لا تبقي مهمومة كل عمرك. الشهوة معرفة التوق معرفة المغامرة معرفة الصبر معرفة الخسارة معرفة منظومة صنع الإنسان. المهم أن لا تنسيني بسرعة لأني لا أفعلها ولا أستطيع يوماً وأن لا تفترضي ذلك ضعفاً مني، إنما قيمة كبيرة لك في عيني لأني أشعر بك مرفئي وراحة ضميري ومستقر إحساسي بالأشياء.

- ربما أنت تحكم على لحظة مستقبلية لا تدرك سرها.
- عيشي اللحظة لأنها لا تثمن، السعادة شيء لا يباع في الصيدليات خصوصاً عندما تنطوي على شعور بالرضى والحب والانصهار الوجداني والروحي ورمي غسيل القرون على حبال الزمن التافه الذي صنعها، ساعديني كي أفهم احتواء الليل وينبغي للقلب أن يفرغ وتموت الهواجس وتخمد الهمم. ويحل موسم يأس النساء والرغبات ويموت الشوق وتتراخى المفاصل ويدب الوجوم فلا يشبع المرء من ليل شرفته، لا يشبع في الواقع من فراغ يصرف يأسه فيه..

دفن الشوق كفارتي، أضناني البعد بعدما جن الليل وسكن الطيف عتمتي.. يا هذا كيف أغض البصر والقميص الخمري أعاد بصري.

بل فرحت لأن ما غرسته أثمر وما أنتظره من طموح أخضر

ومشتهاك أيقظه عقلك بما حار وفكر أنا سعيد لأني جلبتك إلى مرافىء أنوثتك وأيقظت ماردك بما اشتهى وما صال وانتفض وغاضباً قد تفجر أنا سعيد جداً لست غيرأنا مطلقاً كفاحي أن أوقظ الأنثى في مارلا وأطرد شبح مخاوفك وأكشف عن شجاعتك لأني لا يمكن أن أمضي السنوات أوقظ كهفاً بنائميه. كوني حضارية.

- وهل أنا متخلفة؟
- هل تشكين في ثقافتي؟
- لا أبداً.
- هل تشكين في عقلي هل ما يفعله هؤلاء صحيح؟
- مستحيل، صدقيني. نعيش كسندويتش من الكذب، لوكانت بيننا علاقة حميمة تاريخية قديمة لابيض شعرك من التاريخ لكفرت بكل مقدس. يا مارلا نحن مجتمع شرقي يبيع النسوان على الرصيف كسبايا في القرن الواحد والعشرين. أدرك أني أتعبت ذهنك بذلك. تفرجي على الدين اقرئي لا تتعصبي لمذهب أو لفكرة ابتعدي من ذلك مليون ميل أنت طفلة لن تكبري أبداً فجعتني يا بنت أنت تعيشين هلوسات أبحث فيها عن حقيقتك فلا أجدها، البسطاء يصلون يا مارلا.
- حلمي أن أكمل دراستي لأن ما حدث طحنني جعلني أشلاء.

- الأنبياء رعاة لا حملة دكتوراه أنا جزء من تاريخ لبنان القديم. صدقي وعيوني وبراءة حبي لك لا تحتاج للوصول إلى الناس ولا أحتاج لذلك إلى جبال وبهلوانات. لندع أنفسنا كما هي على فطرتها أوجعت قلبي.
- أنا حزينة.
- على حلم دراسة لن ينفعك في مستقبل مقتول لا مهنة فيه ستبحثين عن عمل حتى تشعري باليأس أنت في الأربعين يا بنت وتفاهة هذا الجيل عنتر شايل سيفه عقله فيه.
- هل تقصد أني أربعينية عجوزة وبت لا أنفع؟ لماذا يشعر الرجل دائماً أنه شاب أنسيت يا عبدو أنك جاوزت الثمانين بسبع سنين؟

لأن طاقة الرجل الجنسية لا تنفد. فيما المرأة تدخل سن اليأس باكراً. الرجل ينجب أطفالاً في الثمانين والمرأة تتوقف عن الإنجاب في الخمسين حتى أعضاؤها تشيخ أما الرجل فيبقى فحلاً. يبدو أني وعاء فكري مكتبة صوتية أو رصيدك البلاغي المجرد.

هل ستبقى معي رفيق درب مجهولاً؟

- بعد كل الذي رويته لك وتقولين مجهولاً؟

إن بقيت معك ستعودين بنت الثلاثين وإن غادرتك ستأكلك تفاهة المحيط الذي أنت فيه.

ترى ما هو الكلام الذي تكتبين؟ ستكتبين شاهد قبري..؟

- الواعظ من المؤكد.
- يا بنت أنا عبدو.
- الفلاح أم صانع القوارب أم الهارب برجل مقطوعة؟
- ستفضحينني يا بنت.
- أنت واعظي إذاً.
- المشكلة أنك دخلت حياتي افتراضياً على أسس من الإيمان الغيبي الاتكالي والقدري الصارم القائم على فوبيا الثواب والعقاب لذلك بات الخوض في التفصيل الواقعي للحياة لديك مزروعاً بالألغام والشك والريبة. فأنت تشمئزين من أي شيء لذلك ستبقين في هذه المتاهة. إن أي مفردة متفق عليها وهي مسمى دارج في الصحاح والمنطق والعلم مكملة لعضو ما في جسدك تثير اشمئزازك لأنها تذكرك بفوبيا العذاب وتدفعك للهرب.. كلمة النكاح قرآنية يا سيدتي.
- أعرف أن ثقافتك هي حصيلة ما تعلمته عند الشيخ مرزوق القراءة والكتابة لكن الحياة تطورت وما عاد شيخ الكتاب هو المعلم الوحيد في هذه الدنيا..
- لذلك أدبك يلامس الظاهر بحذر أما العمق فمفردات غامضة ما أنزل الله بها من سلطان، أريد أن أحررك من الخوف من الكلمات لا أدعوك إلى ممارسة الرذيلة مطلقاً فأكون فاجراً شيطاناً مريداً وإني أحترم قدسية شرفك مارلا

و لذلك أحببتك..لكن تخيلي نفسك طبيبة أمراض نسائية أو باحثة اجتماعية أو متخصصة بعلم النفس العاطفي والجنسي، أو متخصصة بالعلاقات الإنسانية بين الأفراد فهل تخجلين من مناقشتها؟

- لماذا تثير كل هذا الشجن بي؟
- لن تكتبي وأنت في عزلة عن المفردات أو عن الخوف اعزلي المنحرفين من حولك والطامعين فيك وهؤلاء مكشوفون وتابعي اهتمامك بالعلوم الاجتماعية ولا تشمئزي من شيء تمارسينه في العلن.
- كلما تحدثت معك تدهشني، ما أجده في حديثي معك لا أجده في حديثي مع البروفيسور زراقط.
- على ذكر البروفيسور زراقط هل تحبينه يا بنت.؟
- نو، لا أحبه هو متصاب متكلف يبحث عن لذة عابرة من أجساد لا هم لها إلا استعراض حسنها لنيل علامة جيد جداً.
- والواعظ؟
- أغلقت صفحة الكلام وأنا أضحك من كلمات ما قالها لي رجل في مثل سنه، ولا أعرف حقيقة إن كان هذا الواعظ شيخ أحلامي إلا أنه يصقلني بمعرفته التي تدهشني. وكلما عاودت محادثته أشعر بأن الكون هو الواعظ.
- سألت الواعظ متى تصبح الحياة لينة بيضاء كالحليب؟
- قال عندما تنامين.

- لماذا؟
- يلين الجسد العاري عند النوم لأن النفس تصفو وتزيل عنها ما يؤرقها، إن كانت غايتك الحياة فأنت على الطريق الخطأ، أما إن كانت غايتك نفسك فأنت على الطريق الصحيح، لأن النفس إن تطهرت تطهر كل شيء بعدها حتى الفكر.
- هل ما نشعر به هو الذي يحقق لنا ما نريده؟
- بل المهارة في تحديد نقاط القوة والضعف في كل شيء.

حين أنظر إلى حياتي كيف تطورت من بيت فريدة الزنبق حتى مأوى العجائز هنا أدرك أن التطور لا يسيء إلى الإنسان بل يقوده إلى معرفة نفسه، أو كيف سار على درب الحياة حتى وصل إلى ما هو عليه حين ألقاه. وأنا التقيتك يا مارلا لأروي لك قصة حياتي ولتنهي أنت فصولها أنت بأصابع لفها القدر كي لا أتألم كما تألمت حين عرفت أن أخي حي يرزق ولم يمت حين وقع في البئر، وهربت إلى أن أوصلتني الحياة إلى هنا.

- هل تريد إلغاء فكرة التطور؟
- لا أبداً لأن سوء الفهم في العقول التي كانت من حولي حفزتني لأتطور وأجعل من نفسي القلعة المنيعة التي يخافونها.
- يبدو أن أحاسيس التفكير الافتراضي أقوى من الحقيقة،

لهذا لا أريد رؤيتك مارلا.. أتعرفين سر وقوع أخي في البئر؟ أنا لست من أخوة يوسف، كان حادثاً قدرياً لم أخطط له ولم يخطط له أخي. الأمر المؤذي أنني ظننته مات ولم أتوقع أن أبي استطاع إخراجه من البئر بعد أن استطاع الوصول إلى رجل الإطفاء لإخراجه. لكن يبدو أني كنت أشعر بالخوف من الأصلع وأخجل عندما كنت أراه ينام مع فريدة وكأني أمارس معها المحرمات فلا أستطيع إغماض العيون ولا إقفال السمع ولا الإحساس باللذة الذي أدمنته طوال حياتي ترى ما سر حياتي يا مارلا؟

عندما قرأت رواية كنز البسطاء لموريس ماترلنك ويقول فيها: «الذاكرة والموت، بين هذين القطبين ينتشر الفراغ الذي هو، دون ضمانات، فراغ سؤال سحيق القدم» شككت أن مسألة الكينونة الإنسانية ليست بيد الإنسان الغافل عن الزمن، وقد أدركت لعبة الزمن فلعبت معه حتى اللحظة التي أكتب لك فيها يا مارلا هذا الكلام في مكانين مختلفين. أعلم أن الرواية التي تحلمين بها لتفوزي بالجائزة هي رواية الواعظ ومهما يكن من رأي النقاد بها. إلا أنها تبقى حقيقة نابعة من إنسان أحبك وما خان وطنه يوماً ولا من حاولوا رميه في بؤر فسادهم، لذلك يا مارلا إن الكتابة رسالة هي إلقاء الضوء على حدودنا الإنسانية التي هي أكثر مما ينبغي كما قال مارك روسو الذي غاب عني مئات السنين

الأرضية واقترب مني ألف سنة افتراضية والدليل أني قرأته وهو غائب عن مكان عشت فيه وحاضر في مكتبة الكترونية التقطت فيها كتابه.

- ما زلت ساهرة لا تقاوم عيناك النوم؟
- نعم إني أشرب اليانسون بالزنجبيل، وأقرأ كتاب الإحساس بالجمال لجورج سانتيانا.
- تقرئين بشغف وتململ المتحفز المشتهي؟
- لا إن مشاعري صفر.
- كذب يا بنت ليس علي من تخفي غليان الهواجس. هو غليان بارد بأوصالك.
- لمن تشتاق إلى فريدة أو إلى خديجة أو إلى سهام أو إلى مئة امرأة أخرى؟
- ألمثلي يقال هذا؟ يا بنت هن أمهاتي وفرويد يقول لا حب مطلقاً الحب تعبير عن رغبة جنسية مكبوتة، الحب حالة اشتهاء مطلق فرويد الجنس أساس كل شيء بعد مائة عام على مقولاته لم يتغير في العلوم النفسية شيء.
- لكن الحب محرك الأجساد الطينية القاسية لأنه يمنح الروح طاقة البقاء وأنا لست في الوجود سوى نفخة روح في جسد خفي.
- الضوابط الوضعية وضعت ضوابط اجتماعية للجنس

وموانع أنشأت بدورها الحب والمكابدة. الحب هو رغبة جموح في الممارسة وهي حيوانية بحتة لذلك لا عقد عند الحيوانات في ممارسة حبها.

تتزاوج تتلاقح تتكاثر؟

- لا تقاليد غبية هناك لذة وتلذذ وهو ما نفعله في الزواج وغيره كفي عن التفكير بغباوة في الحب ابقي حضارية فهو علم وفسلجة.
- أصبتني بالاشمئزاز.
- أنا أبقى أعلم يا بنت كيف لو حضرت درساً بالتشريح، دعي الرومانسية الجوفاء اعتمدي الصدق الذي يجعل منك كاتبة عالمية.
- أين الحقيقة؟
- الحقيقة داخلك أنت قامعة جلادة مستبدة متسلطة، الحب أن تعشقي شخصاً ويعشقك وهي معادلة حرجة، ومن يشبهك قد تكرهيه كما كرهت البرنسيسة لأنها تشبهني في كل شيء ولا أثق بها لأني أعرف مقدار الخبث الذي كان يعشش في داخلي. العشق تواصل أبدي انسجام أمزجة ليس هذا بمنزلة أخي وذاك صديقي والعشيق الفالنتينو المجهول المختفي المجهول العاشق يجب أن يتجانس معك عقلياً ومزاجياً وأدبياً. لأتوق إلى الشهوات.
- لماذا تقول لي هذا الآن؟

- أنا عابر في حياتك وأنا عاشقك الوحيد من طرف واحد طبعاً فأشير بنفسي إلى النموذج الذي به تحلمين.
- ستكرهني يوماً.
- مستحيل أن أكرهك يا بنت. كنت قمعتك من سنين مضت ببساطة لن تجدي من يقاوم كل هذا الزمن إلا عاشقاً غبياً كحالي. أشعر بأنك كتابي المفتوح ومدونتي معاً شغفي وجنوني ونزقي وغباوتي. ساحر هذا العالم يا مارلا كله نائم إلا نحن باراسايكولوجياً يوقظنا لنتصل ونتكلم ياللي عيونك الصيف وعيونك الشتي لفيروز لو سمعتها بعمق لأدركت أنك تسمعين أجمل شيء أنا خادمك يا بنت.
- لن تمسد أصابعي فأنا لست فريدة لتكون خادمي.
- هههههه لن تتغيري الحب سفينة لا تمضي بشراع مكسور ولن تبحري خارج السواحل مطلقاً خابرك وأعرف خلاياك وكروموساماتك.
- اتركني أحلم لا تكسر مجاذيفي.
- أنا من يمنعك ؟ بالعكس إني أمازحك لا أكسر شيئاً فالعصمة في يدك ومصيرك في يدك ووقتك قصير وخيارك عسير ومطلبك خطير أنت تصعبين السهل.
- أنا بسيطة جداً.
- هههههه بسيطة قال.. خطورتك في بساطتك الحياة مشوار صغير معبره إلى العدم ومجيئه من عدم، كلنا لا نملك ذلك

لكني أعيش فرصي المتاحة وها أنا معك يا مارلا افتراضياً أنت في لبنان وأنا في ألمانيا. لا ينقطع إحساسي بك يا مجنونة روحي نامي أضجرتني أجمل لحظات العمر لا طعم لها لكن للألم طعومه انهضي فنامي نامي جياع العشق نامي حرستك الآلهة.

ذكاء المرأة يلهب العشق؟

- أجمل عبارة نطقت بها مذ عرفتك. المهم أن اختيارك يعبّر عن المجال الاتساعي لعقلك وعن مدى ممارسته الأزلي.
- أنت تنضجين يا بنت وذكاؤك فطري مزيج من منظومة الترسبات التاريخية لموروثنا الاجتماعي تحاولين الانفلات لكن لا تستطيعين، أنها قوة العادة تخيلي أن مدمن السجائر والكحول والمراهنات محكوم بقوة العادة. لذلك يحتاج المرء إلى تقوية دفاعاته الثقافية ليحرز في أي هجوم نصراً على حشرات ماضيه. أنت محكومة بتلك القوة القاهرة وأي محاولة مني لزحزحتك ستقولين يا عبدو أتريدني أن أتعرى، أنت تدق ناقوس الجنس ملعون أبو الجنس لو كنت آخر نساء الكون لحطمت أصفاد يديك لا أريد القيود في معصميك ولا هذا المسمى دكتور زراقط سيستطيع لمس شعرة منك وأنا موجود سأقتله كما قتلت غيره ولكن هذه المرة عن سبق إصرار وترصد إن مس شعرة منك.

- كيف تطورت يا عبدو وأنت ابن فريدة الذي ولد في ليلة وضحاها.؟
- لا تقولي ابن فريدة يا بنت أنا ابن أمي فتحية بنت زيكو الدرويش وفريدة حبيبة قلبي الأبدية لكنها حبيبة مقدسة لم أفكر يوماً بشهوة فيها لا تغضبيني.
- أنا قروي ابن بحار ولبناني ابن سوريا وألمانيا ابن هولندا هههههه أحجية القرن الواحد والعشرين خرجت من البحر مفزوعاً متجهاً إلى الحقول والمراعي وقد هضمت الأدب كله في دار عجائزي الأدب الفرنسي والروسي والإنكليزي والأميركي الحديث والعصر الهيليني والفكتوري والياصابات وماذا تريدين بعد يا بنت من يرد الشيء يصل إليه..
- عبدو لأول مرة تذكر لي اسم أمك أتقول الحق إن أمك فتحية بنت زيكو الدرويش؟
- نعم يا بنت وهذا سري جداً أمي هي فتحية بنت زيكو درويش ما بك يا بنت؟
- فتحية بنت زيكو درويش جدتي.
- ماذا تقولين؟
- والله العظيم فتحية بنت زيكو درويش جدتي.
- ما هذا القدر؟

لا أعلم كم من القراء سيعتقدون أن الرحلة الواعظية لعبدو كانت رحلة حياتية ما من شؤم فيها، وإنما هي الحقيقة المرة التي عرفتها مارلا وهي غير قادرة على متابعة الحياة دونه وما يجب قوله في نهاية الرواية التي تركها لي عبدو قبل رحيله، أننا نكتب أقدارنا ونتجاهل النهايات.